جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالشرقية

علم المعاني

دراسة فنية تحليلية

لطلاب الفرقة الثانية

تأليف
الأستاذ الدكتور
فريد محمد بدوى النكلاوى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بالقاهرة
(جامعة الأزهر)

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على من جعل الله لسانه لغة يخاطب بها عباده ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وبعد،

فهذه محاضرات فى بعض مباحث علم المعانى ، توخينا منها تقريب كـــلام الأئمة إلى عقول الناشئة ، وتدريب أذواقهم على الإحساس بمواطن الجمال فى لغتهم ، وشحذ أذهانهم لفهم أغراض الكلام ومراميه هادفين إلى أن تكـــون قواعـــد هذا العلم شعاعا يهتدى به طلاب هذا الفن إلى استجلاء أسرار البلاغة فى لسانهم ، لا قيودا تعوق عن الحركة وتحول دون انطلاق العقـــول الشـــابة لتبنى فوق هذه القواعد ، أو تضيف لبنات إلى صروحها الشامخة.

فـــلا قـــيد على عقل يضيف ، أو يد تجدد ، إلا أن تكون العقول أو الأيـــدى معاول تهدم ولا تبنى ، ونارا تحرق ولا تضئ ، وألسنة تشوه ولا تقوم.

ربـــنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

المؤلف

أ.د/ فريد محمد بدوى النكلاوى

القصـر

القصر فى اللغة:

بمعــنى الحــبس ، تقــول : قصـــرته أي حبسته وهو مقصور أى محبوس، فعندما تقصر موصوفا على صفة فكأنك تقف به على هذه الصفة فــلا يتعداها إلى أخرى ، وكذلك إذا قصرت صفة على موصوف فإنها لا تتجاوزه إلى موصوف آخر.

قــال تعالى : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أى : محبوسات فيها لا يتجاوزنها ، وقال تعالى : ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ أى : يحبسن أنظارهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم نظرا لبلوغهن فى التعفف الدرجة العظمى.

والقصر فى الاصطلاح :

تخصيص شئ بشئ بطريق مخصوص.

شرح التعريف :

المراد بالشئ الأول المقصور ، وبالشئ الثانى – المقصور عليه.

فقولنا : تخصيص شئ بشئ : بمعنى أن تختص صفة بموصوف فلا تتعداه إلى غيره ، وموصوف بصفة فلا يتعداها إلى غيرها.

فعــند قولــنا "ما زيد إلا كاتب" قصرنا موصوفا – وهو زيد – على صفة – وهى الكتابة – ونفينا عنه ما عدا الكتابة ، كالشاعرية أو الهندسة مــثلا ، وإذا قلنا "ما كاتب إلا على" كنا قد قصرنا صفة – وهى الكتابة –

علـــى موصوف – وهو على – ونفينا هذه الصفة عما عدا على كإبراهيم ومحمد وغيرهما.

ويفهـــم ممـــا سبق ، أنّ جملة القصر فى قوة جملتين ، أو تقوم مقام جملتيـــن إحداهمـــا مثبـــتة والأخرى منفية ، فقد أفاد المثال الأخير معنى جملتيـــن إحداهما : إثبات أن الكتابة قد اختصت بعلى ، والأخرى نفى هذه الكتابة عن غيره من الأشخاص الآخرين كمحمد وإبراهيم.

وقولـــنا فـــى الـــتعريف : "بطريق مخصوص" يدل على أن القصر الاصـــطلاحى لا بـــد أن يكـــون بأدوات وبطرق معينة يأتى عليها "وهذه الطرق هى العطف ، والنفى ، والاستثناء ، وإنما ، وتقديم ما حقه التأخير" وأمـــا مـــا عدا ذلك مما جاء مفيداً للقصر بغير هذه الطرق فإنه لا يسمى قصـــرا اصـــطلاحيا ، وذلك مثل أن تقول: اختص محمد بالكرم أو : هو مقصـــور على العلم ، أو قولك : جاء محمد وحده ، أو قولك عن الله عز وجل: (يرزق من يشاء بغير حساب) ، أو قولك على منفرد فى هذا الشأن، وغـــير ذلـــك مما يدل على معنى الاختصاص ، فإن هذه الأمثلة وإن دلت علـــى القصـــر لكنها لا تدخل فى أسلوب القصر الاصطلاحى لأن تعريف القصـــر لا يشـــملها من جهة ، كما أن هذه الأمثلة لا تجد فيها الاعتبارات والدقائق المتمثلة فى طرق القصر الاصطلاحية ، والبلاغيون إنما يبحثون فى الأساليب من حيث اشتمالها على اللطائف والاعتبارات ، وطرق القصر تنطـــوى تحـــتها كثيرا من تلك اللطائف كما أن بينها فروقا دقيقة جديرة بالوقوف عليها لمعرفتها للتمييز بينها.

هـذا وقـد أدخـل بعض البلاغيين ضمير الفصل فى طرق القصر الاصطلاحية كقولك : محمد هو الناجح،

وكذا عد بعضهم تعريف طرفى الجملة ضمن أساليب القصر كقولك على الطبيب ، ولكن ما عليه الجمهور أن طرق القصر الأربعة المعروفة هى التى تندرج تحت هذا الباب وما عداها لا يدخل فيه.

ومـن العلمـاء مـن أراد أن يجعـل أسلوب القصر شاملا للطرق الاصطلاحية وغيرها مما ذكر آنفا ، ولذلك اقترح أن يوضع تعريف شامل لكـل ذلـك ، وهو أن يقال : أن القصر دلالة جملة واحدة على اختصاص أمـر بآخر سواء أكان منشأ تلك الدلالة هو الوضع أم العقل أم الذوق ومن ثـم يدخـل فـيه نحو : محمد مقصور على العلم ، ونحو : طرق القصر المعروفة ، وجعل منه قول الشاعر :

أرونـى أمـة بلغـت مـناها   بغـير العلـم أوحـد الـيمانى

فالمعـنى لـم تبلغ أمة مرادها إلا بالعلم أو بحد السيف والقوة ، فقد قصر بلوغ المنى لأى أمة على العلم ، وعلى قوتها ، والأخذ بهذا الإعتبار يجعـل البحث فى أسلوب القصر غير مقيد بضوابط معينة لكثرة ما يمكن إدخاله تحت الاختصاص ولكن ما عليه جمهور البلاغيين هو جعل أسلوب القصر مختصا بالطرق الأربعة المعروفة.

ومـن أدخل فى القصر ضمير الفصل وتعريف الطرفين ترك الكلام علـيهما مع أسلوب القصر لأن الكلام عليهما جاء فى الحديث عن أحوال المسند إليه والمسند الذى سبق درسته فى العام الماضى.

ميزة أسلوب القصر :

يمتاز أسلوب القصر بأمرين :

١-أن فيه قوة ومبالغة فى إثبات المعنى وتأكيده.

٢-أن فيه إيجازا لأن جملة القصر تنوب عن جملتين ، وذلك أن أسلوب القصر يدل على النفى والإثبات فى آن واحد كما سبق توضيحه.

العلاقة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى :

نظر البلاغيون في تعريفهم الاصطلاحى للقصر إلى معناه اللغوى لما بين المعنيين من ارتباط قوى ، وذلك أن القصر الاصطلاحى يتمثل فى حبس صفة على موصوف بحيث لا يوصف بها غيره ، أو حبس موصوف على صفة فلا يتصف بغيرها ، وقد قلنا فى المعنى اللغوى أن معنى "قاصرات الطرف" أن المرأة لا تمد نظرها إلى غير زوجها بل تحبسه عليه خاصة، وهذا ما يفيده معنى القصر الاصطلاحى فصفة الحبس مشتركة بين كل من المعنى اللغوى والاصطلاحى.

أقسام القصر وضوابطها:

للقصر عدة أقسام نظرا لعدد من الاعتبارات والضوابط التى تنبثق منها هذه الأقسام وهى إجمالا :

أولاً : انقسامه باعتبار عموم النفى وخصوصه إلى قسمين :

أ- **قصر حقيقى** : وذلك عندما يكون النفى عاما.

ب- **قصر إضافى**: وذلك عندما يكون النفى بالإضافة إلى شخص معين.

ثانياً : والقصر الحقيقي ينقسم باعتبار المطابقة للواقع وعدمها إلى قسمين هما :

أ- حقيقي تحقيقي ب- حقيقي ادعائي

ثالثاً : القصر الإضافي ينقسم بحسب اعتقاد المخاطب إلى ثلاثة أقسام هي :

أ- قصر إفراد ب- قصر قلب جـ- قصر تعيين

رابعاً : وينقسم القصر عموماً إلى :

أ-قصر صفة على موصوف.

ب-قصر موصوف على صفة.

وتوضيح ذلك كما يلي :

ينقسم القصر باعتبار عموم النفي وخصوصه إلى قسمين :

أ- قصر حقيقي

وذلك حينما يراد إثبات صفة لواحد ونفيها عن كل من عداه، كقولك: إنما خاتم الرسل محمد ﷺ فختم الرسل أمر مختص بنبينا محمد ﷺ ومنفي عن كل من عاداه نفيا عاما ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ﴾ فالألوهية هنا مختصة بالله سبحانه وتعالى وحده ، ومنفية عن بقية الخلائق نفيا عاما.

ومن أمثلة القصر الحقيقي قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ وقد اشتملت هذه الآية على طريقين من طرق القصر: الأول:

التقديم في قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ حيث أفاد تقديم المسند أن مفاتح الغيب مختصة بكونها عند الله سبحانه وحده لا يشاركه في ذلك أحد غيره ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ وغير ذلك مما تقدم فيه المسند على المسند إليه.

وطريق القصر الثاني الذي ورد في الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فقد أثبتت الآية الكريمة أن علم الساعة مختص بالله وحده ومقصور عليه ، ومنفي عن كل ما عداه نفيا عاما.

وقصر علم الغيب على الله سبحانه وتعالى لا يمنع من وصفه بأوصاف أخرى كالرحمة والسمع والبصر والرزق ، وغيرها من الصفات الأخرى.

ومن القصر الحقيقي قوله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ فقد قصروا دخول الجنة حسب اعتقادهم - على اليهود والنصارى ونفوا ذلك عن كل من عداهم نفيا عاما.

ومنه كذلك قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فقد قصر شكواه وبث حزنه على كونها لله سبحانه وتعالى وحده دون غيره من جميع الخلائق ، لإيمانه بأن الله وحده هو الذي يكشف الضر.

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، فالكفر بالآيات مقصور على الفاسقين وحدهم ، ومنفي عن بقية الناس جميعا.

ومـــن القصر الحقيقي قول عبد الله بن الأهتم وهو يذكر النبي ﷺ : "ومعـــه كـــتاب من الله لا يرحل إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه" ، فمراده أن النـــبي ﷺ لا يتصـــرف في أمر من الأمور سواء كان فعلا أو تركا - إلا بوحـــي من الله سبحانه وتعالى لقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فالـــنفي شامل لكل فعل من الأفعال المتعلقة بالتشريع أو تركه ، فهو نفي عام يفيد أن ذلك لا يتم بحال من الأحوال إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

ومـــنه قول الجاحظ في وصف منطق النبي ﷺ : "فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، ولا يحتج إلا بالصدق .." فالـــنفي هنا عام فقد جعل النطق مقصورا على كونه ناشئا عن ميراث الحكمة ، ونفى نشأته عن أي شئ آخر سوى هذه الحكمة ، وكونه مقصورا كذلـــك علـــى أن يكـــون محفوفا بالعصمة دون غيرها من صفات النطق الأخرى ، وقصر احتجاجه ص على الصدق دون غيره.

ويدخل في ذلك قول أبي تمام :

لـــم يغـــز يوما ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمـــه جـــيش مـــن الرعـــب

وقوله :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تـــنال إلا علـــى جســـر من التعب

والأمثلة في هذا الصدد كثيرة يمكن الوقوف عليها من خلال ما تقدم.

وفـــيما يـــتعلق بالقصر الحقيقي فإن السكاكي أهمل الحديث عنه لقلة جـــدواه فليس له أحكام سوى أنه يكون لرد اعتقاد المخاطب ، وأنه يكون

تحقيقيا وادعائياً ، وذلك بخلاف القصر غير الحقيقى (الإضافى) فله أحكام كثيرة.

فالقصر الحقيقى ليس وراءه أقسام وأحوال للدراسة كما هو الحال فى الإضافى الذى ينقسم إلى قصر قلب وإفراد وتعيين ، ولكل – قسم من ذلك اعتـبارات ، ولذا كان مجال الدراسة فى القصر الإضافى أوسع مدى فى نظر السكاكى.

ويمكن الرد على السكاكى : بما تقدم من الأمثلة القرآنية التى توضح أن قوتها فى كونها جاءت على طريق القصر الحقيقى ، لما له من قيمة فى الأداء ، وأن غيره لا يقوم مقامه فى أداء المعنى فى بعض المقامات.

ب – قصر إضافى :

وذلـك إذا كان النفى بالإضافة إلى أشخاص بأعيانهم وذلك بأن يراد إثـبات الصفة لواحد ونفيها عن آخرين معينين ، كقولك إنما نجح محمد ، فقد أثبت صفة النجاح لمحمد ونفيتها عن بعض زملائه كبكر وعلى مثلا ، فلـيس المـراد هنا نفى النجاح عن كل ما عدا محمد ، بل المراد نفيه عن شخصين أو ثلاثة مثلاً.

فأنـت فى القصر الإضافى تنفى الصفة عن بعض ما عدا المقصور عليه ، فإذا قلت ما قال محمد إلا كذا وأردت قصر قوله على أمر معين دون كل ما عداه كان القصر حقيقيا ، وإذا أردت قصر قوله على أمر دون أقوال معينة يدل عليها السياق كان القصر إضافياً.

ومثاله قولك : زيد لا يهتم إلا بالفقه ، ردا على من يعتقد أنه مهتم بالفقه وبالتفسير ، فإن النفي يتوجه إلى اهتمامه بالتفسير دون غيره فيكون القصر إضافياً.

أقسام القصر الإضافي:

والإضافي ينقسم بحسب اعتقاد المخاطب إلى ثلاثة أقسام :

أ- قصر افراد :

وهذا يخاطب به من يعتقد الشركة ، أي شركة صفتين أو أكثر في موصوف واحد في قصر الموصوف على الصفة مثل :"ما محمد إلا كاتب لمن يعتقد اتصافه بالكتابة والشعر " أو شركة موصوفين أو أكثر في صفة واحدة في قصر الصفة على الموصوف ، مثل : ما طبيب إلا محمد ، لمن يعتقد اشتراك محمد وعلى في مهنة الطب ، وسمى إفرادا لأنه قطع الشركة المذكورة في المثالين ، وإفراد الصفة للموصوف دون غيره ، أو إفراد الموصوف بصفة واحدة من الاثنتين.

ومن قصر الإفراد قوله تعالى : "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" فالآية ترد على ما كان من الصحابة عندما قيل أن رسول الله ﷺ قد مات ، حيث اضطربوا وظهروا في صورة من كان يتوهم أن النبي ﷺ لا يموت ، وكأنهم اعتقدوا فيه عليه الصلاة والسلام الجمع بين النبوة واستمرار الحياة وعدم الموت ، فجاءت الآية لتنبه المسلمين بأنه ﷺ مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى كونه بعيدا عن الموت ، فالنفي هنا مسلط على براءته من الهلاك ومع أنهم يعتقدون هذا ويؤمنون بموته - إلا أن استعظام الخبر أذهلهم عن هذه الحقيقة ، فنزلوا منزلة من يعتقد أنه

جمع بين الرسالة والخلود ، فقصرته الآية الكريمة على الرسالة دون الخلود ، بمعنى أنها افردته بصفة واحدة ونفت عنه الأخرى ، وفى الآية شاهد آخر سيأتى.

ومن الإفراد قوله تعالى مخاطبا النبى ﷺ ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فالآية تبين أن النبى ﷺ لما كان حريصا على هداية هؤلاء وتحمل كثيرا من العناء فى سبيل ذلك ، كان فى صورة من يعتقد أنه مع دعوتهم وإنذارهم يملك أو يستطيع مع ذلك هدايتهم ، فجاءت الآية الكريمة لتثبت له صفة الإنذار ، وتجعله ص مقصوراً عليها ، ونفت عنه صفة الهداية وأفردته بالإنذار فحسب لأنه نذير فقط وليس قادراً على الهداية.

ومنه قوله ﷺ "إنما أنا قاسم والله يعطى" فأفرد نفسه بقسم العلم بينهم بالسوية ونفى عن نفسه القدرة على منح الاستنباط والفهم مما يبلغه للناس ، لأن هذا خاص بالله سبحانه وكان ذلك نفيا لما اعتقده بعض الصحابة أن النبى ص يملك القدرة على تخصيص بعض الناس بفهم ما يبلغهم به.

ب- قصر القلب:

ويخاطب به من يعتقد عكس الحكم الذى أثبته المتكلم مثل : ما هند إلا قائمة ، فى قصر الموصوف على الصفة لمن يعتقد اتصافها بالقعود دون القيام ، ومثل ما تاجر ، إلا بكر ، فى قصر الصفة على الموصوف لمن يعتقد أن التاجر على.

وسمى قلبا ، لأنه يقلب معتقد المخاطب وينفى الحكم الذى كان المخاطب معتقدا إياه ، ويثبت له غيره أو عكسه.

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ اشتملت الآيات على موضعين لقصر القلب ، الأولى في قوله تعالى على لسان الكفار : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والأساطير بمعنى الخرافات والأكاذيب ، فالنبى ﷺ يخبرهم بأن الله تعالى أوحى إليه القرآن وهم يكذبونه فى ذلك وقصروا القرآن على كونه أساطير وليس وحيا كما يذكر لهم النبى ﷺ ، وهذا قلب للحكم الذى أثبته لهم النبى ﷺ من كون القرآن وحيا ، وهو من قصر الموصوف على الصفة.

والموضع الثانى فى ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأنهم لا يعتقدون أنهم يهلكون أنفسهم وإنما يعتقدون أنهم يقضون على القرآن بصرف الناس عنه فجاء القصر لقلب معتقدهم الخاطئ وإثبات صفة أخرى وهى إهلاكهم أنفسهم بما يفعلونه من محاولة صرف الناس عن القرآن وهذا من قصر الصفة على الموصوف.

وقال تعالى : ﴿وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون﴾ فهم يعتقدون أنهم على اليقين ولكنه فى الحقيقة وهم وظن فاسد ، ولذا فقد نفى الله عنهم الهداية المنبثقة عن نور الحقيقة والعلم وأثبت لهم أنهم ينطلقون وراء أوهامهم.

وقوله : ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ قصر لهم أيضاً على صفة الخرص وهى التخمين ، وكان قلبا ، لأن التخمين لا يجتمع معه التحقيق والصدق ، فالصفة المثبتة منافية للصفة المنفية ، لأنه لا يتصور اعتقاد اجتماعها ،

حيث أنهم يعتقدون أن ما هم عليه من الشرك إنما هو يقين ، وأن ما عليه النبي ﷺ – في اعتقادهم – باطل ، فجاءت الآية لتثبت لهم عكس ما يتصورونه وقلب الحكم الذى يعتقدونه ، فأثبت لهم أن ما هم عليه ليس سوى التخمين وليس من قبيل اليقين والتحقيق.

وقال الشاعر :

بيض الصفائح لاسود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

والعلم فى شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

جاء القصر بطريق العطف فى البيتين ، فالمقصور عليه فى البيت الأول بيض الصفائح ، والمقصور هو : جلاء الشك والريب ، لأن المراد: أن جلاء الشك والريب يكون فى السيوف المعبر عنها بقوله "بيض الصفائح" وليس فى كتب المنجمين المعبر عنها بقوله : "سود الصحائف" وهذا من قصر القلب حيث أثبت عكس الحكم الذى كان فى معتقد المنجمين وأما البيت الثانى فالمقصور عليه هو : "فى شهب الأرماح" والمقصور هو العلم لأن المقصود أن العلم يتمثل فى شهب الأرماح وما حققته من انتصار، وليس فى السبعة الشهب ، يعنى النجوم التى يستمد منها المنجمون تكهناتهم.

والجدير بالذكر أن معرفة المراد من أساليب القصر يعتمد فى الغالب على ما يدل عليه السياق.

ومن قصر القلب قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ قصرت الآية

المسيح ابن مريم على كونه رسولا وليس إلها كما يعتقد قومه ، ومن هنا كان القصر في الآية قلبا ، ذلك أن قوم عيسى عليه السلام يثبتون له الألوهية ويعتقدونها فيه ، فجاءت الآية لتثبت له صفة أخرى غير ما يعتقدونه وهي الرسالة ، ودعمت الآية كونه رسولا بقوله تعالى : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، ذلك أن الإله لا يموت والرسل تموت ، ثم دعمت نفي الألوهية عنه بشئ آخر ، وهو حاجته إلى الطعام والشراب وما يتبع ذلك ، والإله لا يحتاج إلى طعام أو غيره، بل المحتاج إلى ذلك هم البشر، ومن ثم فحاجة عيسى عليه السلام لذلك دليل على أنه بشر وليس إلها.

وبالنظر إلى هذه الآية وإلى قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ نجد أن الآيتين جاءتا على طريق واحد وعلى نسق واحد من التعبير ومع ذلك جعلت الآية الأولى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ من قبيل قصر الإفراد وجعلت آية عيسى عليه السلام من قبيل قصر القلب ، ولم يجعلا من قبيل واحد ، وذلك بالنظر إلى حال لمخاطب ومعتقده فالصحابة رضوان الله عليهم لم يجعلوا في صورة من يعتقد في النبي الخلود وينفون عنه الرسالة، ولكنهم عند استعظامهم لموته جعلوا كأنهم يعتقدون فيه الجمع بين الرسالة والخلود ، فجاءت الآية لتثبت له الرسالة وتنفي عنه عدم الموت ، وأما في آية عيسى عليه والسلام فقومه يعتقدون فيه إمرا عكس ما أثبتته الآية ، فهم يزعمون أنه إله فجاءت الآية لقلب هذا الزعم فنفت ما يزعمون وأثبتت صفة أخرى وهي كونه رسولا.

ويدخل في قصر القلب قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ

لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة:١١٦) .

فالمثبـت هـنا غير ما يزعمه ويعتقده المخاطب فعيسى عليه السلام أثبت أنه لم يقل لهم شيئاً أكثر من دعوتهم إلى عبادة الله وهم يعتقدونه إلهاً، فقصـر عليه السلام قوله لهم على كونه طلب عبادة الله ونفى عن قوله أن يكون متمثلا فى اتخاذه وأمه إلهين ، كما أن فى الآية قصرا آخر جاء عن طريق ضمير الفصل فى قوله : (إنك أنت علام الغيوب).

ومن قصر القلب قول الشاعر :

وكنـت أمرأ ألقى الزمان مسالما ... فآليـت لا ألقـاه إلا محاربـا

فالشاعر هنا أثبت صفة عكس التى كان يعمل بمقتضاها مع الزمان ، فقلب الحكم السابق من السلم إلى الحرب.

جـ- قصر التعيين:

ويخاطـب بـه من تساوى الأمران عنده دون ترجيح لاحدهما على الآخر مثل : ما فاطمة إلا مهندسة ، فى قصر الموصوف على الصفة لمن يعتقد أنها إما مهندسة أو مدرسة ، ولا يعرف وظيفتها على التعيين.

ومـثل : مـا مزارع إلا إبراهيم ، فى قصر الصفة على الموصوف لمـن ظـن أن المزارع إما إبراهيم وإما محمود من غير أن يعرفه على التعيين.

وسمى قصر تعيين ، لأنك عينت للمخاطب إحدى الصفتين اللتين تردد في إثباتهما ، ونفيت الأخرى ، أو عينت له أحد الموصوفين اللذين تردد في غثبات الحكم لهما ونفيت الآخر.

ومن البلاغيين من يشترط في قصر الصفة على الموصوف الإفراد ، وعدم التنافي بين الوصفين ليصح اجتماعهما في الموصوف في اعتقاد المخاطب ليكون المنفي في قولنا "ما زيد إلا شاعر" كونه كاتبا أو منجما لا كونه مفحما لا يقول الشعر.

واشترطوا في قصر الموصوف على الصفة قلبا تحقق تنافي الوصفين ليكون إثبات إحدى الصفتين مشعرا بانتفاء الأخرى.

أقسام القصر الحقيقي :

ينقسم القصر الحقيقي باعتبار المطابقة للواقع وعدمها إلى قسمين :

أ-قصر حقيقي تحقيقي   ب-قصر حقيقي إدعائي

فالذي تنفيه أو تثبته إن كان مطابقا للواقع على الحقيقة كان القصر حقيقيا تحقيقيا ، وإن كان مدعىً من المتكلم وليس مطابقا للواقع كان قصرا حقيقيا ادعائيا أو مجازيا مبينا على المبالغة ، بمعنى أن المتكلم لا يعتد فيه بغير المذكور.

والمثال على ذلك قولك : ما في الدار إلى زيد ، فإذا ذهبنا إلى الدار ووجدنا أنه ليس فيها أحد إلا هو بالفعل كان تحقيقيا لمطابقته للواقع ، وإن وجدنا أن معه غيره كان القصر ادعائياً ، لأن المتكلم أراد أن يقول : أن الوجود الحقيقي في هذا المكان لزيد ، لأنه لا اعتداد بغيره من الموجودين

معـــه مـــن حيــث حســـن استقباله وكرم ضيافته لمن يزوره بخلاف بقية الموجودين معه.

ومن أمثلة القصر الحقيقي التحقيقي قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وكذلك كل ما يتعلق بقصر أي صفة خاصة بالله سبحانه وتعالى عليه.

ومـــن أمـــثلة القصر الادعائي قولك عن أحد الطلاب "ما طالب إلا محمد" مع أن معه كثيرا من الطلاب غيره ، وذلك أنك قصرت عليه صفة طلبه للعلم ونفيتها عن كل من عداه قصرا حقيقيا ادعائيا ، وذلك باعتبار أن محمـــدا هو الذي يمثل في نظر المتكلم الإتصاف حقا بصفات طالب العلم مـــن المواظـــبة ، والجـــد ، والأدب وسعة الفهم وغيرها ، أما غيره من الطلاب فإنهم ينقصهم الكثير من هذه الصفات ومن ثم جعلوا بالقياس على محمد كأنهم لا اعتداد بهم في هذه الصفة.

ومن ذلك أن تقول : لا غزل إلا ما قاله ابن ربيعة ، مع أنه يشاركه كثـــير من الشعراء في قول الغزل لكنك قصرت الغزل عليه نظرا لإجادته فـــيه وكـــأنك لم تعتد بغزل غيره م الشعراء على طريق المبالغة (ينظر دلالات التركيب).

ومـــن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ القصر هـــنا جاء على طريق قوة إثبات خشية العلماء لله سبحانه دون غيرهم من بقية الناس ، فليس المراد نفي الخشية عن بقية الناس وإنما المراد الموازنة بيـــن خشية العلماء وكونها في غاية القوة بالإضافة إلى خشية غيرهم من العوام الذين لم يقفوا على دقائق صنع الله وأسرار وعظمة ما في الكون من

عجيب المخلوقات لأن العالم كلما اطلع على عظمة صنع الله ووقف على بعض أسرار هذه الصنعة كلما ازداد إيمانا وخشية لله عز وجل ، وإنما قلنا هنا : المراد قوة إثبات الخشية للعلماء ، ولم نقل "ادعاء" تأدبا مع القرآن الكـريم وأنه لا يصح أن توصف آياته بما يوصف به كلام البشر من كون هذا ادعاء أو مبالغة.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

قصر امتلاكه وتصرفه في الأمر على كونه خاصا به وبأخيه هارون عليهما السلام ، ونفى امتلاكه أو سيطرته على أحد آخر من بنى اسرائيل مع أنه كان معه كما يقول المفسرون رجلان آخران من بنى إسرائيل ، كما أخـبر سبحانه عن ذلك بقوله : ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المـائدة:٢٣)، لكن من واقع تجربة موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل لم يعتد بوجود هذين الرجلين ، ومن ثم لم يثق إلا فى هارون عليه السلام.

هـذا وقـد ذكـر البلاغـيون أن القصر الحقيقى التحقيقى إذا كان المقصـور فيه صفة (يعنى فى قصر الصفة على الموصوف) فإنه يقع فى الكلام كثيرا لأن الصفات يمكن أن تكون مقصورة على الموصوفين قصرا حقيقيا تحقيقيا ، كقولك : ما فى الدار إلا زيد ، بأن تقصر الوجود فى الدار علـى زيـد دون غيره ، حينما لا يكون فيها سواه ، وهذا أمر ممكن على الحقيقة ، لأنه لا مانع من أن يكون وحده فى الدار ، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا﴾ فقصر علم جنود المولى سبحانه على ذاته دون مــا سواه وقوله تعالَى : ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فغفران الذنوب أمر مخــتص بالله سبحانه ومقصور عليه قصرا حقيقيا تحقيقيا لانتفاء ذلك عما سواه عز وجل.

ومــنه قوله تعالى : ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ فقصر الإهلاك على الظالمين دن كل من عداهم ويمكنك أن تقيس على هذه الأمثلة الكثير.

أمــا قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا تحقيقيا فهذا متعذر لأنــه يعنى أن يكون للموصوف صفة واحدة لا يتجاوزها إلى غيرها على وجــه الحقيقة ، وهذا أمر لا يكاد يحدث ، وذلك أن لكل موصوف صفات كثــيرة يصعب الإحاطة بها ، فإذا قلنا : ما محمد إلا كاتب ، أفاد ذلك اننا نــنفى عنه كل صفة إلا صفة الكتابة ، وذلك محال أن تقصره على الكتابة دون كل ما عداها من الصفات الموجودة فيه ن وهل يعقل ألا يكون لمحمد سوى صفة الكتابة على الحقيقة ، فأين تذهب بقية الصفات من كونه عالما أو قائمــا او مسافرا أو أبيض أو طويلا أو قصيرا ، أو قويا أو ضعيفا .. إلخ.

فقصر موصوف على صفة واحدة ونفى جميع ما عداها لا يتأتى إلا عن طريق المبالغة والادعاء ، كأن تعتبر – فى المثال المذكور – ان صفة الكتابة هى أعظم صفاته وأبرزها.

وإنمـــا تعذرت الإحاطة بالأوصاف ، لأن العاقل لا يحيط بأوصاف نفسه خاصة الصفات الباطنية والاعتبارية فكيف يحيط بأوصاف غيره.[١]

أقسام القصر عموما:

والقصر عموما أما أن يكون :

أ-قصر صفة على موصوف   ب-قصر موصوف على صفة

باعتـــبار صيغة المقصور ، والمقصور عليه ، فالكلام إما أن يكون متضـــمنا لجعـــل الوصـــف مقصورا على الموصوف او جعل الموصوف مقصورا على الوصف.

فقولـــنا : مـــا كريم إلا إبراهيم من قصر الصفة (وهى الكرم) على الموصوف (وهو إبراهيم) ونفيها عن غيره كمحمد مثلا.

وقولـــنا : ما على إلا ناجح ، فيه قصر للموصوف (وهو على) على الصفة (وهى النجاح) دون غيرها من الصفات كالرسوب مثلا.

وبتطبيق تعريف القصر على هذا التقسيم وهو : تخصيص شئ بشئ، نجـــد أن الشـــئ الأول هـــو الـــذى يخصص بغيره ويقصر عليه ويسمى المقصـــور ، والشـــئ الـــثانى هو الذى خصصت به غيره وقصرته عليه ويســـمى مقصـــورا علـــيه ، ولا بـــد أن يكون أحد الشيئين صفة والآخر موصوفا بحسب موقعه من الجملة.

فقـــد يكـــون المقصور صفة والمقصور عليه موصوفا ، وقد يكون المقصور موصوفا والمقصور عليه صفة كما وضح من قبل.

(١) ينظر دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى.

المراد بالصفة والموصوف في باب القصر :

لـــيس المراد بالصفة في باب القصر الصفة النحوية المعروفة ولكن المــراد بالصـــفة هنا : الصفة المعنوية ، وهي كل مادل على معنى يقوم بالغير سواء كان هذا الدال على المعنى فعلا أم وصفا ، فمثال كون المعنى فعلا قولك : ما سافر إلا محمد ، فسافر هنا فعل وهو مقصور على محمد ونقول عنه أنه صفة مقصورة على موصوف لكونه قام بغيره واتصف به ذلك الغير وهو محمد الواقع فاعلا هنا وهو مقصور عليه.

ومنه قول سويد بن أبي كاهل :

...... إنمــــــــا يـــرفع الله ومـــن شـــاء وضـــع

قصـــر الرفع على الله سبحانه قصرا حقيقيا ، ومع أن المقصور هنا فعل قيل إنه من قصر الصفة على الموصوف وهو الله عز وجل ، فالمراد إثبات الرفع لله عز وجل ونفيه عن كل من سواه ، ولما قام الفعل بغيره هنا سمي صفة.

ومـــثال كون الدال على المعنى وصفا قولك : إنما الرازق الله ، فقد قصـــر الرزق على الله سبحانه وتعالى قصرا حقيقيا لأنه منفي عن كل ما ســواه ، وهــو مـــن القصر الحقيقي التحقيقي ، لأن الواقع يدل على كون الرازق هو الله دون كل ما سواه ، ومثله : ما خالق إلا الله ، ومثله قولك: مـــا شـــاعر إلا زهير ، ومنه قوله ﷺ : "إنما أنا قاسم والله يعطي" فقاسم : وصـــف وهو اسم فاعل ، وسمي صفة هنا ، فقد قصر نفسه ﷺ على كونه قاســـما العلم بين الناس ونفى عن نفسه كونه واهبا الفهم أو الاستنباط مما

يقول ، وإنما هذا عطاء من الله عز وجل ، وهذا من قصر الموصوف على الصفة ، وهو من قصر الإفراد كما سبق.

والمراد بالموصوف في باب القصر ، كل ما صلح أن يقوم به غيره من الصفات المذكورة سابقا ، أو بمعنى آخر هو الذي يتصف بغيره.

وهذا الموصوف الذي يقوم به غيره لا يشترط أن يكون ذاتا مثل ما جـواد إلا محمد ، فمحمد هنا ذات اتصفت بالكرم واختصت به ، وهو من قصر الصفة على الموصوف.

وإنما يأتي ذاتا ويأتي معنى كذلك ، كقولك : إنما رفع مكانتك فضل أخلاقـك ، فالمقصور هو رفعة المكانة بين الناس وهو صفة ، والمقصور عليه فضل الأخلاق، وهو موصوف مع أنه ليس بذات وإنما هو معنى قام به غيره ، ومن ذلك قول أبي تمام :

لا يطرد الهم إلا الهم من رجل   مقلقـل لبـنات القفـرة النعـب

الهم الأول بمعنى الحزن ، والهم الثاني بمعنى قوة الهمة وإنهاضها ، والقلقلـة: الحـركة العنـيفة ، وبنات القفرة هي الإبل لأنها تقطع القفار. والنعـب : التي تحرك رأسها في السير لنشاطها ، فقد قصر طرد الهم هنا على الهمة والمضي في الرحلة ، وهذا من قبيل القصر الادعائي والمبالغة في عدم الاعتداد بالأشياء الأخرى التي تطرد الحزن كلقاء الأحباب وقراءة العلم وغيرها ، والشاهد هنا أن الموصوف ليس ذاتا وإنما وقع معنى وهو كلمة الهم.(١)

(١) ينظر دلالات التراكيب.

ومن الأمثلة التى تدل على مجئ الموصوف معفى ، أنك قد تجد كلا مـــن الصـــفة والموصوف مصدرين كقوله ﷺ "إنما الصبر عند الصدمة الأولـــى" فالصـــبر صفة وهو مقصور على كونه عند الصدمة الأولى فى المصيبة دون ما بعد ذلك ، لأن النفس تتسلى عن المصيبة بعد ذلك بمرور الأيام.

وقـــد يكونا فعلين كقوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ قصـــروا عـــبادتهم للأصنام على كونها لتقريبهم إلى الله سبحانه وتعالى ، فالمقصـــور والمقصور عليه جاءا فى صورة فعلين ومع ذلك جعل الأول صفة والثانى موصوفا.

ويمكـــن إدراك كل هذا والوقوف على كون القصر من قبيل الصفة على الموصوف أو من قبيل الموصوف على الصفة بدراسة الأمثلة الكثيرة وتحديـــد المـــراد مـــن كل مثال ، بالإضافة إلى معرفة كل من المقصور والمقصور عليه فى كل طريق من طرق القصر الأربعة والتمييز بين كل من الصفة والموصوف.

ومن أمثلة قصر الموصوف على الصفة قول شوقى :

وإنمـــا الأمم الأخلاق ما بقيت   فـــإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

المـــراد هنا قصر ما يتعلق بأحوال الأمم مما يدخل فى تقدير مكانتها وفى استمرار حياتها الكريمة ، قصر ذلك على الأخلاق ونفى ما عدا ذلك من القوة والغنى وكثرة السكان وغيرها ، لاعتقاده ان الأخلاق وحدها هى الـــتى يعتمد عليها فى تكوين الأمة ، وبذلك يكون القصر هنا من الحقيقى الادعـــائى لأن هـــناك عوامل أخرى تدخل فى عظمة الأمة مع الأخلاق ،

كالتقدم العلمي أو الحضاري أو الفني أو العدد السكاني وغيرها ، ولكن الشاعر لم يعتد من كل ذلك إلا بالأخلاق ، وجعل غيرها كأنها ليست بشئ بجانب الأخلاق.

والجدير بالذكر أن قصر الصفة على الموصوف يعني أن هذه الصفة لا تتجاوز موصوفها ، وإن جاز أن يكون له صفة أخرى غيرها ، مثل ما ذاكر الفقه إلا محمد ، فهذا المثال أفاد أن مذاكرة الفقه مقصورة على محمد دون بكر أو أحمد ، وهذا لا يمنع أن يكون محمد قد ذاكر النحو والنصوص وغيرها ، فقصر الصفة على الموصوف يمنع اشتراك الغير في هذه الصفة لكونها صارت خاصة بالموصوف فلا تتعداه إلى غيره.

أما قصر الموصوف على الصفة فيعني أن هذا الموصوف ليس له إلا هذه الصفة فلا يتجاوزها ، ولا يمنع أن تكون هذه الصفة وصفا لموصوف آخر غيره. فإذا قلنا : ليس شوقي إلا شاعرا ، كان المراد أن ننفي عن شوقي كل صفة مما له علاقة بالشعر كالكتابة والخطابة والنقد وغير ذلك من أمور المعرفة ، ومن ثم فقد قصرنا شوقيا على البراعة في الشعر وحده ، وهذا لا يمنع أن يتصف بالشاعرية غيره كحافظ والبارودي، لأن قصر الموصوف على الصفة لا يمنع من كون الصفة المذكورة شركة بين هذا الموصوف وبين غيره.

وهناك أمثلة كثيرة يمكن أن نقيسها على ما سبق ، ومن ذلك قول المتنبي يتحدث عن نفسه :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا إلا لخالقه حكما

ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ... ولا واجدا إلا لمكرمة طعما

الشـــطر الأول : فيه قصر الاستعظام على نفسه دون غيرها من أي شئ يستعظمه الآخرون ، من قصر الصفة على الموصوف.

وفى الشطر الثانى : قصر قبول الحكم على كونه صادراً من الله عـــز وجل- فقبول الحكم وقع مقصورا وكونه من خالقه مقصورا عليه ، وهـــذا مـــن قصر الموصوف على الصفة ؛ لأن المراد أن الشاعر يرفض تماما أن يكون محكوما لأحد أيا كان إلا للذى خلقه.

وأما الشطر الأول من البيت الثانى فإنه يتضمن قصر مسالكه وسبل ســيره علـــى غـــبار الحرب (فؤاد العجاجة) وهو من قصر الصفة على الموصـــوف بمعنى أنه لا يكون فى جوانب المعركة ، وإنما هو فى وسط رحاهـــا دائمـــا، وفؤاد العجاجة هنا مستعار لقلب المعركة ونقطة الارتكاز فيها.

وفى الشطر الثانى قصر إحساسه بالمذاق الجيد على المكرمة وحدها فليس لأى شئ فى حياته أو فى مذاق فوق طعم المكرمة.

ومن قصر الموصوف على الصفة قول الشاعر:

هـــل الجود إلا أن تجود بأنفس　　　على كل ماضى الشفرتين صقيل

والـــنفى هنا جاء من معنى الاستفهام الانكارى ، قصر الجود (وهو موصوف) على الجود بالنفس (وهى صفة) ونفى ما سواه من الجود بالمال أو بالرأى ... إلخ.

هـــذا ، وكل قصر لا يخرج عن كونه قصر موصوف على صفة أو صفة على موصوف.

وقـد وضع بعض مشايخنا – بعض الضوابط التي يمكن من خلالها التعرف على نوع القصر من حيث هو صفة على موصوف أو العكس.

ومضـمون كلام هذا البعض: أن القصر في الفاعل يكون من قصر الصـفة علـى الموصوف مثل : ما سافر إلا محمد ، ومنه قوله تعالى : ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقولـه تعالى : ﴿لَا يُجَلِّيهَا إِلَّا هُوَ﴾ وقوله تعـالى :﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

والقصـر فـي الخـبر يكون من قبيل قصر الموصوف على الصفة كقولـك: إنمـا محمد ناجح ، وقوله عليه الصلاة والسلام : "إنما أنا قاسم" وقولـه تعـالى : وَمَـا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ وقوله : ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [1] يسـتوي فـي ذلـك كون الخبر جامدا أو مشتقا ، أو جارا أو مجرورا فالجامد مثل : "إنما هو أخوك والمشتق" و"هل الجود إلا أن تجود بأنفس" والجار والمجرور : "وهل أنا إلا من غزية".

والقصـر فـي المبتدأ (يعني وقوع المبتدأ مقصورا عليه) يكون من قصـر الصـفة على الموصوف كقولك : إنما كاتب زيد ، وإنما لك هذا ، ومـنه قوله تعالى : (فإنما عليك البلاغ) ومنه قوله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

والقصـر في المفعول (يعني وقوع المفعول به مقصورا عليه) فإنه يحتمل ثلاث حالات :

---

(١) وهذه الآية كذلك من قصر القلب لأنهم يعتقدون بتعداد الآلهة فقلب معتقدهم.

أ- أن يكـــون معناه قصر الفعل الصادر من الفاعل على المفعول ، إلا أن الفعـــل لما كان وصفا للفاعل أخذ العلماء من الفعل اسم مفعول وجعلوه نفـــس الصـــفة ، ويكـــون القصر فى هذه الحالة من قصر الصفة على الموصوف ، وصفة المفعول به إنما تكون إسم مفعول لأن الحدث لم يقع منه وإنما وقع عليه فقول عيسى عليه السلام (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) يكون معناه : ما قولى إلا ما أمرتني به ، وفى "إنما يأكل الذئب من الغـــنم القاصـــية" ، يقد ر: ما مأكول الذئب إلا القاصية ، وهكذا تؤول الصفة لتتلائم مع الموصوف وهذا وجه متكلف.

ب-أن يلاحـــظ فـــى قصر الفاعل على المفعول قصر الفاعل على الفعل المـــتعلق بهذا المفعول ، فيكون حينئذ من قصر الموصوف على الصفة تقول فى آية عيسي عليه السلام "ما قلت لهم" قصر عيسى عليه السلام نفسه على ما أمره الله به ، وفى مثال الذئب: يكون الذئب مصوراً على أكل القاصية.

ولكـــن يرد على هذا الوجه: أن المقصور عليه هو الفعل الواقع على المفعول ، والمقصور هو الفاعل يؤول بك إلى أن الذي يلي "إنما" مقصور عليه ، وهو مخالف لماعليه "إنما" حيث يقع المقصور عليه معها مؤخرا ، لكـــنك علـــى هذا الوجه تقول قصرنا الذئب على أكل القاصية والأكل فى المثال المذكور معبر عنه بالفعل "يأكل" الذى يلى "إنما".

جـــــ-ولما كان كل واحد من الوجهين المتقدمين فيه إشكال قيل : الأولى منهما ملاحظة أن الفعل مقصور على المفعول بتأويل أنه مقصور على تعلقـــه وارتباطه بذلك المفعول ، وعلى هذا تقول فى قول عيسى عليه

السلام : أن قول عيسى مقصور على تعلقه بما أمره الله به ، وأكل الذئب مقصور على تعلقه بالقاصية.

وإذا كان المقصور عليه حالا كان ذلك من قصر الموصوف على الصفة لأنه يلاحظ فيها قصر صاحب الحال على الحال نحو : ما قال إلا جادا ، وما لقى محمد صديقا إلا أكرمه فالمواد فى المثال الثانى قصر محمد فى أحواله عند لقاء صديقه على حالة واحدة هى الإكرام ، وهكذا فى كل ما شابه ذلك.

طرق القصر :

للقصر طرق أربعة يأتى عليها ، واقتصر البلاغيون على دراسة هذه الطرق نظرا لما فيها من دقائق واعتبارات وفروق تستحق الوقوف عليها ودراستها.

وقد قلنا : أن هناك أساليب تفيد التخصيص كما سبق ذكر أمثلتها كما قلنا : أن هناك أمرين يتولد من تركيبهما الدلالة على القصر ، وهما تعريف المسند بأل الجنسية ، وضمير الفصل ، فالقصر فى قولنا : محمد هو الناجح ، قد جاء من ذكر ضمير الفصل "هو" بعد ذكر محمد. فبإضافة ضمير الفصل قصد تمييز محمد وتخصيصه قبل الإخبار عنه ، ولا يستعمل هذا الأسلوب إلا إذا قصد إفراده بالنجاح ونفى مشاركة غيره له فى هذا النجاح ، وهذا يعرف بقصر المسند على المسند إليه ، وقد تولد هذا المعنى مما بين الكلمات ومجيئها على هذا التركيب.

وكذلك تولد القصر فى قولنا : محمد المسافر ، من دلالة التركيب وذلك لأن التعريف باللام يفيد الجنسية "فالمسافر" يفيد جنس المسافر

فيستغرق الأفراد فردا فردا ، ومن ثم يدل على العموم ، ولذا كان الإخبار بتلك الكلمة عن محمد دالا على أنه ليس هناك مسافر سواه ، وهذا هو معنى القصر الاصطلاحي.

ومن أمثلة التخصيص بضمير الفصل قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾.

هذا والجدير بالذكر أن العلماء قد نبهوا في هذه الآيات على أمر دقيق في نمطها ، فقد لوحظ أن بعض الآيات جاء بضمير الفصل وبعضها ليس كذلك ، فقالوا : إن ضمير الفصل يؤتى به لإفادة الاختصاص في كل موضع يدعى فيه نسبة ذلك المعنى إلى غير الله ، ومن ثم جئ به في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ وما جاء من الآيات على ذلك ولم يؤت به فيما لم يدع أحد فيه نسبة الأمر لغير الله ، ولذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ فلما لم يدع أحد نسبة خلق الزوجين لغير الله استغنى عن مجئ ضمير الفصل في الجملة.[1]

هذا : وقد ترك البلاغيون ذكر هذين الأمرين مع طرق القصر لأنه سبق الحديث عنهما في أحوال المسند إليه والمسند.

---

(١) ينظر دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى.

أما طرق القصر الاصطلاحية فهي :

أ- العطف بـ لا ، وبل ، ولكن

قدم البلاغيون الحديث عن العطف أولا لأنه أقوى الطرق في الدلالة على الإثبات والنفي معا بخلاف الطرق الأخرى فإن النفي فيها يفهم بالفحوى ، لكن العطف مصرح فيه بالإثبات والنفي دفعة واحدة ، وترتيب طول القصر مبني على ترتيبها في قوة إفادتنا للقصر.

ومن أمثلة العطف بـ "لا"

هذا زيد لا محمد ، فالمذكور مقصور على زيد ، محمد يدعوكم إلى الله لا إلى الشيطان ، أنا أفعل ذلك رغبة لا رهبة ، ومنه قول المتنبي :

وتشرف عدنان به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم

فلما كان العطف بـ "لا" دالا على القصر دلالة نصية جاء معنى القصر فيها واضحا لا يحتاج إلى طول نظر ، وذلك لأن جملتها دلت على النفي والإثبات معا ، ومنه قول أبي تمام "بيض الصفائح لا سود الصحائف" السالف الذكر.

وقد ذكر البلاغيون أن المقصور عليه في العطف "بلا" هو المقابل لما بعد "لا" ففي قولنا :زيد شاعر لا كاتب نجد أن المقصور عليه هو "شاعر" لأنه المقابل لما بعد "لا" وهو "كاتب" والمراد هنا قصر زيد على الشاعرية دون الكتابة.

وقد ذكر الخطيب : أن العطف بـ "لا" يفيد القصر في كل صوره من حقيقي وإضافي بأقسامه ، مثل "هو شاعر لا غير" فهذا المثال حقيقي

لعمـــوم الـــنفى ، ومثل (هو شاعر لا كاتب) فهذا إضافى حيث أفاد إثبات الشـــعر له ونفى الكتابة عنه ، وهذا المثال صالح لكونه إفرادا وذلك للرد علـــى من يعتقد اتصافه بهما معا ، وصالح لكونه تعيينا إذا كان المخاطب مترددا بينهما ، وقلبا إذا كان يعتقد العكس.

(بـــل) لا تفيد القصر إلا إذا وقعت بعد نفى مثل : ما جاءنى زيد بل عمرو ، حيث أفادت إثبات المجئ لعمرو ونفي عن زيد.

وأمـــا بعد الإثبات فلا تفيد القصر كقولك : جاء زيد بل عمرو لأنك تقلب حكم المجئ إلى التابع الذى هو عمرو ، وتجعل المتبوع الذى هو زيد فـــى حكم المسكوت عنه ، وبذلك تفيد الجملة الإثبات للشئ فقط ن ولا تفيد نفيه عن غير المذكور لان الحكم المسكوت عنه لا يوصف بنفى ولا إثبات.

وقـــد خالف الجمهور فى ذلك حيث قالوا : إن (بل) بعد النفى تفيد ثبوت الحكم التابع مع السكوت عن ثبوته أو انتفائه عن المتبوع ، فقولك : (مـــا جـــاءنى زيد بل عمرو) ، يفيد إثبات المجئ لعمرو واختصاصه به والســـكوت عن مجئ زيد ، وكأن معنى الإضراب والانتقال فى "بل" جعل الحكم السابق مسكوتا عنه وبذلك يستوى فيه النفى والإثبات ، وهذا ضعيف هذا ويقع المقصور عليه بعد "بل" تقول فى قصر الموصوف على الصفة : (مـــا زيـــد قاعدا بل قائم) ، وفى عكسه (ما عمرو قائما بل زيد) **والمبرد** يذكـــر أن قولـــك (ما جاءنى زيد بل عمرو) يفيد نفى المجئ عن الاثنين ، لأن عطف عمرو على زيد يقتضى أن يشاركه فى الحكم فيكون المراد (بل مـــا جـــاءنى عمرو) ، فلا تفيد القصر لأنها لا تكون للقصر إلا إذا أفادت ثبوت ضد حكم ما قبلها لما بعدها مع تقرير النفى لما قبلها ، أما إذا كانت

لنقل الحكم لما بعدها يصير ما قبلها فى حكم المسكوت عنه حتى بعد النفى فلا تفيد قصرا.

وأما العطف بـــ (لكن) فيفيد القصر أيضا وذلك فى مثل قولك : (ما الشاعر أبو تمام لكن البحترى) فقد نفيت الشاعرية عن أبى تمام وقصرتها علـــى البحترى ، وفى قولنا : (ما جاءنى زيد لكن عمرو) من قبيل قصر القلـــب[1] إن اعتقد المخاطب أن زيدا جاءك دون عمرو ، ففى هذا المثال قصر المجئ على عمرو دون زيد وهو من قصر الصفة على الموصوف ، وواضح أن المقصور عليه هو الواقع بعد (لكن) والجدير بالذكر أن (لكن) إذا وقعـــت بيـــن جملتيـــن فـــلا يكون القصر المفاد بها من قبيل القصر الاصـــطلاحى لأنهـــا تكون للاستدراك حينئذ لكونها لا تعطف جملة على جملـــة علـــى الأصح ومثال ذلك : (وضحت لك هذا الأمر لكنك لم تلتفت إليه) ومن أمثلة إفادة (بل) للقصر قول الشاعر :

ليس اليتيم الذى قد مات والده ‏‏ ‏‏ بـــل اليتـــيم يتـــيم العلم والأدب

ومثال إفادة (لكن) للقصر قول الشاعر :

إن الجديدين فى طول اختلافهما ‏‏ ‏‏ لا يفســـدان ولكـــن يفسد الناس

هـــذا وقد ذكر بعضهم أن (لكن) لا تفيد القصر إلا إذا سبقت بنفى أو نهى.

---

(١) ذكـــر البلاغـــيون أن (لكـــن) تكون لقصر القلب على الاشهر بخلاف من ذكر أنها تفيد الإفراد كذلك.

ويـــرى بعض البلاغيين أن العطف (بلا وبل ولكن) لا يدخل ضمن طـــرق القصر لأن العطف بها إنما هو نفى وإثبات فقولك : (زيد شاعر لا كاتـــب) فهنا انتفت صفة واحدة واثبتت أخرى ، ولا تعرض فى هذا المثال لـــنفى صفة ثالثة ، والقصر إنما يكون بنفى جميع الصفات غير المثبت إما حقـــيقة أو مجازا كما فى الادعائى وليس خاصا بنفى الصفة التى يعتقدها المخاطـــب فقـــط ، والذى دعاهم إلى ذلك أنهم وجدوا أن مزية الإيجاز – الـــتى قلنا أنها من ميزة أسلوب القصر لقيامه مقام جملتين – لا تتحقق أو تتضـــاءل فى طريق القصر ، للتصريح فيه بالإثبات والنفى معا ، ومن ثم تكون بلاغة القصر فى هذا الطريق أقل منها فى غيره ، إلا أن فائدة التأكيد فى طريق العطف أقوى من بقية الطرق.[1]

الفرق بين لا ولكن من حيث الدلالة في الإثبات والنفي:

الذى بعد (لا) منفى عنه الحكم ، والذى بعد (لكن) فى النفى ثابت له الحكـــم ، ولا تـــتفق (لا) و (لكن) فى أنهما لرد المخاطب إلى الصواب ، ومـــن أمـــثلة العطـــف بـــ (لكن) قوله تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾. فهذا قصر قلب ، لاعتقادهم فيه الأبوة لزيد ونفى الرسالة عنه ، وقد أفادت الآية نفى أبوة محمد عليه السلام لزيد وإثـــبات الرسالة له ، وهو من قصر الموصوف على الصفة ، ومنه قوله تعـــالى : ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ جعل القرآن مقصـــورا علـــى التصديق لما سبقه من الكتب ونفى عنه الافتراء والكذب قصر موصوف على صفة ، قصر قلب.

(١) ينظر دلالات التراكيب.

طريق النفي والاستثناء(١)

مــن خصائص هذا الطريق أنه لا يستعمل إلا فى الأمر الذى ينكره المخاطــب ويشــك فيه فلا يستعمل إلا فى المعنى الذى يحتاج إلى زيادة تقريــر وتوكيد ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ومثل قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، فقد جاء الأسلوب في الآية الأولى بالنفي والاستثناء لأنه يواجه عقيدة رافضة ومخاطبا منكرا أشــد الإنكــار أن يكــون ما يدعوهم إليه أساطير فهم يعتقدون أن القرآن أساطير بينما يعتقد عليه السلام أنه حق لا ريب فيه.

وقوله : ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ جاء بهذا الطريق أيضا لإنكارهم أنهم لا يهلكون إلا أنفسهم ، ويعتقدون أنهم يقضون على الرسالة وكتابها.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ لستم مترددين بين الصدق والكذب عندنا ، وإنما أنتم كاذبون.

ومــثل قوله تعالى أيضاً : ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ حيث أكد قصر اتــباعه على الوحي ، وأنه لا يتعدى ذلك إلى غيره مما يتهم به من كونه أساطيرا أو شعراء وكان قصرا حقيقيا تحقيقيا لعدم اتباعه فى أمر الدين أى شئ غير الوحي ، وهذا مطابق للواقع.

---

(١) الاســتثناء من الإثبات ليس بقصر عند البلاغيين ولذلك اشترطوا لإفادة القصر أن يجتمع النفى مع الاستثناء ، أما قولك : (قام القوم إلا زيدا) فلا يفيد القصر بل يفيد معنى : جاء القوم المغايرون لزيد.

وقـــال تعـــالى : ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فهـــم لا يعـــتقدون أنهم يضلون أنفسهم وينكرون ذلك فأفادت الآية قصر الإضلال الواقع منهم على أنفسهم وحدهم لا يتعداهم إلى المؤمنين ، وقال الشاعر :

فمـــا زادنـــى الشـــيب إلا ندى ... إذا اســـتروح المرضـــعات القتار

فهنا قصر أحوال الشيب على زيادته كرما ، مع أن الشيب يدعو إلى الحـــرص خاصـــة فـــى تلـــك الأحوال التى يشتد فيها القحط بحيث تشتم المرضعة فيها رائحة الشواء دون أن تحصل عليه ، وخص المرضع لأنها محل رعاية فإذا أصابها القحط فغيرها من باب اولى ، وقال تعالى : ﴿إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فقد راعى فى ذلك المتكلم حال نفســـه لكـــون ذلـــك ضـــراعة لله عز وجل ولا تصور فيه لمراعاة حال المخاطب وهو الله عز وجل.[1]

هـــذا ومن أمثلة قصر الموصوف على الصفة فى هذا الطريق إفرادا (ما زيد إلا شاعر) لمن يعتقده شاعرا وكاتبا ، وقلبا : (ما زيد إلا قائم) لمن يعتقده قاعدا (وما زيد إلا طبيب) لمن تردد فى كونه طبيبا أو مهندسا.

وأما قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ فقـــيل : إنها من قصر التعيين على معنى : أنكم لستم فى دعواكم للرسالة عندنا بين الصدق والكذب بل أنتم عندنا كاذبون فيها ، وهذا الوجه لا يصح إلا بتنزيل المشركين للرسالة منزلة المترددين مبالغة فى إنكارهم لدعواهم وإعراضهم عنها.

(١) ينظر دلالات التراكيب.

والأولى : أن يعد هذا من قصر القلب لأن الرسل يعتقدون في أنفسهم الصدق وهم كذلك ، والمشركون يعتقدون أنهم كاذبون ومن ثم فكأنهم أرادوا بنفي الصدق عنهم قلب ما يعتقدونه.

ومن أمثلة قصر الصفة على الموصوف : (ما قائم إلا زيد) لمن اعتقد قيام زيد وعمرو ، فيكون إفرادا ، ولمن اعتقد أن القائم عمرو لا زيد فيكون قصر قلب ، أو لمن تردد بين قيامهما فيكون تعيينا.

وكيفية تأتي القصر ووجه تحقيقه في قصر الموصوف على الصفة:
أنه متى قيل : (ما زيد) توجه النفي إلى صفته لا ذاته ، لأن الذوات يمتنع نفيها ، ولما كان النزاع في كونه شاعرا أو كاتبا وليس في كونه طويلا أو قصيرا فإن النفي يتناول الكتابة والشعر ، فإذا قيل : (إلا شاعر) جاء القصر ، وتحقق القصر في قصر الصفة علي الموصوف يتأتى في أنه متى قيل : (ما شاعر) بدخول النفي على الوصف المسلم ثبوته – يعني الشعر – لغير من الكلام فيهما كزيد وعمرو مثلاً توجه النفي عليهما ، فإذا قيل : (إلا زيد) جاء القصر.

قلنا أن الأصل في "النفي والاستثناء" أن يستعمل فيما يجهله المخاطب أو ينكره ، ولكن أحيانا يستعمل فيما هو معلوم وسبب ذلك : أن ينزل المعلوم منزلة المجهول لغرض بلاغي واعتبار مناسب ، ولذا يقول عبد القاهر الجرجاني : (وجملة الأمر أنك متي رأيت شيئا هو من المعلوم الذي لا يشك قد جاء بالنفي فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فالصحابة - رضى الله عنهم - يعلمون يقينا أنه عليه الصلاة والسلام رسول شأنه شأن بقية الرسل وأنه يموت كما ماتوا ، ومن ثم فإن أسلوب القصر هنا لا يجئ بالنفى والاستثناء ، لكن الصحابة لما استعظموا نبأ موته ﷺ كان حالهم حينئذ كحال من غابت عنه هذه الحقيقة ، أو كحال من أنكر موته عليه الصلاة والسلام فجاء خطابهم بأسلوب القصر على طريق النفى والاستثناء لتنبيههم إلى خطورة ما ذهبوا إليه من استعظام موت النبى ﷺ وبيان أنه بشر ومقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى التبرئ من الموت ، ولردهم أيضاً إلى حقيقة كونه يموت كغيره ، ولاقتلاع ما تلبس بهم من إنكار ذلك ، وفى الآية معان واعتبارات تتمثل فى غتابهم على ما ذهبوا إليه من استعظام موت النبى ﷺ ، وفيها إشارة إلى ما وقع منهم من غفلة عن هذه الحقيقة (موت النبى) كما تدل على أنهم بحالتهم هذه أوشكوا أن تهتز نفوسهم عند النوازل فينسوا حقائق الأمور وهم مع كل ذلك ما زالوا على الإيمان الراسخ واليقين الذى لا يشوبه أدنى شك.

ومن قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ جاء القصر فى قوله تعالى : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ بقصر الرسل على البشرية دون الرسالة ، وذلك لاعتقاد هؤلاء أن الرسول لا يكن بشرا ومن ثم فعندما أخبرهم الرسل بأن الله أرسلهم إليهم صاروا فى نظر القوم كأنهم ينكرون بشريتهم ويدعون أنهم رسل فخاطبوهم خطاب من

يـــنكر كونـــه بشرا وقالوا : ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ باستخدام طريق النفى والاســتثناء الـــذى يستعمل فيما هو مجهول أو منكر من المخاطب مع أن الرســل لم يدعوا أنهم ليسوا بشرا ، فنزل المشركون الأمر المعلوم منزلة المجهــول لاعتقادهم أن صفة الرسالة تنافى صفة البشرية ، ومن ثم كان القصر هنا من قبيل قصر القلب ، والجدير بالذكر أن هذه الآية ليس تنزيل المعلــوم فيها منزلة المجهول راجع إلى حال المخاطب واعتقاده – بل أن هذا التنزيل راجع إلى حال المتكلم واعتقاده فى المخاطب الذى يكلمه ، أو بمعــنى آخر : الاعتبار هنا بحال المخاطب كما يراها المتكلم لا كما يعتقد المخاطب كما في قوله تعالى ﴿وما محمد إلا رسول﴾ فالرسل – كما قلنا – لــم يــنكروا بشــريتهم ، وإنمــا الذى تصور ذلك واعتقد فيهم الانكارهم المتكلمون بهذا الأسلوب ، أى المرسل إليهم أما في (وما محمد إلا رسول) فــإن الصــحابة – رضوان الله عليهم – قد وجد منهم ما ينافى الاعتراف بكون محمد بشرا ويموت.

وقــالوا فى هذه الآية أيضاً : أن الرسل عند المتكلمين ليسوا منزلين مــنزلة من ينكر البشرية ، وإنما هم عندهم منكرون البشرية فى نظرهم ، ولــذا فالمراعى هنا حال المتكلم مع المخاطب على خلاف الأصل ، وأما قــول الرسل عليهم السلام فى جوابهم : (إن نحن إلا بشر مثلكم) من باب مجاراة الخصم ، ولا وجه فيه لاستعمال النفي والاستثناء لأن المرسل إليهم لا ينكرون قصرهم على البشرية لكن الرسل سلموا لهم بمقدمتهم التى رتبوا علــيها نفــى الرســالة عنهم وذلك لنقض ما رتبه المرسل إليهم على هذه المقدمــة بعــد التســليم بها ، فإذا كانوا قد رتبوا على بشرية الرسل نفى الرســالة عــنهم ، فإن الرسل أقروا لهم بالبشرية ثم بنوا على هذا الإقرار

قولهـــم (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) بمعنى أنه لا مانع من أن تكـــون بشــــرا وأن تكـــون رسلا ، لأن البشرية أهل لهذه المنزلة عند الله وليست منافية للرسالة عنده سبحانه ، فحينما سلموا لهم ما قالوه من كونهم بشرا لم يسلموا لهم بنفي الرسالة عنهم.

ويلاحظ أن القصر في قول الرسل ليس مقصوداً لأن المخاطبين وهم الكفـــار يقرون ببشرية الرسل ولا ينكرونها ، والقصد من قول الرسل هو نقض ما بنى عليه الكفار من كون الرسالة تنافي البشرية ، ومن ذلك قوله تعـــالى : ﴿وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير﴾ فالنبي لا ينكر كونــــه نذيرا لكن لما حرص على هدايتهم نزل منزلة من يعتقد الهداية مع الإنذار.

هذا وهناك أمثلة جاءت على طريق النفي والاستثناء لكن القصر فيها لم يراع فيه حال المخاطب من كونه منكرا أو منزلا منزلة المنكر ، وإنما المـــراعى فيها هو حال المتكلم وإحساسه بالمعنى المعبر عنه وبيان كونه متقررا في نفسه ومؤكداً عنده.

ومـــن ذلـــك قوله تعالى : ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فقوله : ﴿لا إله إلا أنت﴾ ضراعة إلى الله ، ولا يعقل أن يكون جـــاء لمـــراعاة حـــال المخاطب جل جلاله لأنه - سبحانه - يعلم تفرده بالوحدانية وبالألوهية ، ولكن القصر جاء لبيان قوة شعور المتكلم نفسه بهذا المعنى وكونه متعمقا في داخل نفسه.

وأما قوله تعالى : ﴿اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين﴾ فـإن المخاطب هنا هو النبى عليه الصلاة والسلام وليس مـنكرا ولا منزلة المنكر ، وتختلف هذه الآية عن سابقتها بأننا لا يمكن أن نقـول فيها بأن المتكلم وهو الله سبحانه عميق الإحساس بالفكرة جل وعلا عـن ذلـك ، ومن ثم فإن مجئ النفى والاستثناء هنا للتوكيد فقط ولتقرير حقيقة الألوهية.

طريق إنما:

قال البلاغيون دلالة إنما على القصر وضعية ، وأنها تفيد القصر فى كـل صـورة ، فتأتى للحقيقى بقسمية ، والإضافى بأقسامه وقد ذكر عبد القاهر : أنها تكون للرد على من يعتقد نفى ما أثبته بها تقول : (إنما جاءنى زيـد) لمن يعلم أن أحدا جاءك ، لكنه ظنه عمرا ، ولا تقوله لمن ظن أن زيـدا وعمرا جاءاك ، ولا لمن يردد المجئ بينهما (يعنى أنها عنده لقصر القلب ، ولا تستعمل فى قصر الإفراد ولا التعيين).

وعـبارة عـبد القاهـر هـى : إذا قلت : (إنما جاءنى زيد) لم يكن غرضك أن تنفى أن يكون قد جاء مع زيد غيره ، ولكن أن تنفى أن يكون المجئ الذى قلت إنه منه كان من عمرو ، وكذلك تكون الشبهة مرتفعة فى أن ليس ها هنا جائيان وأن ليس إلا جاء واحد ، وإنما تكون الشبهة فى أن ذلـك الجائى زيد أم عمرو؟ فإذا قلت : (إنما جاءنى زيد) حققت الأمر فى أنه زيد ، وكذلك لا تقول : (إنما جاءنى زيد) حتى يكون قد بلغ المخاطب أنه قد جاءك جاء ولكنه ظن أنه عمرو مثلا فأعلمته أنه زيد.

ودليل إفادة إنما القصر ما يلى :

أ-أنها متضمنة معنى "ما" و "إلا" بدليل قول المفسرين فى قوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة﴾ ما حرم إلا الميتة.

ب-وقول النحاة : "إنما" لإثبات ما يذكر بعده ونفى ما عداه ، فهى لا تثبت ما بعدها فقط ، وإلا لما كان هناك فرق بين قولك محمد كاتب ، وقولك: إنمـــا محمد كاتب ، لأن الجملة بدون "إنما" تثبت أنه كاتب ولكن "إنما" تزيد على هذا أنها تنفى عنه ما سوى الكتابة ، وهذا هو القصر.

جـ-ولصحة انفصال الضمير معها ، مثل : إنما يضرب أنا ، كما تقول : مـــا يضرب إلا أنا ، والأصل فى ذلك أن الضمير المتصل لا يؤتى به منفصلا إلا إذا كان محصوراً فيه[1] تقول : (أضرب) ولا يجوز يضرب أنا، فإذا أردت القصر قلت : لا يضرب إلا أنا، وكقول عمرو بن معد يكرب :

قـد علمـت سـلمى وجاراتها ... مــا قطـر الفـــارس إلا أنـــا

فقـد جاء الضمير المنفصل لغرض القصر، وأن ما فعل ذلك أحد غيره.
وقال الفرزدق:

أنـــا الزائد الحامى الذمار وإنما ... يدافــع عن أحسابهم أنا أو مثلى

---

(1) وأمـــا قوله تعالى : "إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله" فإن الضمير هنا لم يفصل ولم يؤت بــه مؤخراً غير محصور فيه، والمقصور عليه هنا هو الجار والمجرور (إلى الله) ومن ثم جاء الضمير مع إنما متصلا.

فلمـــا كـــان غرضــــه أن يخص بالدفاع، وأن يقولك (ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا) فصل الضمير وأخره لتحمل عبارته هذا المعنى، ولو أبقاه متصـــلاً، وقـــال (إنما أدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي) لأفاد جعل الضمير المؤخــر توكـــيداً لا فاعلاً، والمؤخر المقصور عليه لا يكون توكيداً ولا معطوفـــاً، ولا نعـــتاً ، وإنما يكون جزءاً مستقلاً في الجملة، وحينئذ يكون المؤخر المقصور عليه هو قولهم (عن أحسابهم) ويفيد أنه لا يدافع إلا عن أحسابهم وليس هذا مراده، وإنما مراده أنه لا يدافع عن أحساب قومه أحد إلا هو.

وقـــال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ ردا على قولهم لهود (فأتنا بما تعدنا) أي : لا علم لي بالوقت الذي يكون تعذيبكم فيه حكمة وصواباً، إنما علم ذلك عند الله سبحانه، ومقصور عليه وحده.

وقـــال تعـــالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ رداً علـــى سؤالهم عن وقت الساعة، أي علمها عند ربي ومقصور عليه دون مـــن ســـواه، ولـــيس عندي شئ من ذلك، والآيتان من قصر الصفة على الموصوف. وفي هذه الآية قصر آخر في قوله : ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾

وقال تعالى : " ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ رداً على قوم نوح في قولهـــم: "فأتـــنا بما تعدنا" أي : يأتيكم به الله وحده لا أنا، وهذا من قصر الصـــفة على الموصوف. والأمثلة الثلاثة أفادت النفي والإثبات معاً، ولو جاءت بدون إنما لما أفادت ذلك.

وقـــال تعـــالى: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ فقد قصر شكواه علـــى كونها لله لا لغيره، والمقصور عليه في الآية هو الجار والمجرور

ولـــيس الضمير ، كما في البيتين السابقين، لأن الضمير فيها غير منفصل فانفصاله يجعله هو المقصور عليه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فقد قصـــر إعمـــار المساجد على كونه خاصاً بمن آمن بالله واليوم الآخر لا سواهم، وهذا من قصر الصفة على الموصوف.

ومـــن خـــواص "إنمـــا" أن النفى فيها غير مصرح به لذا يصح أن تجامعهـــا "لا" العاطفة التى من شرطها ألا ينتفى بها شئ قد نفى قبلها ولا يقع فى جملة "إنما" (من) الزائدة ، ولا لفظة (أحد) لأنهما لا يقعان إلا فى حيز النفى، و(إنما) لا ينص فيها على النفى، ولذا صح أن تقول فى طريق النفى والاستثناء.

(ما من مسئ إلا وقد لقى عقابه) و (ما أحد إلا وهو يقول ذلك) ولا يصح استعمال (إنما) فى المثالين الذكورين.

وتســـتعمل (إنمـــا) فيما هو معروف لا إنكار فيه ولا غرابة تقول : (إنمـــا هو صاحبك) لمن لا ينكر ذلك، ومثله: (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) بخلاف استعمال النفى والاستثناء فيستعمل فى عكس ذلك.

ومـــن أمثلة استعمالها فيما هو معلوم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" وكقوله تعالى: "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا"(١) وقوله: "مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾(٢)

---

(١) قصـــر تأثـير انذاره عليه السلام على من يخشى أهوال الساعة ويؤمن بها لا غيره من الكافرين

(٢) قصر الهداية والإضلال على ذات من اهتدى او من ضل لا غيرهما.

وكقول المتنبي لكافور :

إنمــا أنــت والــد والأب القا	طــع أحــنى من واصل الأبناء

لــم يــرد إخباره بكونه والدا، وإنما يذكره بذلك، لأنه لا ينكر كونه بمنزلة الوالد، وكقوله أيضاً:

إنمــا تنجح المقالة في المر	إذا صــادفت هــوى في الفؤاد

فقصـــر نجاح المقالة على مصادفة الهوى لدى المرء أمر معلوم لا ينكر، ولذا جاء بإنما، وكقول المتلمس :

عصاني فلم يلق الرشاد وإنما	يبيــن عن أمر الغوى عواقبه

لمــا كان من المعلوم أن عاقبة الغوى الذى لا يستجيب للنصح إنما يظهــر له ذلــك عــند ملاقاة عواقب ما صنعه استعمل "إنما" ومثله قول الشاعر:

وما لزين في ثوب تراه وإنما	يزين الفتى مخبوره حين يخبر
فــإن طرة راقتك فانظر ربما	أمر مذاق العود والعود أخضر

قصـــر الزين على ما بداخل الإنسان وجوهره ، ونفاه عن كونه في المظهر وهو من قصر الصفة على الموصوف.

وكقولهــم: "إنما المرء بأصغرية قلبه ولسانه، ان صال صال بجنان وان جال جال ببيان" وهذا من قصر القلب. قصر قيمة المرء على شيئين وعلـــى قلــبه ولسانه، وما انطويا عليه من أفكار وجودة قوله، ونفى هذه القيمة عن جسم الإنسان وضخامته أو جماله .... إلخ.

واســتعمال (إنمـــا) فيما هو مجهول يكون لغرض بلاغى كاصباغ المجهول بصبغة المعلوم وتنزيله منزلته.

ومـــن استعمال (إنما) فيما هو مجهول أو ما ينكره المخاطب لتنزيله منزلة المعلوم قول المتنبى فى كافور.

فمـــا لك تختار القسى وإنما عن السعد يرمى دونك الثقلان

يقـــول لا ينبغي الاهتمام بجمع القسى وإعداد العدة، لأن الثقلين من الأنـــس والجـــن يقـــاتلون عنك، وهذا معنى غريب وموضع شك لذا كان الأولـــى بـــه أسلوب النفي والاستثناء، لكنه أراد أن يصبغه بصبغة الأمر المسلم به، وتنزيله منزلة المعلوم فاستعمل (إنما) التى لا تستعمل إلى فيما هـــو معلوم وكأنه أراد أن يثبت أن هذا أمر واضح لا يحتاج لزيادة تقرير أو تأكيد.

وقـــال تعـــالى عـــن المنافقيـــن : "إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ" حيث جعلوا صـــلاحهم كأنـــه أمر مسلم به مع أنهم لا صلاح لهم، وهذا لما كان أمر مـــنكراً كـــان الأولى به طريق النفي والاستثناء ، لكنهم جعلوا صلاحهم كالمسلم به وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ نافياً لقولهم ومؤكـــداً هذا النفى بذكر أداة الاستفتاح (ألا) التى يستفتح بها كل قول له شأن كما أكد الجملة "بإن" وضمير الفصل (هم) المفيد لقصر الفساد عليهم وحدهم.

وكقول ابن قيس الرقيات :

إنمـــا مصعب شهاب من الله تجلـــت عـــن وجهـــه الظلماء

حيث ادعى أن كونه بهذه الصفة أمر معلوم مسلم لا جدال فيه.

وكقول الشاعر :

ألا أيهـا الناهى فزارة بعدما أجـدت لغـزو إنمـا أنت حالم

حيث استعمل (إنما) فيما هو محل (إنكار ليلبسه لباس الأمر المعلوم المسلم، ولو أن الشاعر قال : "ما أنت إلا حالم" لذهب من كلامه أدق شئ قصد إليه الشاعر وهو ما تفيده (إنما) هنا من إظهار الاعتقاد فى قوة هذه القبيلة وشدة بأسها وأنها إذا عزمت حرب لا يثنيها عن عزمها أى نهى أو منع لما عرفه الناس عندها من قوة العزيمة ، وشدة البأس، واستعمال (إنما) هنا أفاد أن من يكفها عن الغزو بعدما استعدت له يكون بعيداً عن الواقع لأن عدم الجدوى فى أثنائها عن الغزو أمر ظاهر معلوم لشدة قوتها وتمام استعدادها.

ولـذا يقـول عبد القاهر : "وما يجب أن تجعله على ذكر منك من معانى (إنما) ما عرفتك أولاً من أنها قد تدخل فى الشئ على أن يخيل فيه المتكلم أنه معلوم ويدعى أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع.

أحسن مواقع إنما:

وقـد ذكر الإمام عبد القاهر أن من أحسن مواقع (إنما) وأنها تكون فـيه أقـوى دلالة وأعلق بالقلب مكانة أن يراد بها التعريض، وذلك بأن يقصـد بهـا إلى معنى غير المعنى المباشر لما دخلت عليه، وهذا المعنى يأتى من سياق ما دخلت عليه (إنما) كأن تقول لمن أهمل فى طلب العلم: (إنـك لـم تهتم بالمذاكرة وإنما يتحقق النجاح بالجد) فليس المقصود هنا

مجــرد الإخبار بأن تحقق النجاح بالجد أو مجرد قصر النجاح على الجد ولكــن المــراد : الإشارة لهذا المهمل بأنه لن ينجح ، وليس فى الأسلوب كــلام صـــريح يفيد عدم نجاحه، وإنما هو غرض فهم من جوانب العبارة وتأملهـــا، وفهم غرض التعريض من مثل هذه العبارة يحتاج إلى قدر من الوعى ودقة فهم سياق الكلام، ومن ثم جعله عبد القاهر يحتاج إلى قدر من الوقـــى ودقة فهم سياك الكلام، ومن ثم جعله عبد القاهر من أفضل مواقع (إنما) وذكر أنه أعلق بالقلب وذلك إذا كان لا يراد بالكلام بعد (إنما) نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه.

ومـــن أوضح ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فمعـــنى الكلام فى الآية هو قصر التذكر على أولى الألباب وأن غيرهم لا يـــتذكرون، ولكن هذا المعنى ليس هو المراد وحده هنا لأنه أمر واضح لا يحـــتاج لتأكـــيد، ولـــذا كانت الآية الكريمة تهدف إلى معنى آخر تقتضيه العـــبارة، وهو : أن التذكر إذا كان قد اختص بأولى الألباب وانتفى عمن ســـواهم اقتضى ذلك أن يكون غير المتذكرين فيما جاء به النبى صلى الله علـــيه وسلم من الدعوة إلى توحيد الله سبحانه والإيمان به ورفض دعوة النـــبى دون تـــأمل فـــيها وتدبر، ومن ثم فالمعنى التعريض المستفاد من المعنى المباشر.

والـــلازم له : أن من لم يتذكر ليس له عقل وصار شأنه شأن البهائم لأنـــه لم يستخدم هذا العقل فيما ينفع، وهذا المعنى لم يتضح إلا بعد طول تـــأمل للعـــبارة، ومـــن ذلـــك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ فالإنذار من الرسول يؤثر فى القلب بمقدار اعتقاده بصحة المنذر به، فإذا

كـان القلب خالياً من الاعتقاد بما يقع فى الآخرة فكيف يخاف من التهديد بالعذاب فيها؟ المقصود: أن من لا يتأثر بالانذار ملحق بالمنكر.

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ فالمعنى التعريض هنا يتأتى من قصر الاستجابة على من يسمع، وهؤلاء المشركون لم يستجيبوا إذن فهم لم يسمعوا بمعنى أنهم فقدوا أهلية السماع.

وقال العباس ابن الأحنف :

أنـــا لـــم أرزق محبـــتها إنمـــا للعـــبد مـــا رزقـــا

فقوله : "إنما للعبد ما رزقا" من المعانى المسلم بها لكن المقصود أن يتسلى بأن محبتها لم يقسمها الله له، وليس للعبد إلا ما رزقه الله، والمراد: أخذ النفس باليأس وتدريبها على السلوى وفى ذلك تعريض بأنه لا مطمع له فى وصلها.

ومن ذلك قوله :

يلوم فى الحب من لم يدر طعم الهوى وإنمـــا يعـــذر العشاق من عشقا

يقـــول: ينبغي للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه فإنه لا يعلم قدر بلوى العاشـــق، ولـــو كـــان قد ابتلي بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فيعذره فهو تعريض بمن لم يعشق.

ومن ذلك قول الشاعر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجـــح الأمـــور بقـــوة الأســـباب

فالـــيوم حاجتـــنا إلـــيك وإنما يدعـــى الطبيب لساعة الأوصاب

يعــرض فى البيت الأول بأنه ينبغى أن ينجح فى حاجته وأنه واثق من ذلك النجاح لأنه جعل الممدوح سبيلاً لهذا النجاح، وهذا معنى فهم من السـياق لأن معــنى البيــت الحقيقى: إنك سبب قوى ونجاح الأمور بقوة الأســباب، ويذكــر فــى البيت الثانى: أنه قد طلب الأمر من جهته حيث اســتعان بالممدوح فيما عرض له من الحاجة وعول على فضله، ومن ثم يحصــل علــى ما يريد، كما أن من يعول على الطبيب فيما ينزل به من الســقم يكون قد أصاب فى فعله، والجدير أنه ليس هنا وسيلة أو ضوابط لــتحديد الأساليب التى يراد بها التعريض فى هذا الصدد أو غيرها، وإنما مــرجع ذلــك هو تأمل الأساليب للوقوف على ما يقصد منها، والاستعانة بالســياق فــى التوصل إلى ما يراد به التعريض من طريق (إنما) وما لا يراد به ذلك.

٤- تقديم ما حقه التأخير

أحــياناً يفــيد الكــلام من التقديم الاختصاص، وأحياناً يكون لمجرد الاهتمام والذى يحكم ذلك هو السياق والمقام.

ويعد التقديم نوعاً من أنواع القدرات على الإفصاح عن المعانى يخدم المــتكلم فــى كيفية التعبير عن أفكاره، وموقع الكلمة من الجملة له شأن عظيم من حيث تحقق المرونة فى استعمال الكلمات تقديماً أو تأخيراً، وأى تغيــير فــى موقــع الكلمة يؤدى إلى التغيير الجوهرى فى تكوين المعنى ودلالته، وفرق بين أن تقول: (زيد جاءنى) و (جاءنى زيد) فالمثال الأول يفيد إلى جانب الاخبار بمجئ زيد نوعاً من الإهتمام (بزيد) وتوكيد مجيئه لسامعك نظراً لأهمية هذا المجئ، أو أن يكون مجيء زيد غير متوقع.

أمـــا فـــي قولـــك: (جاءني زيد) فلا يفيد شيئاً مما تقدم سوى مجرد الاخبار عن مجيئه.

وكذلـــك عـــندما تقـــول : (محمد يكرم إخوانه) فإنك تفيد تأكيد هذا المعـــنى أو يكون ذلك رداً على ما يستبعد من (محمد) فعل ذلك بخلاف: (يكرم محمد ضيفه).

ولأهمية التقديم يقول عبد القاهر: "إنه جم المحاسن واسع التصرف ، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضى بك إلى لطيفة، ولا تزال تـــرى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شئ وحول اللفظ عن مكان إلى مكان.

والجدير بالذكر أن المقصور عليه في التقديم هو المقدم وقد سبق في أبـــواب المسند إليه والمسند والمتعلقات معرفة شئ من تقديم هذه الألوان مما يفيد القصر.

ومما يفيد القصر في هذا الجانب هنا :

أ – تقديم المسند على المسند إليه كقوله تعالى:﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ بمعنى أن رجوعهم لا يكون إلا لله وحده وأن حسابهم كذلك لا يكون إلى عليه دون غيره.

ومن تقديم المسند على المسند إليه ما يفيد الاختصاص تارة ومجرد الاهـــتمام تـــارة أخـــرى، والذى يحدد إفادة الاختصاص أو الاهتمام هو الســـياق، فقولك عن شخص: (له الشكر) يفيد الاختصاص أن قصدت أو غيره لا يستحق الشكر، وأن لم تقصد هذا المعنى كان تقديم المسند (الجار

والمجرور) لمجرد الاهتمام ، ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ غـير مفيد للقصر ، وإنما تقديم الجار والمجرور في الآية يفيد مجرد الاهتمام بكون النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ومن بينهم وذلك توبيخ لقومه على أنهم أولى الناس باتباعه حيث نشأ فيهم ومعروف لديهم، ولو قصد الاختصاص لجاءت الآية بمعنى غير مراد.

والمفهوم من كلام البلاغيين أن المسند إذا تقدم وكان جاراً ومجروراً وسـبق بـنفى فإنه يدل على القصر والاختصاص حتماً، فإذا قلت (ليس عليك ضرر فى القيام بهذا الامر) أفدت أن نفى الضرر خاص بالمخاطب دون غـيره، وأن غيره لو قام بهذا الأمر لوقع عليه الضرر، وعلى ذلك جـاء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أى لست مختصاً بالهداية ولكن ذلك متعلق بالله سبحانه.

وقولـه تعالى : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فنفى اختصاص خمر الجنة بالغول، وجعل ذلك خاصاً بخمور الدنيا.

ب- وممـا يفـيد الاختصـاص بحسب السياق كذلك ومراد المتكلم تقديم المسـند إليه فى حالة الاثبات فإذا قلت: (أنا سعيت حاجتك) أفاد ذلك قصر السعى فى حاجته دون غيرك، وهذا المثال يصلح للقلب إذا كان هـناك من يزعم أن غيرك هو الذى سعى فى هذه الحاجة، كما يصلح للإفـراد إذا كـان هـناك من يزعم أن أحد آخر شارك معك فى هذا السـعى، ولذلك يمكن أن تضيف فى الحالة الأولى إلى المثال المذكور كلمـة (لا غيرى) وفى الحالة الثانية تضيف كلمة (وحدى) ومن ذلك قولهـم : (أتعملـنى بضـب أنا حرشته) أى: ما حرشه إلى أنا دون

غـيرى، فقد قصرت التحريش على نفسك وإذا لم تقصد اختصاصك بالسعى بل أردت مجرد تقوية الحكم لم يفد القصر، وأما إذا تقدم النفى على المسند إليه فإنه يفيد الاختصاص قطعاً على رأى عبد القاهر فإذا قلـت (مـا أنـا قلت هذا الكلام) فتنفى عن نفسك خصوصاً قول هذا الكلام، وتثبته لغيرك على الوجه الذى نفيقته عن نفسك لأن القول ثابت فلابـد له مـن قائل، وهو هنا غير المتكلم وإلا لزم أن يوجد قول من غير قائل، ولا يجوز اتباع الجملة هنا بما يناقضها فلا تقل : (ولا قاله أحد غيرى) والمقصور هنا : نفى الفعل المذكور والمقصور عليه هو المسند إليه.

وجملة القصر فى هذه الحالة دلت على المنفى على غير المألوف فى طريق التقديم[1] والإثبات (الذى هو الوجه الثانى من جملة القصر) مفهوماً ضمناً، ولعبد القاهر فى باب التقديم كلام طويل حول هذه القضية فليرجع إليه فى موضعه[2].

ومن أمثلة التقديم من هذا القبيل قول المتنبى :

ومـا أنـا أسقمت جسمى به ... ولا أنـا أضمرت فى القلب نارا

فقـد اختص الشاعر نفسه بنفى أن يكون هو الجالب لسقم جسمه بل الجالب له غيره، كما ينفى عن نفسه خاصة أن يكون هو الذى أضرم فى قلـبه ناراً ولكن ذلك واقع من غيره، فالمقصور هنا: نفى الفعل المذكور والمقصور عليه هو المتكلم الواقع مسندا إليه.

(١) حيث يكون النصف قيمة على المثبت والنفى يفهم ضمنا.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز صفحة (٨٤) وما بعدها.

ومن أمثلته أيضاً قول المتنبي :

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ... ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

المراد : أنني ما انفردت بعمل هذا الشعر ولكن شعري أعانني على مدحك لأن شعري أراد مدحك كما أردته، فقد نفى الشاعر اختصاصه وحده بقول هذا الشعر وأثبت مشاركة شعره له في قول هذا الشعر في الممدوح وكأنه يقصد أن فضائل الممدوح كما تثير الشعراء تثير أشعارهم معهم كذلك.

ومن ذلك قوله تعالى لبني اسرائيل : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ فقد نفى عنهم الاختصاص بالنصرة لأن مثل بني اسرائيل لا ينصر، وإنما ينصر غيرهم ممن آمن بالله واليوم لآخر، وآيات كثيرة جاءت بنفس العبارة[1].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فقد نفى عنهم الاختصاص بالصحبة، وفي قصر هذا النفي إشارة إلى أن الاصطحاب أمر محقق وخاص بمن عبد الله وحده.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ فقد نفى اختصاصهم بالانقاذ وجعله لغيرهم ممن آمن. وبالتأمل في قوله تعالى: "لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ

---

(١) ومن ذلك (٤١) الدخان ، (٤٦) الطور.

ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ، بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ نجد أن الآية الأولى يفيد القصر، وأما آخر الآية الثانية فلا يفيد ذلـــك بل يفيد التقوية فقوله: "وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ" يفيد أن عدم النصرة في الآخرة مقصور على الكفار وحدهم دون المؤمنين.

أمـــا قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فهذا متعلق بقيام الساعة ومجيئها لا يـــتأتى معـــه انظـــار لطائفة دون الأخرى ولذا فليس الكفار وحدهم الذين اختصوا بعدم الانظام، ولو فسرت الآية على القصر لاختل المعنى ولذلك كان تقديم المسند إليه المنفى مفيداً لتقوية الحكم[1].

ومـــن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أى ليست مختصاً بذلك بل الله هو القادر عليه.

ومـــثله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ ومـــنه قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾

فهـــم يـــريدون نفـــى العزة عنه خصوصاً وقصرها على قومه فهم الأعزة عليهم.

جـــ: وممـــا يفيد القصر غالباً : تقديم المفعول وشبهه إذا كان فى الخـــبر المثبـــت كقولك: "حمداً أكرمت" إذا أردت أنك لم تركم غير محمد على وجه الخصوص، ومنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بمعنى نخصـــك بالعبادة فلا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة دون كل ما سواك.

---

(١) وفى الآية آراء أخرى وردت فى مصادر التفسير فلتراجع هناك.

وقولـه تعـالى: ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ وقوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ وقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾.

ومما جاء من هذا القبيل لكن التقديم فيه ليس للقصر، وإنما للعناية أو الأهمـية، قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ فقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ لا يراد به القصر والاختصاص، لأن الأكل يتناول ما يخرج من نبات الأرض والأنعام كقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وهـنا تقديـم أيضا في قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وهو لا يقتضي اختصاصاً كذلك كما أن الأكل يتعلق بما يخـرج مـن البحار كذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومن ثم فالقول بالاختصاص في الآيتين يقتضي قصر الأكل على كل منهما دون ما سواه وهذا مناقض لدلالة الآيات الثلاث المذكورة.

وإذا تقـدم المعمـول المقـدم نفي فإن البلاغيين يجعلونه من قبيل الاختصـاص قطعاً كقولك: "ما عليا أكرمت" فتثبت إكرامك عن زيد على وجه الخصوص ولما كان الإكرام واقعاً – كما هو معروف في باب التقديم فـي هذه الحالة– صح أن تقول: "ما علياً أكرمت ولكن عمراً بتخصيص عمرو بالاكرام.

هـــذا وممـــا يناقض جعل المفعول المقدم بعد نفى الاختصاص قوله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الأعراف ١٩٢:١٩١" لأننا لو أخذنا بمقتضى كلام عبد القاهر لأفاد نفي النصرة عن أنفسهم واثباتها لغيرهم ، وهذا خطأ لأن فعل النصرة غير ثابت أصلاً لا لهم، ولا لغيرهم فالآلهة لا تستطيع أن تنصر أحــدا ولا أن تنصر نفسها ولذا يقال أن تقديم المعمول هنا للعناية فالمراد إبراز عجز الآلهة عن أى نصرة كانت.

ومن تقديم **المسند إليه** قول المتنبى السابق :

ومـــا أنـــا أسقمت جسمى به ولا أنـــا أضرمت فى القلب ناراً

ومن تقديم المسند قول عمرو بن كلثوم.

لـــنا الدنيا ومن أضحى عليها ونـــبطش حيـــن نبطش قادرينا

ومن تقديم المعمول قول الشاعر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس إننى أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

وإذا أردنا أن نطبق أقسام القصر الأضافى على التقديم نقول: شاعر هـــو، لمـــن يعتقده شاعراً وكاتباً، وذلك فى قصر الموصوف على الصفة إفراداً ، فشاعر مقصور عليه، والضمير مقصور، وفى قصر الصفة على الموصوف قلباً، قائم هو لمن يعتقده قاعداً، والمقصور عليه هو القيام.

ونقـــول فى قصر الصفة على الموصوف إفراداً: إنا كفيت مهمك ، أى وحـــدى لمن يعتقد أنك وغيرك كفيتما مهمة، أو يكن هذا المثال بمعنى

لا غيرى، فيكون قصر قلب، وذلك رداً على من يعتقد أن غيرك هو الذى كفى مهمه.

فروق بين طرق القصر:

طـرق القصـر وإن اتفقت فى إفادتها التخصيص فإن بينها فروق ودقائق تتمثل فى الآتى:

١- ان الأصل فى دلالة العطف ، النص على المثبت والمنفى معاً والثلاثة الباقية دلالتها على المثبت فقط. ويفهم منها المنفى ضمناً.

٢- أن دلالـة الطـرق الثلاث الأولى على القصر بالوضع، وأما التقديم فدلالته على القصر بالفحوى -المعنى- والذوق ومن سياق الكلام.

٣-طريق العطف بلا لا يجامع طريق النفى والاستثناء فلا تقول: ما جاء إلا محمـد لا عمـر" لأن شرط النفى بلا ألا يكون المنفى بها ، منفياً قبلها، ويصح مجامعته لكل من "إنما" و "التقديم" فتقول: "إنما زيد كاتب لا شاعر، ولا يأتينى لا عمرو، لأن النفى فيهما غير مصرح به[1].

٤-الأصل فى النفى والاستثناء أن يستعمل فيما هو مجهول ومنكر مثل : "وما من إله إلا الله" وقد ينزل المعلوم منزلة المجهول لاعتبار مناسب فيسـتعمل فيه النفى والاستثناء مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ

---

(١) قـال السكاكى : "وشرط مجامعه طريق العطف بلا لـ "إنما" ألا يكون الوصف مختصاً بالموصـف كقوله تعالى: "إنما يستجيب الذين يسمعون" لأن كل عاقل يعلم أن الاستجابة خاصة، بمن يسمع" انظر مفتاح العلوم السكاكى: صـ٢٩٣، ٢٩٤ بتصرف ط١-١٤٠٣هـ دار الكتـب العلمـية بيروت -لبنان وقال عبد القاهر: أن هذا الشرط استحسانى بمعنى أن مجامعة الطريقين لا تحسن فى المختص كما تحسن فى غير المختص.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ" وكقوله: "وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ، إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ"

والأصل في "إنما" أن تستعمل فيما هو معلوم وقد تستعمل فيما هو مجهول لاعتبار مناسب كما سبق توضيحه في موضعه.

مواقع المقصور والمقصور عليه في طرق القصر:

يختلف موقع كل من المقصور والمقصور عليه بالنسبة لطرق القصر: ويمكن ملاحظة ذلك من خلال النظر في هذه الطرق :

أ – **في طريف العطف** : يكون المقصور عليه في العطف بلا هو المقابل بعد لا ، ففي قول الشاعر :

عمر الفتى ذكره لا طول مدته ... وموته خزيه لا يومه الداني

فالمقصور عليه في الشطر الأول (ذكره) لأنه مقابل لقوله (لا طول مدته) والمقصور (عمر الفتى).

وفي الشطر الثاني المقصور عليه (خزية) والمقصور (موته) أما في العطف بـ "بل" و "لكن" فإن المقصور عليه يقع بعد (بل) وبعد (لكن) ففي قولنا: "ما زيد كاتبا بل شاعر" المقصور : "زيد" والمقصور عليه : كونه شاعراً.

وفي قول الشاعر: "ما جئتك مادحاً بل داعياً" المقصور عليه : كونه داعياً، والمقصور (المجئ).

ومثال "لكن" قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فالمقصور "محمد عليه السلام" والمقصور عليه: "كونه رسولاً لا أباً".

ب- وفي طريق النفي والاستثناء يؤخر المقصور عليه مع حروف الاستثناء مثل "ما جاء إلا محمد" فالمقصور: (المجئ) والمقصور عليه (محمد) لأنه وقع بعد إلا.

ويجوز تقديم المقصور عليه مع حروف الاستثناء بحالهما على المقصور كقولك: "ما ضرب إلا عمرا زيدا" و "ما ضرب إلا زيد عمرا" و "ما جاء إلا راكبا زيد" و "ما جاء إلا زيد راكباً".

وهذا جائز طالماً تقدم حرف الاستثناء مع المقصور عليه، أما إذا أزيل حرف الاستثناء عن مكانه بتأخيره عن المقصور عليه كقولك: "ما ضرب عمرا إلا زيد" فإنه يؤدى إلى اختلال المعنى حيث يصير المقصور مقصوراً عليه.

ومن أمثلة التقديم الجائز للأداة مع المقصور عليه قول الشاعر:

الناس إلب علينا فيك ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا وزر

أي ليس لنا وزر إلا السيوف وأطراف القنا.

جـ: وفي طريق (إنما) يقع المقصور عليه مؤخراً، ففي قولنا "إنما زيد قائم" المقصور عليه: (قائم)، والمقصور: (زيد) ولا يجوز تقديم المقصور عليه هنا لئلا يلتبس بالمقصور، وقد يعرض ما يوجب تقديم المقصور عليه فيتقدم كقولك "إنما قمت" فقصر فيه المتكلم على

القيام ، فقدم الفعل مع أنه هو المقصور عليه، لعدم صحة تقديم الفاعل عليه.

د : وفى طريق التقديم : يكون المقدم هو المقصور عليه والمؤخر هو المقصور، ففى قولنا "شاعر هو" المقصور عليه : الشاعرية، والمقصور الضمير (هو).

وشرط مجامعة العطف بلا (لإنما) ألا يكون الوصف مختصاً بالموصوف كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ لأن كل عاقل يعلم أن الاستجابة لا تكون إلا ممن يسمع.

وأما عبد القاهر فجعل ذلك شرطاً للاستحسان بمعنى أن يستحسن فى المجامعة ألا يكون الوصف مختصاً بالموصوف ولا يمتنع مجامعته.

وهذه المجامعة إما مع تقديم (إنما) نحو : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أو مع تأخير (إنما) مثل " ما جاءنى زيد، وإنما جاءنى عمرو".

هذا، وقد جعلوا للقصر أقساماً أخرى من جهة النحو والإعراب وهى :

- قصر المفعول على الفاعل مثل : إنما يزينك علمك ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ومنه : لا يحسن الصنعة إلا الماهر.
- قصر الفاعل على المفعول مثل: ما قصرت إلا فى حقك ومنه "إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

- قصـــر المبـــتدأ على الخبر مثل : لا تفوق إلا لمن اجتهد ، إنما الفائز محمد.
- قصر الخبر على المبتدأ مثل : ما فى الغرور إلى الخسران.
- قصر المفعول الأول على الثانى مثل: ماكسوت الفقر إلا ثوباً.
- قصر المفعول الثانى على الأول : ما أظن المتواضع إلا عليا.
- قصر صاحب الحال على الحال مثل : لا يأتى محمد إلا راكباً.
- قصر الحال على صاحبها مثل : لئن ينجح متفوقاً إلا المجد.. وهكذا.

اجتماع طريقين من طرق القصر :

قلـــنا إن لا العاطفة لا تجامع النفى والاستثناء ، وتجامع طريق إنما والتقديم، وعند هذا الاجتماع فبأى الطريقين يكون القصر؟

عـــند اجـــتماع إنما مع لا العاطفة كقولنا إنما ناجح حمد لا راسب، يذكر بعض البلاغيين أن القصر يكون مفاداً بالعطف وتكون إنما للتأكيد، فالمقصـــور علـــيه هنا: ناجح. وقد قرر البعض أن القصر فى هذه الحالة مســـتفاد من إنما والعطف مؤكد ولا يجوز نسبة القصر "لا" لأنه تابع من التوابع فيكون المقصور عليه هو الواقع أخيراً قبل العطف.

وفـــى حالـــة اجتماع لا العاطفة مع التقديم بأن جاءت لا بعده يكون الـــتقديم هو الدال على القصر، وتكون لا حينئذ مؤكدة لجملة القصر التى وقعت قبلها. ومن ذلك قول الشاعر :

عـــن خبرة جئت لا مخاطرة ... وبـــالدلالات يهـــتدى الســـارى

والقصـــر منسـوب في هذه الحالة لطريق التقديم ليكون العطف من الـتوابع، ويرى بعض مشايخنا أن القصر ينسب للعطف كقولك في الدار محمود لا سعيد فيكون المقصور عليه هو محمود. وفى حالة اجتماع إنما مـع الـتقديم فقـد يؤدى. هذا الاجتماع إلى التضارب بين الطريقين لأن المقصـور عليه فى طريق إنما يقع مؤخراً وفى طريق التقديم يقع مقدماً، فبأى الطريقين حينئذ يستفاد القصر؟

يرى الإمام عبد القاهر: إن دلالة القصر مستفادة من إنما والمقصور عليه هو المؤخر لقوله واعلم أن الأمر فى المبتدأ والخبر أن كانا بعد إنما علـى العـبرة التى ذكرت لك في الفاعل والمفعول إذا أنت قدمت أحدهما علـى الآخر، معنى ذلك إنك أن تركت الخبر فى موضعه فلم تقدمه على المبتدأ كان الاختصاص فيه وإن قدمته على المبتدأ صار الاختصاص الذى كان فيه فى المبتدأ.

تفسـير هـذا أنك تقول: إنما هذا لك، فيكون الاختصاص فى (لك) بدلالـة أنـك تقول (إنما هذا لك لا لغيرك) وتقول : إنما لك هذا، فيكون الاختصاص فى (هذا) بدلالة أنك تقول: إنما لك هذا لا ذاك، والاختصاص يكون أبداً فى الذى إذا جئت بلا العاطفة كان العطف عليه، وإن أردت أن يـزداد ذلـك عند وضوحاً فانظر إلى قوله تعالى:﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقوله عز وعلا: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ فإنك تـرى الأمر ظاهراً إن الاختصاص فى الآية الأولى فى المبتدأ الذى هو البلاغ والحساب دون الخبر الذى هو عليك وعلينا وأنه فى الآية الثانية فى الخبر الذى هو (على الذين) دون المبتدأ الذى هو (السبيل).

وقد يجتمع التقديم مع إنما ويكون المقصور عليه هو المقدم فيتعارض مع ما هو معلوم من كون المقصور عليه يقع مؤخراً في طريق إنما كقول الشاعر:

ألا فليمت من شاء بعدك إنما   عليك من الأقدار كان حذاريا

فالمراد : أنني لم أكن أحذر الأقدار إلا عليك، وبموتك لم أعد أخشى شيئاً من ذلك فليمت بعدك من شاء – فالمقصور عليه هنا هو (عليك) المقدم وللخروج من هذا الأشكال نجد سعد الدين يذكر : أن تقديم المقصور عليه جائز إذا كان نفس التقديم مفيداً للقصر كقولنا: إنما زيداً ضربت فإنه لقصر الضرب على زيد، قال أبو الطيب.

أسامياً لم تزده معرفة   وإنما لذة ذكرناها

أي ما ذكرناها إلاّ للذة ، ويمكن الجواب بأن الكلام فيما إذا كان القصر مستفاداً من إنما وهذا ليس كذلك.

ويمكن القول بأنه إذا اجتمع التقديم مع إنما ودل السياق على أن المقصور عليه هو المقدم جعل القصر مستفاداً من التقديم وتكون إنما في هذه الحالة للتأكيد، وفي القضية تفصيلات أخرى يمكن الرجوع إليها في كتب التراث وغيرها من البحوث.

الإنشـــاء

الإنشـــاء في اللغة الابتداء والابتداع. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ (١) أى ابــتدأ خلقكـــم على غير مثال سبق. وتقول : أنشأ الرجل داراً ـ أى ابتدأ بناءها(٢).

ثـــم نقلـــه الأدباء ليصبح علماً على الفن الذى "يعلم به جمع المعاني والتألـــيف بيـــنها، وتنسيقها، والتعبير عنها بعبارات أدبية بليغة(٣) "ونقله البلاغيون إلى "الكلام الذى ليس لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه"(٤).

وقـــد صـــحبت الدلالة اللغوية الدلالة الاصطلاحية فيما نقله الأدباء وعلمـــاء الـــبلاغة، إذ قصـــد الأدبـــاء بهذا الإطلاق الدلالة على الإبداع والابتكار فيما تجود به القرائح، وقصد أرباب المعاني بإطلاقه التمييز بين قول يعبر عن نسبة لها واقع خارجي يسبق النطق بها كما هو شأن الخبر، وبين قول يبتدئ نسبة لم يكن لها واقع خارجي قبل التلفظ بها، فهو خليق بـــأن يســـمى إنشاء، وبذلك تتعانق الدلالة اللغوية مع اصطلاح أهل الفن، ولـــيس كما قال الدكتور أحمد مطلوب: (والإنشاء هو الابتداء أو الخلق أو الابـــتداع، ولـــيس بين هذه المعاني وما ذهب إليه البلاغيون صلة) (٥) بل

---

(١) الأنعام ٩٨.
(٢) لسان العرب مادة نشأ.
(٣) المعجم الوسيط ٩٢٠/١.
(٤) السابق نفس الصفحة.
(٥) معجم المصطلحات البلاغية ٣٣٢/١.

الصـــلة جد وثيقة، وبها قوبل الإنشاء بالخبر، فرقاً بين حكاية ما هو واقع وإيجاد ما لا واقع له.

والتعبــير بالإنشاء فى مقابل الخبر لم يعرف فى مصنفات البلاغيين قــبل الخطيب القزوينى، وإنما كان الطلب هو المقابل للخبر وقسيمه، فهذا الســكاكى يقــول: (والســابق فى الاعتبار فى كلام العرب شيئان، الخبر والطلــب المنحصــر بحكــم الاســتقراء فى الأبواب الخمسة التى يأتيك ذكرها)[(١)].

وعلــى الرغم من ولع السكاكى بالحدود فأنه أعرض عن تعريفها، لأن العلــم بالخــبر والإنشاء علم ضرورى لا يحتاج إلى تعريف، يقول: (أعلــم أن المعتنيــن بشأنهما فرقتان، فرقة توجبها إلى التعريف، وفرقة تغنيــها عن ذلك، واختيارنا قول هؤلاء)[(٢)]. وعلل اختياره بقوله: (أما فى الخــبر فــلأن كــل أحد من العقلاء ممن لم يمارس الحدود والرسوم، بل الصــغار الذيــن لهــم أدنى تمييز يعرفون الصادق والكاذب، بدليل أنهم يصــدقون أبــداً فى مقام التصديق، ويكذبون أبداً فى مقام التكذيب)[(٣)] ثم يقــول: (وأمّــا فى الطلب فلأن كل أحد يتمنى ويستفهم، ويأمر وينهى، وينادي يوجد كلاً من ذلك فى موضع نفسه عن علم)[(٤)].

---

(١) مفتاح العلوم ٩٢.
(٢) السابق ٩٢.
(٣) السابق ٩٢.
(٤) السابق ٩٣.

وهو بذلك يعول فى التمييز بينهما على علم المتكلمين والمخاطبين ، مكتفياً بتعينها عن تعيينها. وكان واضحاً فى كلامه أن الخبر له نسبة نسبة موجـــودة فى الخارج، وأن الخبر يحكى الواقع الخارجي، فيطابقه ويكون صـــادقاً، أو لا يطابقه فيكون كاذباً، وأما الطلب فليس له وجود خارجى، وإنما يوجده المتكلم فى نفسه ويطلب حصوله.

وكـــأنى بالخطيـــب يستدرك على صاحب المفتاح وجود أنماط من الكـــلام لا يســـتوعبها هذا التقسيم، مثل أساليب المدح والذم، والتعجب ، وصيغ العقود، وأفعال المقاربة، والقسم، والتقليل برب، والتكثير بكم، فهى ليســـت أخباراً ولا طلبا، فاختار لفظ الإنشاء فى مقابل الخبر، وأدخل فيه هذه الأساليب وأسماها إنشاء غير طلبى. وهو وإن كان أدق حصراً، فأن الســـكاكى كان أكثر واقعية، حيث لم يشغل نفسه بما لا تتعلق البلاغة به، وذلـــك مـــا صـــرح بـــه الدكتور شوقى ضيف حين قال: (وكأنه -يقصد الخطيب- رأى أن تكون القسمة أكثر سداداً، فالكلام إما خبر، وإما إنشاء، والإنشـــاء إما طلبى وهو التمنى والاستفهام والأمر والنهى والنداء، وإما غير طلبى، كأفعال المدح والذم والتعجب، والقسم، وصيغ العقود، على أنه لـــم يفصل الكلام فى غير الطلبى، وكأنه لم يجد عند السكاكى وغيره من البلاغيين مادة يخلصها فيه) [(١)].

فالخطيـــب -وإن خـــالف الســـكاكى فى المصطلح مستبدلا الإنشاء بالطلـــب- قد سار على نهجه فى قصر الدراسة على الطلب وحده، وعلل شـــراحه ذلك بأن أنواع الإنشاء غير الطلبى لا يبحث عنها (لقلة المباحث

(١) البلاغة تطور وتاريخ ٣٤٢- ٣٤٣.

البيانية المتعلقة بها، ولأن أكثرها في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء) [(١)].

ثم إن ما عده الخطيب وشراحه إنشاءً غير طلبي لم يسلم لهم ؛ فقد نقل السبكي عن الطيبي في شرح التبيان: (قال الاسترابادي: في كون فعلي التعجب ، وفعلي المدح والذم ، وكم الخبرية إنشاءً نظر ، لاحتمالها الصدق والكذب باعتبار نفس الخبر) [(٢)].

وقد علل عصام الدين زاده في شرح الفوائد إخراج السكاكي أنواع الإنشاء غير الطلبي من الدراسة بقوله: (وإنما لم يذكر الترجي لأن الترجي ليس بطلب، لأن الرجاء غير الطلب، ولم يذكر الترجي لأن الترجي ليس بطلب، لأن الرجاء غير الطلب، ولم يذكر القسم أيضاً، لأنه إما لتأكيد الطلب، كما في قسم الاستعطاف نحو : بحياتك أخبرني، أو التأكيد الخبر، نحو : والله لأفعلن، ولا شئ منهما بطلب، وأيضاً لم يذكر هنا ألفاظ العقود، نحو : بعت واشتريت، وأفعال المدح والذم، وفعلي التعجب ، لأنها منقولات من الأخبار إلى الإنشاء، ولهذا لا دلالة لها على الزمان بحسب اللفظ[(٣)].

وكما تابع الخطيب السكاكي في قصر الدراسة على الطلب، تابعه كذلك في تحديد المراد بالطلب، وهو عندهما: "ما استدعى مطلوباً غير

---

(١) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ٢/٢٣٦.
(٢) عروس الأفراح ٢/٢٣٥.
(٣) شرح الفوائد الغياثية هامش ١٦٧.

حاصل وقت الطلب"[١]. فخرج بهذا التحديد كل أنواع الإنشاء غير الطلبى، كمـــا خرج عن حقيقة الطلب ما كان ظاهره طلب الحاصل، لأن تحصيل الحاصل محال، مثل قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٢] فلــيس طلـــب الإيمان ممن آمن وارداً على الحقيقة، إذ لا يعقل أن يطلب الآمر من المأمور فعل ما هو حاصل قبل الأمر، وإنما المردا "اثبتوا على الإيمـــان، ودومـــوا علـــيه، وازدادوه"[٣] وفى ندائهم بوصف الإيمان حث وإغـــراء علــــى التمســـك بهذا الوصف المحبب إلى القلوب، وتحذير من الانسياق وراء الكافرين والمنافقين الذين يتمنون ردهم إلى الكفر، وهو ما يؤكده تعقيب هذا الأمر بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[٤] ومثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[٥] فإن أمر الله نبيه بالـــتقوى لـــيس المراد به إنشاء التقوى، وإنما أريد به الثبات عليها أمام محاولات الكافرين والمنافقين الذين لا يفترون عن دعوته إلى الباطل من عقـــائدهم، وإثنائه عن تبليغ رسالة ربه. وهكذا يكون التأول فى كل طلب لمطلوب حاصل على ما صرح به السعد فى مختصره: (فلو استعمل صيغ

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ١٦٩ والإيضاح ضمن شروح التلخيص ٢/٢٣٧.
(٢) النساء ١٣٦.
(٣) الكشاف ٢/٥٧١.
(٤) النساء ١٣٧
(٥) الأحزاب ١.

الطلب لمطلوب حاصل امتنع اجراؤها على معانيها الحقيقية، ويتولد منها بحسب القرائن ما يناسب المقام)[١].

وتتبع هذه الصيغ مما خرج عن حقيقته ، والوقوف على المعانى التى تومئ إليها، والأحوال الداعية إلى هذا الخروج هو الغاية التى يسعى إليها أرباب المعانى.

أنواع الإنشاء الطلبى:

حصر البلاغيون أنواع الطلب أو الإنشاء الطلبى فى خمسة أنواع هى : التمنى ، والاستفهام، والأمر، والنهى، والنداء، واتبعوا سبيل أهل الكلام فى ضبطها وحصرها، حتى لا يند قسم منها ولا يدخل فيها ما هو خارج عنها، فالمطلوب إما ممكن أو غير ممكن، غير الممكن هو التمنى، والممكن إن كان طلب حصول فى الذهن فهو الاستفهام ، وإن كان طلب حصول فى الخارج فإما أن يكون طلب انتفاء وهو النهى، وإما أن يكون طلب ثبوت، وهو إن كان طلب فعل فهو الأمر وإن كان طلب إقبال فهو النداء وربما يبد وهذا الضبط غريباً على علم يعتمد على الذوق ورهافة الحس فى استخراج أسرار التراكيب، لكننا يجب ألا نغفل حاجة العلم إلى مثل هذا الضرب فى تحرير المسائل وسبل تناولها.

بين النحو وعلمى المعانى والبيان:

تتنازع دراسة الإنشاء علوم ثلاثة، هى النحو والمعانى والبيان، وتختلف طبيعة الدراسة وغايتها فى كل علم منها، فعلم النحو يتناولها من

---

(١) مختصر السعد – شروح التلخيص ٢/٢٣٧.

حيـــث دلالـــتها على معانيها وطرق استعمالاتها، دون فصل بين معانيها الحقيقية وما خرجت إليه من معان مجازية، أما البلاغيون فلهم نهج آخر، ومـــنحى مختلف، أوضحه السكاكى فى مقدمة جليلة الأثر مهد بها لدراسة الطلـــب وأنواعـــه، حيث تقول: (قد سبق أن حقيقة الطلب حقيقة معلومة، مستغنية عن التحديد فلا تتكلم هناك، وإنما نتكلم فى مقدمة يستدعيها المقام مـــن بـــيان ما لابد للطب، ومن تنوعه ، والتنبيه على أبوابه فى الكلام، وكيفية توليدها لما سوى أهلها) [1].

حقـــيقة الطلـــب ليست مجال بحث عند البلاغيين، وإن كانت مقصيد الـــنجاة، أما أهل هذه الصناعة فمقصدهم البحث فيما يتولد عن الطلب من معـــان منبثقة عن أصولها، لاعتبارات وأحوال يجدون فى الكشف عنها، وعن العلائق الخفية التى تربط كل صيغة بسياقها. فهم لا يقفون عند دلالة "ليت" على التمنى، وإنما يتجاوزون ذلك إلى ما يبثه المتمنى من الشكوى، والاستعطاف، والاعتذار، وغير ذلك مما يدسه فى أثناء طلبه لما يعلم أن يســـتحيل تحقـــيقه وهـــذه هى المعانى المتولدة التى قصد إليها السكاكى ، وأوضحها فى قوله (متى امتنع اجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما يناسب المقام، كما إذا قلت لمن همك همه : ليتك تحدثنى، امتنع إجراء التمـــنى -والحال على ما ذكر- على أصله، فتطلب الحديث من صاحبك غـــير مطموع فى حصوله، وولد بمعونة قرينة الحال معنى السؤال ، أو كما إذا قلت: هل من شفيه؟ فى مقام لا يسع إمكان التصديق بوجود الشفيع

(١) مفتاح العلوم ١٦٩.

امتنع إجراء الاستفهام على أصله وولد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني)[1].

هدف البلاغي إذن هو: المعاني المختبئة وراء الدلالات الظاهرة أو هو المعاني المتولدة بتعبير السكاكي، أو معنى المعنى بتعبير الإمام عبد القاهر، والوسيلة إلى ذلك استنطاق السياق، والوقوف على قرائن الأحوال وصولاً إلى أغراض المتكلم.

هذا هو فرق ما بين دراسة النحاة ودراسة البلاغيين، أما موطن دراسة الإنشاء في فنون البلاغة فيتنازعه علما المعاني والبيان ولكل وجهة في البحث، فالأول يبحث في خواص التراكيب من حيث جريان هذه الصيغ على خلاف مقتضى الظاهر، وما تولد عنها من معان تناسب المقام، وتدل عليها قرائن الأحوال، والثاني يبحث عن استعمال الألفاظ في غير ما وضعت له والعلاقة المصححة لهذا الاستعمال، والقرينة الدالة على التجوز، وقد أوضح ذلك عصام الدين في شرحه للفوائد الغيائية، فقال: (لكن يبحث في علم المعاني من حيث إن تلك الألفاظ أجريت بحسب المقام على خلاف مقتضى الظاهر من المعاني المتولدة عنها بحسب المقام، وعلم البيان يبحث عنها من حيث وضوح دلالتها على المعاني المتولدة مع قطع النظر في مقتضى الحال، وإن كان رعاية الوضوح بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، وتسمى المتولدات من حيث استعمال اللفظ

(١) مفتاح العلوم ١٧١.

في أصل المعنى، وفهمها من جانب اللفظ بحسب المقام خواص التراكيب، ومن يحث استعمال اللفظ فيها المجازات أو الكنايات[١].

وهذا النص يقص الاشتباك بين العلمين، فهما وإن اتفقا في الغاية من الكشف عن المعاني المتولدة والأغراض التي يدسها المنشئ في هذه الصيغ ، فإن الوسيلة مختلفة، إذ الأول يهدف إلى ربط الصيغة بسياقها وتلمس الدواعي ومقتضياتها، والثاني يبحث الصلة بين المعنى الوضعي والمعنى الذي استعمل له اللفظ.

وعلى الرغم من تصريح السكاكي بأن دراسته للمعاني المتولدة عن أنواع الطلب في علم المعاني ستكون على سبيل الجملة، وأن تفصيلها موكول إلى علم البيان، وعلى الرغم من كثرة ما ذكر لهذه الأساليب الإنشائية من معان مجازية، فإننا لم نجد لها أثراً في علم البيان عند السكاكي أو غيره، وظلت دراسة هذا الباب حبيسة في موقعها من علم المعاني، وكأن أهل هذا الفن قد اعتمدوا على فطنة القارئ في تطبيق ما ذكروه في علم البيان من ضروب المجازات وعلاقاتها على ما ذكر هنا من المعاني التي خرجت فيها صيغ الطلب عن حقائقها، فهي وإن لم تدرس هناك نصا فإنها مدروسة ضمناً، وهذا صريح عبارة السكاكي: (فبالحري أن بين كيف يتفرع عن هذه الأبواب الخمسة، التمني والاستفهام والأمر والنهي والنداء ما يتفرع على سبيل الجملة، إذ لابد منه، ثم الفصول الآتية في علم البيان لتلاوتها عليك ما تترقب من التفصيل هنالك ضمنا) [٢].

---

(١) شرح الفوائد الغيائية ١٦٩.

(٢) مفتاح العلوم ١٧١.

أولاً : التمنى

هو فى اللغة (تشهى حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكـــون ولا يكون) [١]. وفى اصطلاح البلاغيين: طلب حصول الشئ على ســـبيل المحبة مع عدم الطماعية فى وقوعه، وقد تضمن هذا الحد قيدين: الأول اشـــتراط المحـــبة، لإخراج ما عدا التمنى من أنواع الطلب، إذ لا يشـــترط فيها ذلك، والثانى عدم الطماعية فى وقوعه، وبه خرج الترجى عند من يرى أنه طلب، لأن المرجو متوقع الحصول. وجمهور البلاغيين على أن الترجى ليس طلباً، وقد حده صاحب المطول بقوله: (فإنه ارتقاب شـــئ لا وثوق بحصوله، فمن ثمت لا يقال : لعل الشمس تغرب، ويدخل فـــى الارتقـــاب الطمـــع والإشفاق، فالطمع ارتقاب المحبوب، نحو: لعلك تعطينا، والإشفاق ارتقاب المكروه، نحو: لعلى أموت الساعة، وبهذا ظهر أن الترجى ليس بطلب) [٢].

والتمـــنى طلب قلبى أو هو كما يقول اللغويون: حديث النفس ، وهو لذلـــك يجـــئ فيما لا يكون، ترويحاً عن النفس، وترجمة عما يجرى فى الخاطـــر. فالتمـــنى يبه فيه المتمنى حاجات النفس ورغباتها، ويسكب فيه عبراته وأحزانه وقد أحسن ابن يعقوب الكشف عن الحالة النفسية للمتمنى، والأغراض التى يرمى إليها من وراء طلبه لما يدرك أنه لا يكون ، فقال: (إن أصل التمنى إظهار الرغبة فى الغائب مضياً أو استقبالاً، وإما لمجرد

(١) لسان العرب مادة : منى.
(٢) المطول ٢٢٦.

الاعــتذار والاســتعطاف للمخاطــب ليرحم المتمنى، وإما لمجرد موافقة الخاطر والترويح على النفس)[١].

إنها لمحة ذكية تجاوز بها ابن يعقوب حقيقة التمنى إلى ما يهدف إليه المتمنى من الشكوى والاستعطاف والاعتذار، وما يجده من راحة النفس، فما التمنى سوى زفرات يطلقها مهموم يائس ، ونفثات مصدور يروح بها عن نفسه.

إن التمـــنى ظاهـــرة تستحق الدراسة البلاغية، سواء أدى بالحرف الموضـــوع لـــه وهو "ليت" أم أدى بحروف مستعارة، لأن طلب الممتنع حديـــث نفـــس والهـــة تملكهـــا الذهول واستبد بها اليأس، فاحتجب العقل والوعـــى، فلـــم تعـــد تفرق بين ما هو ممكن وما هو محال، ووراء ذلك إيحاءات ثرية تنم عن نفس محطمة، وآمال ضائعة ، وأشلاء ممزقة.

فنحن حين نقرأ قول الله تعالى في وصف حال المشركين وقد حبسهم الله على النار : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] نـــرى فى التمنى صرخة المفزع الـــذى تملكه الذهول وأفقده هول ما رأى من النار وعيه وعقله فأطلق هذه الـــنداء طالباً ما يعلم أنه لن يكون، إنها صيحة اعتذار واستعطاف خرجت فى صورة التمنى بعد أن أحاط بهم يوم الخزى فلم يجرؤوا أن يطلبوا من الله العـــودة طلـــباً صريحاً ، بل إنهم استخذوا ان يذكروا الله الذى طالما حاربوه وأنكروا وجوده فحذفوا المنادى بعد أداة النداء، والأصل أن يقال:

(١) مواهب الفتاح ٢/٢٤٠.
(٢) الأنعام ٢٧.

يــا ربــنا ليتنا نرد، لكن وجوههم المسودة ورؤوسهم المنكسة لم تقو على مواجهة المالك ودعائه. ولست مع الذين يقدرون المنادى (قومنا) ففي مثل هــذا الموقف تضيع الأقوام، وتتقطع الأسباب، ويفر المرء من أخيه وأمه وأبـــيه. فالغــرض مـــن التمني هنا الاعتذار والاستعطاف، وإيثار صيغة التمنى بشتى ما يسيطر على نفوسهم من اليأس فى تحقيق ما يتمنون.

وحيـــن نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ نحس فرط الندم وشدة التحســـر، وطغـــيان الهلع الذي جعل الكافر يتمنى أن لو لم تكن له نفس تحس، وعقل يعى، فينجو من ذلك العذاب الأليم، حتى وصل به الأمر إلى حد يحسد معه التراب الذى كان يطوءه بقدميه، ولعلك تلمس الحرص على إيـــثار الـــتراب دون سواه من الجمادات، حيث هو منبت الإنسان واصل نشـــأته، وكأنه يقول ليتنى ظللت على ما كنت عليه، ولم أكن بشراً سويا. فالتمنى هنا صرخة النادم المتحسر، ولطمة المفجوع اليائس.

ثم تأمل كيف تتعالى نبرة الأسى والحزن، حتى تصبح صيحات الندم أشبه بأصوات النائحات في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (١). فقد تجاوبـــت صيغة التمنى التى تكررت مسبوقة بأداة النداء، مع المد وزيادة هاء السكت فى "كتابيه" "حسابيه" فى تجسيد الإحساس بالحسرة والندم. أو كما يقول سيد قطب (هى وقفة طويلة وحسرة مديدة، ونغمة يائسة، ولهجة بائســـة، والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا

---

(١) الحاقة

تنتهي إلى نهاية.. والرنة الحزينة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وياء العلة قبلها بعد المد بالألف في تحزن وتحسر، هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى وإيحاء عميقاً) (١).

ثـم لـنقرأ قولـه تعالى على لسان مريم عليها السلام حين جاءها المخـاض وحانـت ساعة ميلاد عيسى عليه السلام، فتراءت أمام عينيها أشـباح مخـيفة من صور الاتهامات التي ستطاردها بعد حين فيما يمس شـرفها وعرضها ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ (٢).

فـنجد التمـنى يجسد مشاعر الخوف من المستقبل بعد أن أظلم في عينيها، وتزاحمت الرؤى المحزنة في خواطرها، وتبدت لها أنياب البشر تنهش عرضها، وتتطاول على شرفها وعفتها، وقابل إن شئت بين الذكر الفاضـح وذيـوع أمرها وشهرته، وبين أمنيتها أن يكون الموت قد أسدل علـيها سـتاراً من النسيان حتى لا تمر بخاطر أحد إنها أنفاس الحسرة، وتأوهات المحزون خرجت في صيغة التمني وقول الشاعر :

ألا ليـت الشـباب يعـود يوماً فأخـبره بمـا فعـل المشـيب

هـل تـراه قصد إلى إبراز رغبته في عودة الشباب وأيامه الحلوة المـرحة فحسب؟ أم أنه ضمن ذلك مشاعر الأسى والتحسر والشكوى من الشـيب، وما صحبه من ضعف في البدن، وعجز عن الاستمتاع بالحياة، وإحسـاس مخيف يلاحقه دائماً بالنهاية المحتومة وعزوف الناس والخلان

---

(١) في ظلال القرآن ٣٦٨٢/٦.
(٢) مريم ٢٣.

عـــنه؟ إن التمنى ليس إلا وسيلة يعبر بها الشاعر عن آلامه وضيق نفسه، وليس مجرد رغبة حبيسة تفلت بها لسانه، آلا تراه قد صرح بالشكوى في قوله "فأخبره بما فعل المشيب"؟

فـــإذا جـــاء التمنى بليت فيما ليس بعد الوقوع كان ذلك خروجاً عن حقيقة التمنى، وولد ذلك بمعونة القرائن أغراضاً يهمس بها السياق، وهذا مـــا صرح به عصام الدين في شرح الفوائد (فتقول لصاحبك الذي جزنك حـــزنه: ليـــتك تحدثنى بصيغة التمنى استبطاء لحديثه معك، أو استعظاماً لقـــدره بأنـــه لا يحـــدث بأمثاله، وكل ذلك إظهار للشكوى من قلة اهتمام صـــاحبه بعبائته، ولكن لما كان حقيقة التمني ممتنعاً في هذا المقام لإمكان كلامـــه، بـــل مطموعاً فيه، ولد "ليت" في هذا المقام سؤالاً، كأنك قلت : جدثنى أو هلا تحدثنى"[1].

فهـــذا مـــن وضـــع التمنى موضع الأمر أو السؤال، استعظاماً لقدر المخاطـــب، وإجـــلالا له عن صيغة الأمر أو السؤال وفي ذلك إيماء إلى الشـــكوى مـــن قلـــة الاهتمام ، وذلك من بديع ما استخرجه البيانيون من لطائف التمنى.

ومثله قول ابن فراس يخاطب سيف الدولة :

فليـــتك تحلـــو والحـــياة مريرة　　　وليـــتك ترضى والأنام غضاب

وليـــت الـــذى بينى وبينك عامر　　　وبيـــنى وبيـــن العالمين خراب

إذا صـــح مـــنك الود فالكل هين　　　وكـــل الذى فوق التراب تراب

---

(١) شرح الفوائد الفيائية ١٧٠.

فليس بالمجال أن يحلو سيف الدولة ويرضى عن أبى فراس، وقد كان شاعره الذى انقطع لمدحه، وحظى بوده، لكن القطيعة التى حدثت بينهما، جعلته يؤثر صيغة التمنى إجلالاً لمخاطبه، واعتذاراً عما بدر منه، وإظهاراً للشكوى من الجفاء والإبعاد.

وهذا أمية بن أبى الصلت يعاتب ابنه على عقوقه فيقول:

فلمـا بلغـت السن والغاية التى — إلـيها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائى منك جبها وغلظه — كـأنك أنـت المـنعم المتفضل

فليـتك إذ لـم تـرع حق أبوتى — فعلت كما الجار المجاور يفعل

إن صـيغة التمـنى هـنا تقطر مرارة ،ألماً، وحسبك أن الأب الذى أحسن إلى ابنه حتى وصل إلى المرحلة التى رجا فيها الأب أن يجنى ثمار غرسه، يفاجأ بخيبة آماله، ويلقى من ابنه الجحود والنكران ، حتى تصبح معاملته معاملة الجار القريبة أمنية بعيدة المنال، فآثر حرف التمنى مبرزاً الأمـر الممكـن فـى صورة المستبعد، ليريك صورة الابن العاق قبيحة كريهة، ويدمى قلبك بمرارة شكواه وخيبة مسعاه.

ومثله فى إظهار الشكوى قول المتنبى :

فـيما ليـت ما بينى وبين أحبتى — من البعد ما بينى وبين المصائب

فقـد تكاثـرت عليه المصائب، ولازمته دائمة، فى حين جفاه أحبته وابتعدوا عنه، فتمنى أن لو كان أحبته قريبين منه قرب المصائب، وليس قـرب الأحـبة بالشئ المحال، ولكن طول البقاء ولد لديه شعوراً باليأس والمـرارة بثه فى صيغة التمنى وحسبك أنه لا يتذمر من حلول المصائب

بــه، ولا يعاف قربها، وإنما يتمنى أن يكون أحبته على نفس الدرجة من القــرب، وحينــئذ فلن يبالى بما يلقاه من النوائب، فاستعار "ليت" لما هو ممكن استبعاداً له ويأساً من وقوعه.

وأعظم مواقع التمنى ما استعيرت له أدوات ليست موضوعة للدلالة عليه أصالة فيصاحبها من ظلال معانيها الوضعية ما يكشف عن أغراض المتكلم وإيماءاته.

التمنى بهل :

"هــل" موضــوعة للاستفهام، وهو يقتضى عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتاً ونفياً، فإذا استعمل فى التمنى المقطوع انتفائه كان ذلك قرينة صارفة له عن حقيقة معناه، ونقله إلى معنى التمنى على سبيل المجاز بالاستعارة.

مــثال ذلك ما جاء على لسان الكافرين يوم القيامة بعد أن ألقوا فى الــنار فيما يشبه صرخة الإستغاثة : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١).

إنهــم يتمنون الخروج من النار بعد أن كتب الله عليهم الخلود فيها، وهــم يعلمون أن قضاء الله لا مرد له، ولكنهم أظهروا المحال فى صورة الممكــن، وكــأنهم يمنون أنفسهم بإمكانه، فآثروا حرف الاستفهام، لإبراز المتمــنى فــى صورة الأمر المرجو المطموع فى نيله، وقد قدموا له بهذا الاعــتذار والاســتعطاف، معترفين بربوبية الله تعالى ، مقرين بذنوبهم،

---

(١) غافر ١٨.

مظهرين غاية الضعف والذلة، طامعين فى عفو الله ومغفرته، بعد أن قطعوا كل الأسباب إليها.

وقريب منه قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١) فقد قدم الكفار اعترافه بالرسل وبربوبية من أرسلهم، وبأن ما جاؤا به الحق، قبل طلبهم الشفاعة وكأنهم بهذا الاعتراف طامعون فى الاستجابة (والنكتة فى التمنى بهل، والعدول عن "ليت" هو إبراز المتمنى لكمال العناية به فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائه) (٢).

والتجوز هنا وقع فى معنى الحرفين على سبيل الاستعارة التبعية حيث يشبه مطلق التمنى بمطلق الاستفهام بجامع مطلق الطلب، ثم يسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، فتستعار "هل" الموضوعة للاستفهام الجزئى للتمنى الجزئى"(٣).

قلت : إن التمنى حديث النفس، والإنسان حيث يحدث نفسه لا يضع فاصلاً بين الممكن والمحال، وكثيراً ما يتغلب المرء على عجزه ويأسه باطلاق العنان لخياله، فيرى ما لا سبيل إلى كونه كائناً، وهو بذلك يستوى

---

(١) الأعراف ٥٣.

(٢) مختصر السعد ٢/٢٤٠.

(٣) ينظر حاشية الدسوقى – ضمن شروح التلخيص ٢/٢٤٠.

عــن نفسه ويخفف عنها من شقائها. وبقدر استغراقه فى أحلامه وأوهامه يستعمل أدوات التمنى.

فهذا ابن الرومى يقول :

أليــام لهوى هل مواضيك عود وهل لشباب ضل بالأمس منشد

فيريك لهفته الشديدة إلى ماضى أيامه، واستغراقه التام فى ذكرياتها المحببة إلى نفسه حتى توهم من فرط الاستغراق أن ذلك من الممكن الذى لا يســتبعد حصوله، فاستعمل فى التمنى "هل" الموحية بالإمكان ، وحاول أن يوهمــك أن عــودة شــبابه وأيامه أمر مترقب، فهو كالغائب المنتظر عودتــه، أو التائه المرجو العثور عليه، ألا ترى إلى قوله " ضل" وإيثاره على الفعل "ولى" مثلا ؟ ثم ألا ترى إلى قوله "بالأمس" وكيف يستحضر البعيد فيبدو قريباً لم يطل زمن فراقه؟

علــى أن الحكــم بالإمكان والاستحالة هو أمر نسبى تحكمه ظروف المــرء وعصره وبيئته، فما يبدو ممكناً فى زمن قد يكون محالا فى زمن آخــر، وما يكون بعيداً بالنسبة إلى شخص قد يكون جد قريب من شخص آخر، وإليك ما حكاه صاحب لسان العرب: (كتب عبد الملك إلى الحجاج : يا بن المتمنية، أراد أمه، وهى القريعة بنت همام وهى القائلة :

هــل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

وكــان نصر رجلاً جميلاً من بنى سليم يفتتن به النساء، فحلق عمر رأسه، ونفاه إلى البصرة[1].

---

(١)

ومغـــزى القصة أن القريعة سميت متمنية بسبب هذا البيت، والتمنى هنا واقع بهل، والذى جعل شرب الخمر أمنية بعيدة المنال والوصول إلى هـــذا الفـــتى الجمــيل هو العصر الذى عاشت فيه القريعة، وضرب أمير المؤمنيـــن عمر بن الخطاب بيد من حديد على كل يد آثمة، أفترى يكون بمـــثل هذا البعد والإحالة فى عصر ملوك بنى أمية ممن يعاقرون الخمر ويلهـــون مـــع النســـاء؟ ثم إن حالة الهيام والعشق والرغبة الجامحة لدى المتمنـــية هى التى جعلتها تبرز متمناها فى صورة الممكن حتى لا تركن إلى اليأس فى طلب ما تسعى إليه.

وها هنا أمر لابد أن نلتفت إليه، وهو أن المتكلم مهما حاول أن يوهم نفســـه بإمكـــان ما ليس ممكنا، فإن لسانه يتفلت بما يدل على يقينه الذى يداريه ويأسه من حصول متغاه. والدليل على ذلك ما تراه فى قوله تعالى على لسان الكافرين: "هل إلى خروج من سبيل" "هل لنا من شفعاء" فإن "مـــن" لا تزاد إلى في الاستفهام المنقول إلى النفى، وكأنهم يجزمون بانتفاء الخـــروج والشـــفعاء، وبقـــدر إحساس المرء تقع كلماته، وكأنى بالقريعة تســـتبعد السبيل إلى شرب الخمر بعد أن قطع عمر كل سبيل إليها، وترى الوصول إلى نصر بن حجاج أقل بعداً، فزادت "من" أولاً، وتركتها ثانياً.

التمنى بـ (لعل) :

الأصـــل في "لعل" أن يرجى بها ما هو قريب الحصول ، وقد تأتى بمعـــنى التمنى، كما فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ (١)

---

(١) غافر ٣٦-٣٧.

بلـــوغ فرعون أسباب السموات للاطلاع على إله موسى أمر محال، ولكن فـرعون آثــر حرف التوقع بدلاً من حرف التمنى، إبرازاً للمستحيل فى صــورة الممكن، إشعاراً منه بأنه جاد فى ذلك، وإدلالا بقوته وقدرته على بلوغ أسباب السموات، ولم لا وهو الذى يدعى الألوهية، ويوهم قومه أنه ربهــم الأعلى. (إن هذا الترجي تمن فى الحقيقة ، لكن أخرجه اللعين هذا المخرج تمويهاً على سامعيه) (١).

ومنه قول الشاعر :

أســرب القطا هل من يعير جناحيه   لعلــى إلــى من قد هويت أطير

طـيران الشــاعر إلى من يهوى على جناح طائر مستعار أمر غير مطمــوع فيه، لكن الشاعر أرانا أياه ممكنا، إبرازاً لكمال العناية، وإظهاراً لشــوقة الجارف الذى يخترق به حجب المستحيل، ويتخطى عوائق العجز البشرى، فآثر لذلك حرف الترجي، ليتعانق مع التمنى بحرف الاستفهام فى قولــه: "هل من يعير جناحه" ، فإذا كانت إعارة الجناح أمراً ممكناً، فلم لا يكون طيرانه بهذا الجناح ممكناً كذلك؟!.

وقــد أشــار شــراح التلخــيص إلــى أن دلالة "لعل" على التمنى مــن مستتبعات التراكيب، وليس معنى مجازياً فيها، فقد علق السعد على عــبارة الخطيــب (وقــد يتمــنى بلعــل فــتعطى حكم ليت، نحو: لعلى أحــج فــأزورك بالنصب، لبعد المرجو عن الحصول) (٢) قال السعد : (وبهذا يشبه المحالات والممكنات التى لا طماعية فى وقوعها، فيتولد منه

(١) روح المعانى ٦٩/٢٤.

(٢) تلخيص المفتاح – شروح التلخيص ٢٤٥/٢.

معـــنى التمنى) [١] وعقب الدسوقى بقوله: (فقد ظهر لك من هذا أن التمنى فى "هــل" و "لــو" معنى مجازى ، وفي لعل من مستتبعات التراكيب وليس معنى مجازياً) [٢].

ونلاحظ هنا أن الخطيب وشراحه جروا على تشبيه المرجو بالمحال لبعد الحصول بخلاف "هل" و "لو" المستعملتين فى التمنى حيث يشبه معنى "ليــت" بمعنى "هل" و "لو" لتحقيق الغرض من إبراز المتمنى فى صورة الممكـــن أو الممتنع، وكان يجب أن يقال هنا: شبه المحال بالممكن لإبراز الميــئوس مــنه فـــى صورة المطموع فيه، إظهاراً لكمال الرغبة وتفاؤلا بوقـــوع المـــرغوب فـــيه -فى المثال المذكور- أو إدلالا بالقوة، وإيهاماً للمخاطب، كما فى آية غافر. وهو ما صرح به العصام فى الأطول فقال : (والأقـــرب أن يتمنى بلعل لقرب المتمنى من الحصول ، فكأنه قريب من الـــرجاء) [٣]. فاستعمال لعل هنا استعمال مجازى حتى على مذهب شراح التلخـــيص فـــى تشـــبيه المـــرجو بالمتمنى كما جاء فى مواهب الفتاح : (فاستعملت فيه لعل كاستعمال ليت لمشابهة هذا المعنى لمعناها، وعلى هذا فليس تمنياً حيقية) [٤].

---

(١) مختصر السعد ٢/٢٤٥.

(٢) حاشية الدسوقى ٢/٢٤٥.

(٣) الأطول ١/٢٣٤.

(٤) مواهب الفتاح ٢/٢٤٦.

التمني بـ لو:

إذا كـــان يتجوز بهل ولعل في الدلالة على التمني لإبراز المحال في صـــورة الممكـــن، فإنـــه يتجوز بـــ (لو) في عكس ذلك، فتجئ دالة على التمني، لإبراز المتمني في صورة الممتنع تجسيداً لليأس من حصوله. مثال ذلـــك قول الله تعالى على لسان الكافرين بعد إلقائهم في النار ، فجرى بين الضـــالين والمضلين حوار انتهى بتمنيهم العودة إلى الحياة الدنيا ليستبدلوا الإيمان بالكفر ، "قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين).(١)

فقـــد ضمنت "لو" معنى التمني بقرينة نصب المضارع بأن مضمرة بعدهـــا ، إذ لا ينصـــب الفعـــل بأن مضمرة بعـــد الفاء إلا بعد الاستفهام والتمني والعرض والأمر والنهي والنفي ، فكان نصب الفعل قرينة على أن لو محمولة على التمني لكثرة استعارتها له.

والنكـــتة فـــي استعارة "لو" هنا الإشعار بعزة متمناهم ، فأبرزه في صورة الممتنع ، لأن الأصل في لو الدلالة على الامتناع ، وفي ذلك تجسيد لمشـــاعر الـــيأس الذي أحاط بهم ، وكأنهم يقولون في نهاية حوارهم : لا جـــدوى مـــن هـــذا التخاصم ، فلا مرد لما مضى ، ولا مهرب من واقعنا الأليم.

---

(١) سورة الشعراء ٩٦ - ١٠٢.

وفى قول جرير :

**ولــى الشــباب حمــيدة أيامه		لــو كان ذلك يشترى أو يرجع**

جــاءت "لو" لتعكس إحساس الشاعر بواقعه الأليم ، ويحد من جنوح خــياله ، فيصبغ أمنيته بمشاعر اليأس من تحقيقها ، وقد مهد لذلك بالفعل "ولــى" إيماء لى أن ما مضى ليس بعائد ، وإنما هى عبرات يسكبها حزنا علــيه ، وزفرات يخفف بها من حدة آلامه ، وقارن ذلك بقول ابن الرومى السابق :

**أأيــام لهوى هل مواضيك عود		وهل لشباب ضل بالأمس منشد**

فــإنك تحــس بأن الأول أبعد فى المشيب ، وطال زمن اغترابه عن الشــباب ، فأيقــن بعدم العودة ، ويئس من رجوعه فكان تعبيه بـــ (لو) و "ولـــى" متساوقا مع هذا الشعور ، أما الأخير فلا يزال حديث عهد بالشباب وكأنــه فى مبادئ المشيب ، ولا تزال أحلام الشباب تراوده ، فعكس أمنيته فـــى صورة الاستفهام ، وعبر عن تولى الشباب بالفعل "ضل" وهو مأمول العثور عليه ، وتصريحه بالأمس دليل على قرب افتراق الشباب.

واستعمال لو فى التمنى مجاز بالاستعارة التصريحية التبعية إذ يشبه المســتبعد بالممتــنع ، بجامع عدم الحصول فى كل منهما ، فتستعار "لو" للإشعار بعزة المتمنى واليأس من وقوعه.

لولا ولوما وهلا وألا :

قال السكاكى : (وكأن الحروف المسماة بحروف التنديم والتحضيض وهى : هلا وألا ولولا ولوما مأخوذة منهما (أى من هل ولو) مركبة مع لا ومـــا المزيدتين ، مطلوبا بالتزام التركيب التنبيه على إلزام هل ولو معنى التمنى ، فإذا قيل : هلا أكرمت زيدا ، وألا بقلب الهاء همزة ، أو لولا أو لومـــا ، فكان المعنى : ليتك أكرمت زيدا ، متولدا منه معنى التقديم ، وإذا قـــيل : هـــلا تكرم زيدا أو لولا ، فكأن المعنى : ليتك تكرمه ، متولدا منه معنى السؤال).(١)

خـــالف الســـكاكى النحاة فى جعل التنديم والتحضيض لهذه الأدوات معـــنى مـــتولدا عن التمنى وليس حقيقة فيها ، فإذا استعملت مع الماضى كانـــت للتنديم ، لأن التمنى طلب ، ولا بطلب الفائت ، فيكون طلبه تنديما للمخاطـــب على ترك تحصيله ، وتوبيخا عليه ، مثال ذلك قوله تعالى فيما حكاه من قصة الرجلين اللذين ضربهما مثلا : ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ (٢) قالهـــا المؤمن ردا على صاحبه الكافر حين قال بعد أن دخل جنته : ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة﴾ (٣) فمـــا قاله قد فات ولا سبيل إلى رده ، وإنما هو تنديم له على ترك ما كان

---

(١) مفتاح العلوم ١٧٢.

(٢) سورة الكهف ٣٩.

(٣) سورة الكف ٣٥ - ٣٦.

ينبغى أن يقوله ، وتوبيخ على فواته ، وجاء تقديم الظرف "إذ دخلت جنتك" زيـــادة فى التقريع إذ كان يجب المبادرة والإسراع بهذه العبارة الدالة على التســليم لله وتفويــض الأمر إليه ، والاعتراف بالعجز أمام قوته وقدرته . يقــول الألوسى : (﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت﴾ حض على القول وتوبيخ على تركه ، وتقديم الظرف على المحضض عليه للإيذان بتحتم القول فى أن الدخول من غير ريث للقصر).[1]

وفى حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ سأله وقد كان حديث عهد بعرس (أبكراً أم ثيباً؟ قلت : ثيباً ، قال : فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك)[2] جاءت "هلا" متضمنة معنى التمنى ، بغرض تأنيبه ولومه على الزواج من الثيب ، وتــرك الــزواج ببكر تفيض حيوية ونشاطا ، قادرة على الوفاء بحاجات مثله من الشباب ، والتجاوب مع رغباته المشروعة.

وحين تقع هذه الحروف المركبة مع المستقبل يتولد عن التمنى بها التحضيض ، وهو الحث على الفعل كما فى خطاب صالح لقومه : ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾[3] ففــى دلالــة لولا على التمنى إيماء إلى شعور النبى الكريم ببعد تحقيق ما يتمناه ، لكثرة ما لاقاه من عنت قومه ، وقد تولد عن هذا التمنى حثهم على

---

(١) روح المعانى ٢٧٩/١٥.
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح.
(٣) سورة النمل ٤٦.

الاستغفار ، وتوبيخهم على تركه وقد يصاحب التحضيض التهكم والاستهزاء كما نراه فيما حكاه الله عن اليهود والمنافقين ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾.(١)

يقول الزمخشري : "كانوا يقولون ما له إن كان نبيا لا يدعو علينا"(٢) ففي طلبهم من النبي الدعاء عليهم بالعذاب تهكم به واستخدام أداة تدل على التمني يوحي بما قر في أنفسهم من استبعادهم وقوع العذاب بهم.

ومثله قوله تعالى على لسان مشركي مكة : ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ (٣) فقد نادوه بما لا يعتقدونه ، لأنهم لا يؤمنون بنزول شئ عليه ، ويكذبونه فيما يبلغ عن ربه ، فكأن هذا الخطاب منهم سخرية واستهزاء ، ثم جاء حضهم له على الإتيان بالملائكة وهم يعتقدون أنه لا يقدر على ذلك تهكما آخر بدليل قولهم (إن كنت من الصادقين).

على أن القرآن كثيرا ما وردت به "لولا" داخلة على الفعل الماضي مرادا بها التحضيض على خلاف ما هو مقرر من أن طلب الفائت يتولد

(١) سورة المجادلة ٨.
(٢) الكشاف ٧٤/٤.
(٣) سورة الحجر ٦ - ٧.

عــنه التــنديم ، لكــنك حين تتأمل هذه المواطن في القرآن لا يخطئك أن الماضـــي وضـــع موضع المضارع ، زيادة في الحث وكمال الرغبة في وقوع الفعل ، فيظهر المتكلم في صورة ما قد وقع ، وغالبا ما تجد هذا في مواقــف الفــزع والشدة حيث الذهول والأخذ بهول المفاجأة ، كما نراه في قوله تعالى : ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين﴾[1] فالظاهر أن يقــول : لــولا تؤخرني ، ولكنه أخرجه مخرج ما قد وقع تنبيها على شدة الرغبة في وقوعه ، قال الجمل (فإنه ماض بمعنى المضارع ، إذ لا معنى لطلــب التأخــير فــي الزمــن الماضي ، والأصل : لا تؤخرني إلى أجل قريب).[2]

(١) سورة المنافقون ١٠.

(٢) الفتوحات الإلهية ٣٤٩/٤.

ثانياً : الاستفهام

الألف والسين والتاء للطلب ، فيكون الاستفهام طلب الفهم ، (وهو طلب ما في الخارج أن يحصل في الذهن) [1] وهذا يقتضي أن السائل يطلب معرفة شئ يجهله ، وحينئذ يتعين على المسئول أن يجيبه بما يزيل جهله.

قدم على النبي ﷺ رجل من الشام ، فعرض عليه الرسول أن يسلم ، فقال الرجل: وما الإسلام؟ قال: أن تسلم قلبك لله ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ، قال: فاى الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان ، قال: وما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبالبعث بعد الموت ، قال: فأى الإيمان أفضل؟ قال: الجهاد ، قال: وما الجهاد؟ قال: أن تجاهد الكفار إذا لقيتهم ولا تغلل ولا تجبن.

فهذا رجل يعرض عليه الإسلام وهو لا يدرى عنه شيئا ، فيطلب من الرسول أن يوضح له حقيقة هذا الدين ، وكلما أجابه الرسول عن شئ ازداد شوقا إلى معرفة شئ آخر ، وهكذا تصاعدت أسئلته ، وتصاعدت معها إجابات الرسول حتى ارتوى ظمأ الرجل واتضحت أمامه أصول الإسلام.

وجاء إلى النبى أبى بن خلف وهو يحمل عظاما بالية جعل يفتها بيده ويقول : يا محمد أترى الله يحيى هذا بعد ما رم؟ قال الرسول نعم ويبعثك ويدخلك النار.

---

(١) المصباح لبدر الدين بن مالك ٨٣.

فهــذا رجل يسأل الرسول أيضا ، ولكنه لا يريد بسؤاله معرفة شئ يجهله ، وإنما هو سؤال المنكر الجاحد الذى ظن أنه يقهر الرسول بحجته ، ويكذبــه فــى دعواه بعث الأولين والآخرين ، وهذا ما جعل الرسول عليه الســلام يتجاوز الإجابة على ما سأله إلى بيان مصيره ومصير المنكرين مثله ، فيقول له : "ويبعثك ويدخلك النار" ، وهو الذى حكاه القرآن فى قوله تعالى : ﴿وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (١) فلمــا كان سؤاله سؤال المنكر لم يجبه القرآن قل يحييها الله ، وإنما ذكره بما نسيه من خلقه من العدم ، فكان جوابه تبكيتا له ، وإبطالا لإنكاره (قل يحييها الذى أنشأها أول مــرة) فإن الذى أوجدها على غير مثال سبق لا يعجزه أن يعيدها إلى ما كانت عليه.

فأمــامك الآن نموذجان للاستفهام : **الأول** يطلب فيه المستفهم معرفة أمر يجهله ، وهذا هو الاستفهام الحقيقى ، **والثانى** لا يطلب فيه السائل علم ما لم يعلم ، وإنما يسأل لينكر على المخاطب مضمون السؤال ، ومثل ذلك يكون الاستفهام فيه قد خرج عن أصله إلى غرض يقصده المتكلم ، ويسوق بين يديه من القرائن ما يدل عليه.

---

(١) سورة يس ٧٨ – ٧٩.

أدوات الاستفهام ومعانيها الوضعية :

ربما يبدو الحديث عن المعاني الوضعية لأدوات الاستفهام وما يطلب بها من التصور والتصديق خارجا عن مجال الدراسات البلاغية بعد أن تكفلت ببيانه الدراسات اللغوية ، وكأن السكاكي – وهو الذي حدد إطار الدراسة في الاستفهام بادئا بالمعاني الحقيقية لأدواته ، وسار على نهجه من بعده – فإنه أحس باعتراض عليه ، وهو يذكر أدوات الاستفهام ويفصل معانيها الحقيقية ، فدفع هذا الاعتراض بأن الهدف من ذلك هو إيقاف القارئ عليها ليصح منه تطبيق الكلام على ما يستوجب.[1]

فذكر حقائق هذه الأدوات إنما هو تمهيد للبحث في تجاوب أساليب الاستفهام مع الدواعي والأغراض وتطابقها مع مقامات الحديث ، وجريها على مقتضى الظاهر حينا ، وخروجها على خلافه حينا آخر ، وليس البحث البلاغي مقصورا – كما يظن البعض – على المواطن التي فارقت فيها أساليب الاستفهام معانيها الوضعية ، حتى يكون الحديث عن التصور والتصديق ، والبحث في المسئول عنه بما أو من وغيرهما ضربا من الفضول ، ودسا للأنوف فيما ليس من شأنها.

وإليك مثلين تبدو فيهما الحاجة ماسة إلى مثل هذا التمهيد ، وهما مما تعرض له رجالات البلاغة.

قال تعالى فيما قصه من حديث موسى مع فرعون ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بني إسرائيل قال ألم نربك فينا وليدا

(١) مفتاح العلوم ١٧٣.

ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين﴾[١]

ويبسط ذلك أن "ما" يسأل بها عن الجنس وعن الوصف ، وبناء على ذلك فقد جهل السكاكي فرعون في سؤاله بها عن رب العالمين ، وجعل رد موسى عليه السلام من باب أسلوب الحكيم ، لأن معنى "ما" في سؤال اللعين : ﴿وما رب العالمين﴾ : أي أجناس الأجسام هو؟ وذلك جهل بالله المنزه عن الجسمية والمشابهة للحوادث ، أما جواب موسى فكان بالوصف ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ تنبيها على خطئه في السؤال ، وتوجيها للنظر فيما يؤدي إلى العلم بحقيقة ما يمتاز به الخلاق عن سائل الممكنات ، وفي ذلك تلقي السائل بغير ما يسأل ، تنبيها على أنه الأولى والأليق بشأنه ، ولما لم يتفطن فرعون لهذا التعريض بخطئه قال تعجيبا من عدم مطابقة جواب موسى لسؤاله : ﴿ألا تستمعون﴾ فتصعد موسى في جوابه منتقلا من الآيات المتعلقة بالآفاق إلى الآيات المتعلقة بالأنفس ﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ فلما رأى فرعون استمرار موسى على

---

(١) سورة الشعراء ١٦ – ٢٩.

جواب لا يطابق سؤاله وصفه بالجنون : ﴿قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون﴾ ورد موسى بوصف ثالث أشد ظهوراً ، ووسمهم بفقدان العقل والنظر ﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾.[1]

إن وقوفنا على حقيقة السؤال "بما" هو الذى وقفنا على جهل فرعون وخطئه ، وكشف لنا عن أسلوب الحكيم الذى سلكه موسى فى الرد على فرعون ، وذلك من خصائص التراكيب التي هى مطمح أنظار البلغاء.

وهذا مثال آخر ، قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ [2] فإنه مما قرره البلاغيون والنحاة أن "من" يطلب بها التصور، أى إدراك المفرد، وهى فى قول عيسى ﴿من أنصارى إلى الله﴾ سؤال عن الناصر من هو؟ ومطابقة الجواب له أن يقول الحواريون "نحن" فحسب ، لأن المطلوب تعيين المسند غليه ، لكنهم أجابوا بالتصديق فقالوا ﴿نحن أنصار الله﴾ فلم يطابق جوابهم سؤاله ، وفى ذلك نكتة لطيفة نقلها السبكى عن والده – رحمهما الله – وهى : (أن "من" وإن كانت سؤالا عن التصور ، فالسائل بها تارة يجزم بحصول المبهم ، ولكن يسأل عن تعيينه، وتارة لا يجزم ، كمن يرجو ناصرا يجوز أن لا يوجد ويرجو أن يوجد ، ويطلب تعيينه ، فقوله : (نحن أنصارى) محمول على ذلك ، قاله عيسى

(١) ينظر المفتاح ١٧٤.
(٢) سورة الصف ١٤.

علـيه السلام راجيا من الله تعالى إقامة ناصر له ، سائلا عن عينه ، فهو سـؤال عـن التصديق والتصور ، لكنه أخرجه مخرج التصور ، ثقة بالله سـبحانه وتعالى ، وأدبا معه تعالى ومع السامعين ، فكان الأكمل السؤال عـن التصـور ، وجعل السؤال عن التصديق مطلوبا فيه ، والحواريون تفطنوا لذلك فأجابوا بالتصديق ، ليحصلوا المقصودين معا ، كأنهم قالوا هنا مـن ينصرك ، وهم نحن ، وقالوا : (أنصار الله) لأن نصرته نصرة الله ، بمعنى نصرة دينه ، وليبينوا أن نصرتهم له خالصة لله لا يشوبها غيره من حظـوظ البشـرية) [1] فقد تضمنت إجابة الحواريين زيادة عما طلب فى السـؤال ، ولا سبيل إلى هذه الزيادة إلا أن يجيبوا بالتصديق ، إذ لو قالوا "نحن" فقط لكانت نصرتهم منتهية إلى الله كما هو مدلول "إلى" فى السؤال ، ولكـنهم أرادوا أن يقولـوا له ليس الله هو غايتنا التى ننصرك من أجلها فحسـب ، بـل إن نصرتنا لن تكون لغيره ، ولن نشوبها بحظ من حظوظ الـنفس وشهواتها ، لذلك لم يقولوا : نحن أنصارك إلى الله ، كما جاء فى السـؤال : من أنصارى إلى الله فهل كان الحديث عن التصور والتصديق غير وسيلة إلى الوقوف على هذه النكتة؟!.

وأدوات الاسـتفهام مـن حيث التصور والتصديق ثلاثة أقسام : قسم يطلـب به التصور والتصديق وهو الهمزة وحدها ، ولذلك كانت أم الباب فى الاستفهام ، وقد حظيت باهتمام خاص فى الدراسة لتميزها بتعدد مواقع

---

(١) عروس الأفراح ٢/٢٧٩.

المسئول بها ، فهي إن كانت للتصديق يسأل بها في الإثبات والنفي ، فتقول: أقلت شعرا؟ ألم تقل شعرا؟ قال تعالى : ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ (١) وقال عز وجل : ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ (٢) ، وإن كان أكثر دخولها على المثبت ، حتى قيل إنها إذا كانت للاستفهام الحقيقي لا يسأل بها في غير الإثبات ، قال السبكي : "ذكر بعضهم أن الهمزة لا يستفهم بها حتى يهجس في النفس إثبات ما يستفهم عنه بخلاف هل ، فإنه لا يترجح عنده نفي ولا إثبات". (٣)

مواقع المسئول عنه بالهمزة :

لما كانت الهمزة يطلب بها التصور والتصديق تعددت مواقع المسئول بها ، واحتاجت إلى دراسة التقديم والتأخير في أجزاء الجملة بعدها ، وهو ما دفع شيخ البلاغة عبد القاهر إلى تتبع هذه المواقع ودلالاتها في مبحثه الممتع في التقديم والتأخير ، وضابط ذلك أن الهمزة إذا وليها الفعل احتملت التصديق ، فيكون السؤال عن وقوع النسبة في الخارج أو عدم وقوعها ، واحتملت التصور ويكون الشك حينئذ في الفعل ، والمعول في التمييز بينهما على القرائن لفظية أو معنوية ، فاللفظية مثل "أم" المنقطعة التي تدل على التصديق، و"أم" المتصلة التي تدل على التصور ، فإذا قلت : أسافرت أم لا ، كان ذلك دليلا على أنك تريد معرفة النسبة أوقعت أم لم تقع ، وهذا

(١) سورة البقرة ٣٠.
(٢) سورة البقرة ٣٣.
(٣) عروس الأفراح ٢/٢٧١.

هـو التصـديق ، وإن قلت : أضربت زيدا أم أكرمته؟ كانت "أم" متصلة والمطلوب هو تعيين المسند ، ولذلك فإن الجواب عن السؤال الأول يكون بالإثـبات أو الـنفي ، فتقول : سافرت أو لم أسافر ، وعن الثانى بتعيين المسـند : ضـربته أو أكرمته ، والمعنوية مثل : أفرغت من الكتاب الذى كنـت تكتبه ، فإن قولك : "الذى كنت تكتبه" قرينة حالية على التصديق ، لأنـك أفدت به علمك بوقوع كتابة منه ، والجواب أن تقول : فرغت أو لم أفرغ".

وإذا ولـيها الاسـم احتملـت طلب التصديق كقولك : أأنت شاعر؟ واحتملـت التصـور وطلـب تعيين المسند أو المسند إليه أو أحد متعلقات الفعل، فمثل: أأخوك شاعر أم كاتب ، طلب لتعيين المسند ، ومثل : أشاعر أنـت أم أخـوك؟ طلب لتعيين المسند إليه ، وقولك : أشعرا كتبت أم نثرا طلـب تعيين المفعول ، وأراكبا جئت أم ماشيا ، طلب تعيين الحال ، و"أم" فـي كـل ذلـك متصـلة ، ومثل قولك : ألك زملاء أم لك أصفياء؟ فإن المطلوب بالهمزة هو التصديق ، وأم منقطعة بمعنى بل ، وعليه قوله تعالى ترقـيا فـي الإنكـار على المشركين عبادتهم لمن فقدوا الحواس التى بها يضـرون وينفعون : ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾ (١) فقد انتقل من السؤال عن الأرجل إلى السؤال عن الأيدى ، ثم عـن الأعيـن ، فالآذان ، ترقيا فى الإنكار من أدنى الحواس إلى أعلاها

(١) سورة الأعراف ١٩٥.

بطريق أم المنقطعة الدالة على الإضراب ، يقول أبو السعود : (وكلمة "أم" فـي قوله تعالى : ﴿أم لهم أيد يبطشون بها﴾ منقطعة ، وما فيها من الهمزة لمـا مـر من التبكيت والإلزام ، وبل للإضراب المفيد للانتقال من فن من التبكيت بعد تمامه إلى فن آخر منه). [١]

والقسـم الثاني يطلب به التصديق فحسب ، وهو "هل" وحدها ، قال تعالى : ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم﴾ [٢] فلما كانت هل لطلب الحكم وقعـت إجابتهم بالإثبات ولذلك فإنها لا تقع بعدها "أم" المتصلة ، لأن "أم" المتصـلة تـدل علـى كون السؤال عن التصور وطلب التعيين بعد العلم بالنسبة ، وهل تدل على طلب النسبة وهما متنافيان ، فإذا جاءت بعدها "أم" كانت منقطعة حتما ، كقول الشاعر :

ألا ليت شعري هل تغيرت الرحى رحى الحرب أم أضحت بفلج كما هيا

وامتنع أن تقع بعدها "أم" المتصلة مثل : هل زيد قائم أم عمرو؟ وهل زيد قام أم عمرو؟

وقبح هل زيد قام ، وهل زيدا ضربت ، لأن تقديم الفاعل أو المفعول علـى الفعل يستدعي التصديق بنفس الفعل ، وعلى مقتضى استعمال "هل" يكون سؤالا عن أصل الفعل ، فيكون طلبا لتحصيل الحاصل ، ومثله تقديم

(١) تفسير أبي السعود ٣٠٦/٣.
(٢) سورة الأعراف ٤٤.

سائر المتعلقات نحو : هل في الدار جلست؟ وهل راكبا جئت؟ وهل عندك قام عمرو؟ فكل ذلك قبيح وإن لم يكن ذلك ممتنعا ، لجواز أن يقدر فعل يلي "هل" ، فمثل : هل زيدا ضربت؟ يجوز فيه أن يكون "زيدا" مفعولا لفعل محذوف يفسره المذكور ، وقبحه بسبب أن المتبادر من مثل هذا التركيب هو تخصيص المفعول المقدم بالضرب ويكون الضرب معلوما مسلما به ، ولذلك لم يقبح تقديم المفعول إذا كان الفعل المؤخر مشتغلا بضميره نحو : زيدا ضربته ، لجواز أن يكون العامل في المفعول مقدما عليه ، والتقدير : هل ضرب زيدا ضربته؟.

وقد علل البعض قبح تقدم الاسم على الفعل في مثل : هل زيد قام ، وهل رجل قام بأن "هل" بمعنى قد ، وهي من خواص الأفعال فكذلك ما هو بمعناها ، بخلاف ما إذا وليها الاسم ولم يكن في حيزها فعل ، مثل : هل زيد قائم ، فليس ذلك قبيحا ، (لأنها إذا لم تر الفعل في حيزها ذهلت عنه وتسلت ، بخلاف ما إذا رأته تذكرت العهود ، وحنت إلى الالف المألوف ، فلم ترض بافتراق الاسم بينهما)[1] ، وعلى الرغم مما يبدو من أن هذا التعليل مبنى على التوهم فإن له أصلا معقولا ، وهو أن استدعاءها للفعل يقوى حين يقع في حيزها ، ويقل حين يكون طرفا الجملة اسمين.

ومن خصائص "هل" أنها تخصص المضارع بعدها لاستقبال ، فلا يصح أن تقول على سبيل التوبيخ: هل تقتلون رجلا وهو يقول ربي الله ،

---

(١) مختصر السعد ٢/٢٦١.

لكـــنه يصــــح بالهمزة على معنى لا ينبغي أن يكون ، كما في قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب﴾ [١] وقوـــله تعالى : ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ [٢].

وقـــد ترتب على اختصاص (هل) بالتصديق وتخصيصها المضارع بالاستقبال أن يكون لها مزيدا اختصاص بالفعل ، فإذا عدل معها عما هي مختصـــة به كانت النكتة فيها أظهر ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ [٣] فإن العدول عما لهل من مزيد الاختصاص به وهو الفعـــل والتعبـــير باسم الفاعل "مغنون" دون : فهل تغنون ، يجسد شعور القائليـــن بالـــيأس من عدم نفعهم أبدا ، لذلك عدلوا عن صيغة الفعل الدال على التجدد إلى الاسم الدال على الاستمرار والثبات ، وعدلوا عن الهمزة ، فلـــم يقولوا : أفأنتم مغنون ، لأن إيلاء الاسم الهمزة ورود على الأصل ، بخـــلاف "هل" فإنه عدول عما هو الأصل فيها ، فكانت دلالتها على طلب الدوام والاستمرار أظهر ، قال صاحب الإيضاح (ولهذا كان قوله تعالى : ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ [٤] أدل على طلب الاسم من : قولنا فهل تشكرون ، وقولـــنا فهل أنتم تشكرون ، لأن إبرازا ما سيتجدد في معرض الثابت أدل علـــى كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله ، وكذا من قولنا : أفأنتم

(١) سورة البقرة ٤٤.
(٢) سورة يونس ٦٨.
(٣) سورة إبراهيم ٢١.
(٤) سورة الأنبياء ٨٠.

شـــاكرون ، وإن كانت صيغته للثبوت ، لأن هل أدعى للفعل من الهمزة ، فـــتركه معهـــا أدل على كمال العناية بحصوله) [1] وهذا من دقائق الفروق التي يقع عليها أصحاب المعاني تمييزا بين استعمالات الحروف.

والقسم الثالث ما يطلب به التصور فقط ، وهو باقي أدوات الاستفهام وان اختلف المطلوب تصوره بكل واحد منها ، فالمطلوب بما شرح الاسم كمـــا جاء في الحديث الذي سأل فيه الأعرابي رسول الله ما الإسلام ؟ أو تحديـــد مـــا هية المسمى ، كما إذا قلت : ما الإنسان تريد تحديد ما هيته ؟ وقيل يسأل بها عن الجنس كما سبق في سؤال فرعون:﴿وما رب العالمين﴾ وعـــن الوصف ، فتقول : ما زيد ؟ فيجاب: هو كريم شجاع ، ويسأل بمن عما يميز ذوى العلم كقولك : من في المسجد؟ ، ويجاب : الإمام ، ويسأل بأي عما يميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما كقوله تعالى: ﴿أي الفريقين خير مقاما﴾ [2] فالمؤمنون والكافرون مشتركون في الفريقية ، والسؤال عما يمـــيز أحد الفريقين عن الآخر ، ويسأل بكم عن العدد كقوله تعالى : ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ [3] ويسأل بكيف عن الحال ، وبأين عن المكـــان ، وبمتى عن الزمان ، ماضيا ، مثل : متى جئت؟ ومستقبلا مثل قولـــه تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [4] ويسأل بأيان عـــن الـــزمان المستقبل ، ونقل الخطيب في الإيضاح عن علي بن عيسى

---

(١) الإيضاح ٢/٢٦٨ – ٢٧٠.

(٢) سورة مريم ٧٣.

(٣) سورة المؤمنون ١١٢.

(٤) سورة الملك ٢٥.

الربعى أنها (تستعمل فى مواضع التفخيم ، كقوله تعالى:﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾.[١]

وقد ضعف السبكى هذا الرأى فقال : (قلت : وفى تمثيل المصنف بهذه الآية نظر ، فإنه كلام محكى عن الإنسان الذى يحسب أن لن تجمع عظامه ، وذلك لا يقصد تفخيم يوم القيامة الذى لا يقربه ، والمشهور عند النحاة أنها كمتى تستعمل فى التفخيم وغيره).[٢]

وأرى أن على بن عيسى الربعى أدرك بحسه المرهف ما لم يقع عليه غيره من النحاة - وهو كثيرا ما يقع على أمثال هذه اللطائف التى نوه بها إمام البلاغة عبد القاهر الجرجانى - فالاستفهام بـ(أيان) فى الآية موضع الحديث ليس استفهاما حقيقيا عن زمان وقوع يوم القيامة ، وإنما هو استبعاد لوقوعها ، والتفخيم هنا منصب على هذا المعنى المجازى أو المتولد عن الاستفهام ، مما يدل على شدة استبعادهم للبعث ، وقد تناغم هذا المعنى مع الإيقاع الصوتى المتمثل فى حرف المد ، وكأنما يرمز طول المساحة الصوتية فى النطق بالكلمة إلى طول الزمن الناشئ عن الاستبعاد، أما الاستبعاد للمهرب والنجاة الواقع بعد هذا الاستفهام من نفس السورة فى قوله تعالى: ﴿فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾[٣] فقد أدى بأداة الاستفهام "أين" ، وهى أقصر صوتا من "أيان" تجاوبا مع مقام الذعر والفزع ، والضائق المكروب

(١) الإيضاح ٢/٢٨٩.
(٢) عروس الأفراح ٢/٢٨٨.
(٣) سورة القيامة ١٠.

المـتقطع الأنفـاس يؤثر من الكلمات أوجزها ، ومن الأصوات أقصرها ، وهـذا هـو الفرق بين هذا الإنسان المستبعد للبعث وهو فى رخاء العيش ورغـد الدنـيا – وبيـنه حين تطبق على أنفاسه الكروب ، وتضيق عليه المنافذ، حيث لا مهرب من قضاء الله وعذابه.

والدلـيل علـى ذلك أنك لا تخطئ فى القرآن استعمالها فى مواطن التفخـيم ، إيماء إلى شدة استبعاد الوقوع ، كما فى قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ [1] وقوله سبحانه : ﴿قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون يسألون أيان يوم الدين﴾. [2]

وأحسب أن مثل هذا الفرق الدقيق بين "متى" و "أيان" يمكن أن نجده بيـن "أنـى" و "كـيف" وبين "أنى" و "أين" فقد قال النحاة : إن "أنى" تأتى بمعـنى "كيف" دالة على الحال ، كما فى قوله تعالى : ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ [3] بمعـنى : كيف شئتم ، وبمعنى من أين كما فى قوله تعالى على لسان زكريا خطابا لمريم عليهما السلام : ﴿قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ [4] فإنـنا حيـن نقول : إنها بمعنى كيف أو بمعنى أين فى الدلالة على الحال والمكان فإننا لا نلغى خصائص كل أداة فى الاستخدام ، وأحسـب أن هذه مهمة أرباب المعانى التى يجب ألا يتقاعسوا عنها ، وألا يقفـوا عند الغاية التى وقف عندها النحاة ، وذلك وحده هو المبرر لدراسة

---

(١) سورة الأعراف ١٨٧.
(٢) سورة الذاريات ١٣.
(٣) سورة البقرة ٢٢٣.
(٤) سورة آل عمران ٣٧.

معـــانى هـــذه الأدوات فى علم البلاغة وإذا أردت أن تقف على مثل هذة الأدوات فـــى علم البلاغة ، وإذا أردت أن تقف على مثل هذه الدقائق فإننا ندلك على بعض نماذجها ، ومستوى معها أن "أنىٰ" تستعمل فى مواقف أشد اســـتغرابا وتعجبا واستبعادا ، وذلك يتلاءم مع طبيعة صوتها وانتهائه بهذا المد الذى يسمح بخروج أنفاس التعجب ، وشهقة الاستغراب.

فهـــذا قولـــه تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [1] فســـرت فـــيه "أنى" بمعنى كيف ، ورأى البعض[2] أن التعبـــير بها دون "كيف" تفنن وتصرف فى الكلام وبعد عن التكرار ، فهل هـــذا هـــو الغـــرض وحده؟ وإذا كان التكرار هو سبب العدول ، فلم كرر "انظر" ومرادفاتها أكثر من مرادفات "أنى"؟.

ليس تجنب التكرار أو التفنن هو الذى عدل من أجله إلى هذه الأداة ، وإنمـــا اختـــيرت مـــع التعجيب الأشد، وإن كانت الأداتان مستعملتين فى التعجـــب ، وعلـــيه فإنـــه لا يصح بلاغة تبادل الأداتين مواقعهما ، بحيث توضـــع "أنـــى" مع التعجيب من بيان الآيات ، و "كيف" فى التعجيب من إعـــراض المخاطبيـــن عـــنها ، وهذا هو سر اختيار حرف التراخى "ثم" للـــتفاوت بين العجبين ، يقول أبو السعود : (وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة فـــى التعجيب ، و "ثم" لإظهار ما بين العجبين من التفاوت ، أى أن بياننا للآيـــات أمـــر بديـــع فى بابه مبالغ لأقصى الغايات القاصية من التحقيق

---

(١) سورة المائدة ٧٥.

(٢) ينظر التحرير والتنوير ٦/٢٨٧.

والإيضـــاح ، وإعراضـــهم عنها مع انتفاء ما يصححه بالمرة وتعاضد ما يوجـــب قـــبولها أعجب وأبدع) [(١)] ، فلا بد أن تستعمل "أنى" فيما هو أشد تعجيبا.

وهـــذا نمـــوذج آخر من النظم الحكيم في آيتين متواليتين ، وقصتين متعاقبتيـــن ، يحكيهما القرآن : الأولى حكاية عن العزيز ، وجاء الاستفهام فـــيها بـــأنى ، في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [(٢)] والثانـــية حكاية عن إبراهيم عليـــه السلام ، وجاء الاستفهام فيها بكيف ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [(٣)] فبيـــن القصتين تناسب معنوى (لأن طلبتهما واحدة ، إذ المار سأل معاينة الإحـــياء ، وكذلك طلبة إبراهيم عليه السلام) [(٤)] وقد آثر النظم الحكيم في ســـؤال المـــار "أنـــى" الـــتى تولد عنها الاستبعاد وهو الذى جعل جار الله الزمخشـــرى يحكـــم بـــأن المار حين سأل هذا السؤال كان كافرا ، فقال : (والمـــار كان كافرا بالبعث ، وهو الظاهر لانتظامه مع نمروذ في سلك ، ولكلمة الاستبعاد التى هى "أنى يحيى"). [(٥)]

---

(١) تفسير أبي السعود ٦٨/٣.
(٢) سورة البقرة ٢٥٩.
(٣) سورة البقرة ٢٦٠.
(٤) الانصاف لابن المنير ٢٨٩/١.
(٥) الكشاف ٣٨٩/١.

(أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له : (كيف تحيى الموتى) فليس عـن شـك والعياذ بالله فى قدرة الله على الإحياء ، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء). [١]

فهـل المغايـرة بين الأداتين كذلك لمجرد التفنن ، أم لأن "أنى" هي الأنسب لمواقف الاستبعاد وأكثر ملائمة لمقامات الاستغراب والدهشة؟

ألـم تر إلى أثر الاندهاش والاستغراب والاستبعاد فيما خالف عادات الـناس يصـبه زكريا عليه السلام فى أداة الاستفهام "أنى" بمعنى من أين حينا، وبمعنى كيف حينا آخر ، فيما حكاه الله عنه من قوله تعالى : ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾ [٢] فأى دهشة واستغراب عبرت عنه "أنى" وهو يجد بين يدى مريم فاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء كما قيل ، وقد غلقـت دونها الأبواب ولم يدخل عليها أحد سوه؟ فهل تراه لو قال فى غير القرآن : من اين لك هذا؟ أيكون معبرا عن دهشته واستغرابه وشدة تعجبه بمـثل مـا عبر عنه بالأداة ذات الصوت الممدود الذى يعين على إخراج صيحة عجبه بالقدر الذى يعبر عن إحساسه؟

ثم أتراه يعبر عن مثل هذا وهو يفاجأ بنداء الملائكة يبشرونه بيحيى بعـد أن بلغ من الكبر ما يستحيل معه الإنجاب عادة ، ومن امرأة عاقر قد جمعت إلى هذا المانع مانعا آخر وهو كبر السن ، هل تراه مبرزا إحساسه

(١) الانصاف ٣٦١/١.
(٢) سورة آل عمران ٣٧.

بالاستغراب والدهشة لو وضع كيف موضع "أنى" في قوله تعالى : ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، قال أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ (١) وهلا كان التفنن والتصرف في الكلام دافعا إلـى العـدول عن "أنى" إلى "كيف" فيما ورد عقب هذه القصة على لسان مريم عليها السلام ، وقد بشرت بالولد ، وهي غير ذات زوج ولم يمسسها بشر ، فصاحت متعجبة مندهشة مستبعدة : ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ (٢) فكـان الجواب المزيل للاستبعاد بمخالفة ما جرت به العادة هو أن يردهما إلى قدرة الخالق العظيم، ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ ، ولعلك تلاحظ في الرد الفرق بين "يفعل" و "يخلـق" لأن الشأن مع زكريا وزوجه شأن إصلاح ما تعطل من آلات فهو مناسـب للفعل ، وأما عيسى فهو خلق بلا آلة ، ولذلك شبه بخلق آدم ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾. (٣)

المعاني المتولدة عن الاستفهام :

إذا كانـت حقـيقة الاستفهام طلب حصول صورة المستفهم عنه في الذهـن ، فإن جل أدوات الاستفهام في تراث العرب لا يراد بها حقائقها ، وإنما يتوسل بها إلى معان أخرى يدسها المتكلم في عبارة الاستفهام ، وإذا أردت الـتأكد من ذلك فأمامك كتاب الله تعالى العامر بأساليب الاستفهام ،

---

(١) سورة آل عمران ٣٩ ، ٤٠.

(٢) سورة آل عمران ٤٧.

(٣) سورة آل عمران ٥٩.

فـــإنك إذا تأملته وجدت ما ورد منها على الحقيقة قليلا من قليل ، وحسبك أن كل سؤال يرد من الله تعالى خارج عن حقيقة الاستفهام ، لأنه بكل شئ علــيم ، وهــذه المعانى المتولدة عن الاستفهام تستعصى على الحصر ، ولـــيس لهـــا ضابط غير الذوق والتسمع إلى همس السياق ، وإليك بعضا منها:

١-الاستبطاء :

الاســـتبطاء عد الشئ بطيئا فى زمن انتظاره ، ولا يكون إلا فى امر مـــتوقع ، ومثاله قوله تعالى : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾. (١)

أراد الله تعـــالى للمخاطبيـــن من المؤمنين أن يتأملوا ممن سبقهم من أهـــل الإيمان فى الصبر على الشدائد فضرب لهم المثل بأمم خلت ، ابتلى الله أهـــل الإيمان فيها بالمحن والشدائد الشبيهة بالزلازل ، حتى وصل بهم الأمر وفيهم رسولهم إلى حد تساءلوا فيه عن موعد النصر – وهم من هم ثقـــة فـــى الله ورجـــاء فى نصره – طلبا له واستطالة لزمن الشدة ، يقول الزمخشرى : (بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك ، ومعناه طلـــب النصـــر وتمنيه واستطالة زمن الشدة ، وفى هذه الغاية دليل على تناهى الأمر فى الشدة وتمديه فى العظم).(٢)

---

(١) سورة البقرة ٢١٤.

(٢) الكشاف ٣٥٦/١.

وهـــذا شاعر يضيق بطول الليل ، وتثقل فى عينيه خطوات النجوم ، فيصرخ من الملل مستغيثا بالفجر ليبدد الظلام المتراكم على صدره :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم   ومـــا ســـراه علـــى خـــف ولا قدم

ولعلـــك تحـــس بضـــيق صدره ، واستطالته للزمن فى اختيار أداة الاســـتفهام "مـــا" المحـــذوف مدها بدلا من الأداة الموضوعة للزمان "متى وأيان" ان هذا الاستبطاء يجسد القلق ومشاعر الضيق والمعاناة النفسية.

وقريب منه قول شوقى :

قلـــب يـــذوب ومدمـــع يجـــرى   يـــا لـــيل هـــل خـــبر عن الفجر؟

حالـــت نجومـــك دون مطلعـــه   لا تبـــتغى حـــولا ولا تســـرى

فلـــيس معقـــولا أن يسأل شوقى الليل عن الفجر متى هو ، وإنما هو يبثك إحساسه ببطء الزمن ، ويريك شدة ضيقه من الليل الذى وقفت نجومه حائلا دون طلوع فجره.

٣- الاستبعاد :

هـــو عـــد الشـــئ بعيدا ، ويكون فيما لا يتوقع ، وغالبا ما لا يكون محبوبا ، وقد يلتبس بالاستبطاء ، يقول ابن يعقوب : (والاستبعاد عد الشئ بعيدا حسا أو معنى ، وقد يكون منكرا مكروها غير منتظر أصلا ، وربما يصلح المحل الواحد لهما ولو اختلف مفهومهما).[1]

---

(١) مواهب الفتاح ٣٠٦/٢.

وأرى أن فض الاشتباك بين الفرضين ، ووضع حدا فاصل بينهما يكمن فى كون المستفهم عنه أمرا متوقعا أو غير متوقع ، فإن كان السائل يتوقع حصوله ويستبطئ زمنه فذلك الاستبطاء ، وإن كان لا يتوقع حصوله ففى طلبه واستعجاله استبعاد له ، وتوقع الحصول أو عدمه مرجع إلى اعتقاد السائل وإن كان غير مطابق للواقع ، لذلك فلا يصح أن يقال إن الغرض فى قول الرسول والمؤمنين (متى نصر الله) إنه الاستبعاد ، لأن السائلين لا يستبعدون نصر الله تعالى ، وان استبطأوا زمنه.

وقد كثرت أمثلة الاستفهام المراد به الاستبعاد فى الذكر الحكيم واستخدم من أدواته ما يدل على الزمان "متى وإيان" وما يدل على المكان "أين وأنى" بالإضافة إلى الهمزة ، وجاء فيما يكون منكرا مكروها ، وفيما يكون محبوبا.

وقد وردت "متى" فى القرآن تسع مرات ، أريد بواحدة منها الاستبطاء فى الآية التى سبق الاستشهاد بها ، وثمانى مرات أريد فيها الاستبعاد ، وهى كلها فيما حكاه الله على ألسنة المكذبين بالبعث والعذاب المستبعدين لهما ، الهازئين بالرسل المنذرين بها ، من مثل قوله تعالى : ﴿خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [1] فإن المكذبين منكرون لما توعدهم الله به مستبعدين له ، فسؤالهم عن زمن وقوعه سؤال المستبعد الهازئ بما أنذر به.

---

(١) سورة الأنبياء ٣٧ – ٣٨.

وتبدو صورة الاستبعاد والاستخفاف واضحة ، جسدها الله تعالى في حـركات أجسـامهم وإشاراتها في قوله تعالى : ﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾ (١) ألا تـرى كـيف جسد قوله ﴿فسينغضون إليك رءوسهم﴾ حـركة الاستخفاف والرفض ، مما يجعل السؤال عن زمن الإعادة ترجمة لما قر في أنفسهم من استبعاد البعث وإنكار وقوعه؟ لذلك قرب الله لهم ما اسـتبعدوه ، ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾ يقـول المـرحوم سيد قطب : ((ينغضـونها علـوا أو سـفلا ، استنكارا واستهزاء ، ﴿ويقولون متى هو﴾ استبعادا لهذا الحادث واستنكارا)). (٢)

ومن استعمال "أيان" قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة﴾ (٣) فـإذا كـان السائل منكرا للبعث ، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه﴾ فإن سؤاله عن موعد الساعة سؤال المسـتبعد المسـتهزئ. يقول البيضاوي : ((﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾ متى يكون يوم القيامة استبعادا له أو استهزاء)). (٤)

---

(١) سورة الإسراء ٥١.

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٣٣/٤.

(٣) سورة القيامة ٣ - ٦.

(٤) تفسير البيضاوي ٥٢٢/٢.

ومن استخدام "أين" قوله تعالى فى هذه السورة على لسان الكافر الذى كذب بالبعث : ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾ (١) فهو الآن يستبعد أن يجد ملجأ أو مهربا بعد أن كان يستبعد البعث والحساب ، ولا يخفى أن المستبعد هــنا أمــر محبوب ، وقد ذكرنا عدة أمثلة للاستبعاد بأنى فراجعها وستجد منها ما هو محبوب وما هو مكروه.

ومما جاء الاستبعاد فيه بالهمزة قوله تعالى على لسان امرأة إبراهيم: ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا﴾ (٢) مستبعدة بحكم العادة أن تلد وقد تجاوزت هى وزوجها سن الإنجاب ، وقد وقعت الجملتان ﴿وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا﴾ حــالا من الضمير فى "أألد" لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله ، أى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك؟. (٣)

٣- التعجب :

التعجـــب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشئ ، قال بعض الحكمـــاء : العجـــب مـــا لا يعـــرف ســـببه، ولهذا قيل لا يصح على الله التعجـــب(٤) أو هو كما قال صاحب الأطول : (كيفية نفسانية تابعة لإدراك الأمـــور القلـــيلة الوقوع المجهولة الأسباب) (٥) وغالبا ما يصاحب التعجب الإنكـــار حـــتى جعل فى المعجم الوسيط جزءا من دلالته اللغوية ، فقيل :

(١) سورة القيامة ١٠.
(٢) سورة هود ٧٢.
(٣) تفسير أبى السعود ٢٢٥/٤.
(٤) .
(٥) الأطول ٢٤٣/١.

(عجب منه : أنكره لقلة اعتياده إياه) [١] ، لذلك فإن أرباب البيان كثيرا ما يقـرنون التعجـب بالإنكار ، ففي قوله تعالى : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ [٢] يقول الزمخشري (معنى الهمزة التي في "كيف" مثله في قولك – أتكفرون بالله – ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان ، وهـو الإنكار والتعجب ، ونظيره قولك : أتطير بغير جناح ، وكيف تطير بغـير جـناح؟ فـإن قلت : قولك: أتطير بغير جناح إنكار للطيران لأنه مسـتحيل بغـير جـناح، وأما الكفر فغير مستحيل مع ما ذكر من الإماتة والإحـياء ، قلـت: قد اخرج في صورة المستحيل لما قوى الصارف عن الكفـر والداعي إلى الإيمان ، فإن قلت : قد تبين أمر الهمزة وأنها لإنكار الفعـل والإيـذان باستحالته في نفسه أو لقوة الصارف عنه ، فما تقول في كيف حيث كان إنكار للحال التي يقع عليها كفرهم؟ قلت : حال الشئ تابعة لذاتـه ، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال ، فكان إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكارا لذات الكفر ، وثباتها على طريق الكناية ، وذلك اقوى لإنكار الكفر وأبلغ). [٣]

رحـم الله الزمخشري فإنه لم يقف عند دلالة الاستفهام على التعجب والإنكـار ، بـل نفذ إلى السر وراء إخراج غير المستحيل وهو الكفر في صورة المستحيل الذي يتعجب منه ، لأن العلم بأن الله هو الذي أحياهم بعد أن كانوا أمواتا صارف قوي عن الكفر ، فوقوعه منهم وهم يعلمون حقيقة

(١) المعجم الوسيط مادة عجب.
(٢) سورة البقرة ٢٨.
(٣) الكشاف ٢١٩/١.

مـــن يكفرون به أمر بعيد بعد المحال[١] ؛ فالباعث على التعجب والإنكار هو الجملـــة الحالية (وكنتم أمواتا فأحياكم) ثم نفذ رحمه الله إلى السر فى إيثار أداة الاستفهام "كيف" ، وهى سؤال عن الحال فى حين يراد إنكار الذات ، ورآه مـــن باب الكناية لأن الحال تابعة للذات ، فإنكارها إنكار لذات الكفر بطريقة أبلغ.

وقـــد يجـــتمع التقرير والإنكار التوبيخى مع التعجب ، ولا حرج فى ذلـــك فـــإن الـــنكات البلاغية لا تتزاحم كما قيل ، قال تعالى خطابا لبني إســـرائيل : ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب﴾ قال الزمخشرى : (الهمزة للتقرير والتوبيخ والتعجب من حالهم)[١] ومعلوم أن التوبـــيخ إنكـــار مـــاهو واقع من أمرهم الناس بالبر وترك العمل بما يأمرون به وهو ما يدعو إلى التعجب ، وليس الإنكار والتعجب من أمرهم الـــناس بالـــبر فهـــذا أمر حسن ، وإنما مخط الإنكار والتعجب هو جملة ﴿وتنسون أنفسكم﴾ ومـــا تـــبعها مـــن التبكيت فى قوله : ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ ولا تفوتـــك نكـــتة التعبـــير بالأمر بدلا من النصح ، لتبدو لك صـــورتهم أكثر قبحا وفعلهم أشد عجبا ، حيث لا يكتفون بالنصح ، وإنما يذهبون إلى حد إلزام الناس بالخير - كما هو مفهوم الأمر - ، ثم التعبير فى المقابل بالنسيان بدلا من الترك ، وكأن فعل الخير لم يمر بخواطرهم ، فهناك مبالغة فى الإهمال وصلت حد النسيان.

---

(١) .

وفى قول المتنبى :

ابنـــت الدهـــر عندى كل بنت　　　كـــيف وصـــلت أنت من الزحام

توجـــيه السؤال إلى الحمى وهى مما لا يسأل قرينة على إرادة غير حقيقة السؤال ، وفى تمكنها من الوصول إليه مع وجود العوائق وكثرة ما تـــزاحم عليه من البلايا ما يدعو إلى التعجب من نفاذها إلى جسمه ، على الرغم من ازدحامه بالعلل التى لم تترك مكانا لزائر آخر .

٤-التنبيه على الضلال :

قـــال تعالى : ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون﴾.(١)

أقسم الله بظواهر الكائنات التى هى آيات على وجوده أن ما ينطق به الرســـول وحـــى صادق يتلقاه من رسول كريم ، وليس حديث شيطان ولا هوس مجنون ، فمن وصف الصادق الأمين بالجنون والكذب ليس إلا ضالا مـــنحرفا ســـائرا علـــى غـــير هدى ، لذلك التفت النظم الحكيم إلى هؤلاء الضـــالين ، وهتف في مسامعهم "فأين تذهبون" وفي إيثار صيغة الاستفهام لتنبـــيههم على ضلالهم عدة نكات ذكرها أصحاب المعانى ، منها ما أشار إلـــيه السيد الشريف بقوله : (وفى استعمال الاستفهام دون التصريح بكونه طريق ضلال مبالغتان ، إحداهما أن كونه طريق ضلال أمر واضح يكفى

---

(١) سورة التكوير ١٥ – ٢٦.

فــي العلــم به مجرد الالتفات إليه ، والثانية إيهام أن المخاطب أعلم بذلك الطــريق من المتكلم حيث يحتاج إلى السؤال عنه) [١] وزاد العصام نكتتين أخريين وهما : (المبالغة فى ضلالهم ، فقد استعمل فى الإخبار المؤكد عن الضــلال ، ووجهـه أن الاستفهام مبنى على التجاهل المبنى على أنه من كمال بعد هذا المذهب عن الاختيار لا يمكن العلم بأنه مذهبكم ، فيفيد الحكم بضــلالهم حكمــا مؤكــدا فى الغاية وفيه مع ذلك الاحتراز عن مواجهتهم بالتصريح بالضلال ، وهو أدخل فى النصح). [٢]

٥- التهديد والوعيد :

وضــابطه أن يتضمن الاستفهام إشارة إلى سوء العاقبة على قول أو فعــل تــريد من المخاطب ألا يقع فيه أو يقلع عنه ، ومثاله قوله تعالى : ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾[٣] فقــد هدد الله تعالى من كفر بما أنزل على محمــد عليه الصلاة والسلام بعاقبة كعاقبة سابقيهم من الكافرين الذين ترك الله آثــار هلاكهــم شــاهدة بما فعله الله بهم يرونها أينما تقلبوا فى جنبات الأرض ، وجاء هذا التهديد فى صورة الاستفهام التقريرى بالسير المترتب علــيه رؤية آثار الهالكين ليكون أبلغ فى الحث على التأمل فى مصائرهم وهم يشاهدون مصارع القوم ، ويراجعون أسباب الهلاك الكامنة فى الكفر بالله ، ويضع الله أمام أعينهم ما ينتظر أمثالهم (وللكافرين أمثالها).

---

(١) حاشية السيد الشريف على المطول ٢٣٥.
(٢) الأطول ١/٢٤٣.
(٣) سورة محمد ١٠.

ومثله قوله تعالى : ﴿ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين﴾ (١) ففـــي الاستفهام عن مصير الهالكين الذى يعلمه المخاطبون تهديد لهم بأنه سيلحقهم ما لحق الأولين لأنهم أتوا من الجرم ما أتوه ، وفى قـولـه ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ كما فى قوله فى الآية السابقة ﴿وللكافرين أمثالها﴾ ، تصريح بالمقصود من الاستفهام ، وهو تحذيرهم مما ينتظرهم إن هم استمروا على كفرهم وإجرامهم من سوء المصير.

لكـــن يجب أن تكون على ذكر من أن مثل هذا التهديد بالاستفهام لا يـــتأتى إلا إذا كـــان المخاطب عالما بما ضرب مثلا له ، حتى ينتقل من الســـؤال إلـــى الوعيد ، فإذا قلت لمن يسئ الأدب : ألم أؤدب فلانا ، تريد تهديـــده ، فلا بد أن يكون لديه علم بالتأديب ، وأنه كان بسبب سوء أدبه ، حتى يربط بين فعله وفعل من نزل به التأديب ، ويدرك أنك تهدده بمثله ، لذلك ترى القرآن فى هذا الضرب من الأساليب يصدره بما يدل على علم المخاطب بمضمون ما يسأل عنه ، مثل : "ألم يروا" "أفلم يسيروا" "ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم".

٦- التقرير :

جـــاء فى المعجم الوسيط : (قرر فلانا على الحق : جعله معترفا به مذعـــنا له ، وقـــررت عنده الخبر حتى استقر : ثبت بعد أن حققته له) (٢)

---

(١) سورة المرسلات ١٦ – ١٨.

(٢) المعجم الوسيط مادة قرر.

فالتقرير معنيان : أحدهما تحقيق الحكم وتثبيته والآخر حمل المخاطب على الإقرار بما يعلمه وإلجاؤه إليه.

فمـن الأول الاستفهام في قوله تعالى : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا﴾ (١) المقـرر هنا هو من ينكر البعث ، وهو لا يستطيع إنكار حقيقة أن الإنسان قد مضى عليه زمن طويل قبل أن يوجد ، وقد أريد بالسؤال تحقيق ما يعلمه المخاطبون وتثبيته ، ليقال لهم : إن الـذي أوجدهم بعد أن لم يكونوا لا يعجزه أن يبعثهم بعد موتهم ، ولذلك فسـرت "هل" هنا بمعنى "قد" التي تفيد التحقيق والتأكيد ، وإيراد الخبر في صـيغة الاسـتفهام حث للمخاطب على حالة هذا الأمر في نفسه والتحقيق مـنه، فيتأكد الحكم على أبلغ وجه ، وهذا نهج مسلوك في الذكر الحكيم ، فهـو لا يصـادر على عقل المخاطب ، ولا يحجر عليه ، وإنما يدفعه إلى التأمل والوصول إلى الحقيقة بنفسه ، وهناك نكتة أخرى في العدول إلى هل بدلا من "قد" وهي إظهار المسئول عنه في صورة الأمر الذي لا ينكره أحد لو سئل عنه ، وعلى غرار ذلك جاء قوله تعالى : ﴿والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ (٢) فلما أقسم الله تعالى بظواهر المخلوقات الدالة على ربوبيته ووحدانيته أتى بالاستفهام لـيؤكد بـه ذلك ، كما يقول المتكلم بعد ذكر الدليل : هل دل هذا على ما

---

(١) سورة الإنسان ١.

(٢) سورة الفجر ١ – ٥.

قلناه؟)[1] ومثل هذا الاستفهام لا يطلب به جواب من المقرر لأنه مما يسلم به ، ولا يخالف فيه.

والصـــورة الثانية وهي حمل المخاطب على الإقرار بما يعلم تتعدد فـــيها الأغـــراض ، فقد يراد من التقرير ترتيب حكم على جواب المقرر لـــيلزمه ويدمغه بحجته ، كما تراه فيما دار من حوار بين عمر وأبي بكر رضـــي الله عـــنهما يوم الحديبية على ما رواه ابن هشام : (وثب عمر بن الخطـــاب فأتى ابا بكر فقال : يا ابا بكر ، أليس برسول الله؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى، قال : أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟).[2]

فقـــد أراد عمـــر من تقرير ابى بكر أن يرتب عليه استنكاره لتسامح أصـــحاب الحـــق فى حقهم ، وتهاونهم فى الدفاع عنه أمام باطل عدوهم ، وكأنـــه يقول له : إذا كنا مؤمنين بأن هذا رسول الله ، وأننا المسلمون وهم المشـــركون ، فكـــيف نقـــبل الدنـــية فى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل؟.

ويستخدم التقرير للتسجيل على المخاطب تمهيدا لإنزال العقاب به ، فيكون فى جوابه إبراز لعدل الله واستحقاق المقرر لما ينزل به من العقاب، قـــال تعـــالى: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم

(١) حاشية الشهاب ٣٥٧/٨.
(٢) سيرة ابن هشام ٢٠٣/٣.

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ [١]

ففي إقرار الكافرين بمجئ الرسل المنذرين واعترافهم بكفرهم وتصريحهم باستحقاقهم العذاب إظهار لعدل الله تعالى ، وتسجيل على أنفسهم بأنهم كانوا هم الظالمين.

وقد يراد من التقرير توبيخ المقر على مخالفته لمقتضى ما أقر به كما نراه في قول فرعون لموسى : ﴿ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذن وأنا من الضالين﴾. [٢]

هدف فرعون من تذكير موسى بفضله عليه ، حيث تربى في حجره، ونعم برعايته إلى توبيخه فكيف يتمرد على من أحسن إليه ، ويخرج على سلطان نما في ظله؟!.

وقد يراد به الامتنان كقول الله تعالى خطابا لرسوله عليه السلام: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى﴾ [٣] وقوله جل شأنه : ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾ [٤] ففي تقرير الله تعالى رسوله بهذه النعم امتنان عليه ،

---

(١) سورة ٧١ – ٧٢.
(٢) سورة الشعراء ١٨ – ٢٠.
(٣) سورة الضحى ٦ – ٨.
(٤) سورة الإنشراح ١ – ٤.

وتذكير له بأن من أحسن عليه فيما مضى يحسن إليه فيما يستقبل ، حتى يطمئن إلى أن الله تعالى لن يتخلى عنه ، ويذهب عنه ما ألم به من الضيق والقلق ، لذلك جاء الاستفهام الأول عقب الإخبار عما أصاب الرسول من حزن لفتور الوحى ، وجاء عقب الإستفهام الثانى إخبار الله تعالى بأن العسر إلى زوال ، ولن يغلب عسر يسرين ﴿فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا﴾.

وقد يراد بالتقرير المبالغة فى المدح بإظهار المقرر به فى صورة المسلم الذى يقر به كل مسئول ، كقول جرير فى مدح عبد الملك ابن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

(أى أنتم خير من ركب المطايا ، فلذلك قال عبد الملك حين أنشده هذا البيت : نحن كذلك ، ولو قال جرير هذا على جهة الاستخبار لم يكن مدحا ، وكيف يكون هذا استفهاما وقد جعل الرواة لهذا البيت مكانا عليا ، حتى قال بعضهم : هو أمدح بيت). [1]

فالاستفهام هنا بمعنى الخبر كما يقول ابن الشجرى ، لكن إيراد الخبر فى صورة الاستفهام قصد به الشاعر كمال المدح ، لأنه يظهر هذا الخبر فى صورة ما يقر به كل أحد.

---

(١) أمالى ابن الشجرى ٤٠٥/١.

والتقرير في مثل هذه الأساليب التي يلي فيها الهمزة نفي تقرر بما دخله النفي لا بالنفي، ففي قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ تقرير بانشراح الصدر، لا تقرير بنفيه، لذلك قال البلاغيين: إن التقرير لا يجب أن يكون بالحكم الذي دخلت عليه الهمزة، بل بما يعرف المخاطب من ذلك الحكم[1] إثباتا كما في هذه الآية، ونفيا كما في قوله تعالى خطابا لعيسى عليه السلام ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾[2] فليس المراد تقرير عيسى عليه السلام بأنه قال ذلك وإنما أريد تقريره بما يعرفه من النفي، وهو الذي أقر به (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق).

وقد ذهب البعض إلى أن ما دخلت فيه الهمزة على النفي إنكار لا تقرير، لأن الإنكار نفي، ونفي النفي إثبات، وإخراجه على صورة الاستفهام الإنكاري مبالغة في الإثبات، لأن الإثبات بالإبطال كالدعوى ببينة، فيكون إنكار النفي مستلزما للإثبات بوجه أقوى.

إيلاء المقرر به الهمزة :

الاستفهام التقريري لا يختلف عن الاستفهام الحقيقي في كون المقرر به هو ما يلي الهمزة كما أن المسئول عنه بالهمزة هو ما يليها، فإذا أردت التقرير بالفعل قلت: أضربت زيدا، وإذا أردت تقريره بأنه الفاعل قلت :

---

(١) ينظر المطول ٢٣٧.

(٢) سورة المائدة ١١٦.

أأنــت ضربت زيدا؟ وإذا أردت تقريره بالمفعول قلت: أزيدا ضربت؟ وإذا أردت تقريــره بالحــال قلت : أمتعمدا ضربت زيدا؟ ، وهكذا في تقريره بالظــرف والمجرور وغيرهما ، لذلك جعل الشيخ عبد القاهر من التقرير بالفاعل قوله تعالى : ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾. (١)

(لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهــم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان ، وكيف وقد أشــاروا له بالفعل في قولهم : (أأنت فعلت هذا) وقال هو عليه السلام في الجــواب : (بل فعله كبيرهم هذا) ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب : (فعلت ، أو لم أفعل). (٢)

وعلــيه قوله تعالى : ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ (٣) ، فقد كان أتباع موسى يزعمون أنهم يتبعون أقوال عيسى ، وهم حين عبدوهما من دون الله لم يكن ذلك إلا تنفيذا لتعاليمه ، وفي تقرير الله له بأنه القائل تكذيب للنصارى الذين نسبوا إلــى النــبي الكــريم ما لم يقله ، كأنه قيل : أأنت الذي قلت هذا أم تقوله النصــارى ، وفي هذا تعريض بكذب النصارى فيما ادعوه ، وتقريع لهم ، فلو قيل : أقلت؟ لضاع هذا الغرض.

---

(١) سورة الأنبياء ٦٢.
(٢) دلائل الإعجاز ١١٣.
(٣) سورة المائدة ١١٦.

وقريب منه قوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا﴾ (١) فقد جاء تقرير المعبودين تبكيتا وتقريعاً للعابدين، وقدم ضمير المخاطبين على الفعل، دلالة على أن هناك ضلالاً قد حدث، وأن الفاعل متردد بين المعبودين والعابدين، فإذا نفى المعبودون وقوع إضلال منهم تعين أن يكون العابدون هم الذين أضلوا أنفسهم، يقول البيضاوى: "وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة، وأصله أأضللتم أم ضلوا، فغير النظم ليلى حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولى للفعل دونه، لأنه لا شبهة فيه، وإلا لما توجه العقاب). (٢)

٧- الإنكار:

من معانى الإنكار فى اللغة: الجحود، يقال: أنكر الشئ إذا جحده، ومن معانيه العيب والنهى، تقول: أنكر على فلان فعله إذا عابه ونهاه، وهذان المعنيان يرادان فى الاستفهام الإنكارى، لذلك جعل البلاغيون الإنكار ضربين، الأول الإنكار لأمر واقع أو على وشك الوقوع، فأنت تستنكر وقوعه وتوبخ صاحبه على إتيانه أو الهم به، وهذا هو الإنكار التوبيخى، وهو من أنكر عليه إذا نهاه، والثانى: إنكار لفعل لم يقع فأنت تنفى حدوثه، وتقطع بأنه لن يحدث، وذلك فى خطاب من يدعى وقوعه أو يطمع فى وقوعه، ويسمى إنكارا تكذيبيا، لأنك تكذب من يدعى وقوعه أو يتوقعه.

(١) سورة الفرقان ١٧ - ١٨.

(٢) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٤١٢/٦.

أولاً : الإنكار التوبيخي :

قـــال تعالى فيما حكاه عن موسى عليه السلام منكرا على الخضر : "حـــتى إذا لقـــيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا".(١)

فهـــو يـــنكر علـــيه بالاستفهام قتله نفسا بغير حق ، توبيخا على هذا الفعـــل، ولـــم يكن موسى عليه السلام يعلم ما علمه الخضر من ربه فحكم عليه بظاهر الحال.

وقـــال تعـــالى توبـــيخا للنصارى الذين عبدوا المسيح من دون الله ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم﴾ (٢) فهو إنكار لفعل واقع هو عبادة المسيح ، وتوبيخ لعابديه مـــن دون الله ، بعد ان بين لهم الآيات ، وأثبت لهم بشرية عيسى وأمه ، واحتـــياجهما إلى ما يحتاج إليه كل البشر من الاغتذاء والهضم ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾ (٣) ومنه قوله تعالى نعيا على المشركين : ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾ (٤) فهو إنكار توبيخ لمن يجعل لله تعالى شريكا عاجزا لا يقدر على خلق شئ بل إنه نفسه من خلق الله.

---

(١) سورة الكهف ٧٤.
(٢) سورة المائدة ٧٦.
(٣) سورة المائدة ٧٥.
(٤) سورة الأعراف ١٩١.

ومنه قول شوقى :

إلام الخلف بينكم؟ إلاما؟ وهذى الضجة الكبرى علاما؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما؟

ينكر شوقى على مواطنيه ما يجرى بينهم من خلاف لا تبدو له نهاية، فى الوقت الذى يعيش فيه المستعمر بأوطانهم ، ويوبخهم على التخاصم وكيد بعضهم لبعض ، وكان يجب أن يوجه هذا الكيد إلى نحور أعدائهم ، إن هذا ما كان ينبغى أن يحدث والعدو رابض على أرضهم.

قال عروة بن الورد :

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى علىّ شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة واحسو قراع الماء والماء بارد

يهاجم عروة من يهزأ به لشحوب جسمه وهزال بدنه ، فما كان ليضن على نفسه بما يسمنه ويظهره صحيح البدن فتيا ، مثل هؤلاء الذين يعيشون لأنفسهم فيأكلون ويمرحون لو كان يريد أن يعيش لنفسه ، وإنما هو حب الإيثار الذى جعله يقدم طعامه لكل ذى مسغبة ، وإن بات جائعا ، ويحسو للظامئين قراع الماء ، وإن بقى هو ظامئا ، رجل هذا حاله ما كان ينبغى أن يهزأ به هذا الذى آثر ذاته فأكل وشرب وسمن.

ومن الإنكار التوبيخى لفعل همَّ به المخاطب ، ما جاء فى قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم

وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم﴾ [١]
حيث ينكر المؤمن على فرعون وقومه عزمهم على قتل موسى لمجرد أنه يدعو إلى الله تعالى ، ويقدم بين يدى دعوته من الآيات ما يستوجب الإيمان بهـا ، فـإن لم يؤمنوا فلا أقل من تركه وشأنه ، وقد قلت: إنه إنكار لفعل متوقع ، لأن المؤمن قال ذلك ردا على تهديد فرعون كما حكاه القرآن : ﴿وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم او أن يظهر فى الأرض الفساد﴾. [٢]

ولما كان الإنكار مآله النفى ، فإن النفى فى الإنكار التوبيخى منصب على الانبغاء ، فهو فى الماضى والحال بتقدير ما كان ينبغى ، وفى إنكار المستقبل ، لا ينـبغى أن يكون ، فالمعنى فى مثل قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : (أتعبدون ما تنحتون) ما كان ينبغى أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم وتنحتونه بالآلهة ، وهو فى قول المؤمن (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) لا ينبغى أن تقتلوه.

ثانيا : الإنكار التكذيبى :

قال تعالى ردا على ما زعمه المشركون من أن الملائكة بنات الله ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما﴾ [٣] فالإنكار هنا تكذيب لما ادعوه ، وتسفيه لعقولهم ، فكيف يختص

(١) سورة غافر ٢٨.
(٢) سورة غافر ٢٦.
(٣) سورة الصافات ٩٥.

الله تعالى نفسه بأخس النوعين – طبقا لأعرافهم – ويصفى المخلوقين بأرفعهما وهو الخالق ، إن هذا لم يكن، هذا مثال الإنكار فى الماضى.

ومثال إنكار المستقبل إنكارا تكذيبيا ما حكاه الله تعالى على لسان إبليس اللعين حين دعى إلى السجود لآدم : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا﴾ [١] فالاستفهام هنا خرج مخرج الإنكار التكذيبى بمعنى أنه لن يكون منى سجود لمن هو أدنى منى منزلة بحكم أصل خلقه ، وما درى اللعين أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

قال أبو العلاء المعرى :

وهونت الخطوب على حتى ... كأنى صرت أمنحها الودادا

أأنكرها ومنبتها فؤادى ... وكيف تنكر الأرض القتادا

هذه الخطوب التى صحبت الشاعر ، ونبتت فى فؤاده حتى صارت قطعة منه كيف يتنكر لصحبتها ويخون ودها؟ إن هذا لن يكون أبداً.

وكما قلنا: إن المقرر به هو الذى يلى الهمزة كذلك نقول هنا: إن المنكر هو الذى يلى الهمزة ، ففى قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشر فى مضاجعى ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(١) سورة الإسراء ٤٠.

تكذيب لمن هدده بالقتل ، وإنكار أن يقدر على ذلك ، كيف وقد أعد من أدوات الدفاع عن النفس ما يحول بين المدعى وتنفيذ ما هدد به؟ إن هذا لن يكون.

فقد ولى الهمزة فعل القتل ، لأنه هو الذى ينكره ، وليس بمنكر أن يقع القتل ممن هدده بدليل أنه ذكر ما يمنع من القتل.

ومنه قوله تعالى إنكارا للفعل ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ [1] فليس يمكن أن يقع من بشر اتاه الله الحكم والنبوة أن يأمر بالكفر قوما أسلموا ، فالتكذيب واقع على الفعل وهو الأمر ، لذلك ولى الهمزة.

ولما كان الإنكار موجها إلى الفاعل ، لا إلى الفعل قدم الفاعل ليلى أداة الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ ففى تسليط الهمزة على ضمير المخاطب إنكار أن يكون هو الذى يكره الناس على الإيمان ، فليس لأحد غير الله تعالى قدرة على تقليب القلوب وتحويلها من الكفر إلى الإيمان ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ [2] وهذا أحد وجوه ذكرها الألوسى فى بيان سر تقديم الفاعل ، قال : (إن التقديم للتخصيص ، ففيه إيذان بان الإكراه أمر ممكن ، لكن الشأن فى المكره من هو؟ وما هو إلا سبحانه وحده ، لا يشارك فيه ، لأنه جل شأنه القادر على

---

(١) سورة آل عمران ٨٠.
(٢) سورة القصص ٥٦.

أن يفعل فـي قلوبهـم مـا يضطرهم إلى الإيمان ، وذلك غير مستطاع للبشر).[1]

وعلى غراره من إنكار الفاعل قوله تعالى على لسان الكافرين تكذيبا للمرسـلين : ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد﴾[2] فقد استعظم الكافرون أن يكون البشر هم الذين يتولون هدايتهم ، فهم من جنسهم ، وليسوا بأحق منهم فـيما ادعـوه من فضل ، فلو كان الهادون من الملائكة مثلا ما استنكروا هدايتهم ، المهم أن الإنكار ليس واقعا على الهداية ، وإنما هو إنكار للهادى أن يكون بشرا.

وإذا أريد إنكار المفعول قدم ليلى الهمزة ، كما فى قوله تعالى :﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم﴾[3] فالإنكار موجه إلى المفعول وهو غير الله؟ أما اتخاذ الولى فلا إنكار فيه إذا كـان الولـى هـو الله ، وهو الذى أمره أن يقوله:﴿إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾[4] ففى تقديم المفعول ليقع عليه الإنكار من البلاغة ما لا يتحقق بتقديم الفعل (وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك: ((أيكـون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلـك؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ، ولا يكون شئ من ذلك

(١) روح المعانى ١١/١٩٤.
(٢) .
(٣) سورة الأنعام ١٤.
(٤) سورة الأعراف ١٩٦.

إذا قيل : أتتخذ غير الله وليا ، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك).[١]

ومــن إنكار المجرور قوله تعالى : ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون﴾ [٢] فلمــا كــان الإنكار متوجها إلى الباطل وهو متعلق بالفعل قدم على ما تعلق به ، لأن الإيمان من حيث هو غير منكر ، وإنما المنكر هو أن يتعلق بالباطل ، لذلك قدم المجرور لينصب عليه الإنكار.

ومن إنكار الظرف قول الله تعالى ردا على فرعون حين أعلن إيمانه بعــد أن أدركــه الغــرق ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ [٣] والمعــنى أفي هذا الوقت خصوصا تؤمن ، وقد كنت متمردا عاصيا مفسدا مــن قبل ، فالإيمان ليس هو المنكر ، بدليل أنه لو وقع منه وقت أن دعي إلــيه لقــبله الله وباركه ، وإنما المنكر هو الوقت الذي وقع فيه الإيمان ، وحصــوله بعــد فــوات أوانه ، ومثله قوله تعالى ردا على من استعجلوا العــذاب فلمــا حــل بهم آمنوا به ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون﴾. [٤]

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢٢.
(٢) سورة النحل رقم ٧٢.
(٣) سورة يونس ٩١.
(٤) سورة يونس ٥١.

٨- التهكم والتحقير :

التهكم : الاستخفاف والاستهزاء ، والتحقير : عد الشئ حقيرا ، وقد جعلهما البلاغيون غرضين منفصلين ، وفرقوا بينهما بأن : (التحقير فيه إظهار حقارة المخاطب ، وإظهار اعتقاد صغره ، أو قلته ، ولذلك يصح فى غير العاقل ، كما يقال : ما هذا الشئ ، أى هو شئ حقير قليل ، والاستهزاء فيه إظهار عدم المبالاة بالمستهزأ به ولو كان عظيما فى نفسه). (١)

وقد مثلوا للتهكم بقوله تعالى حكاية عن قوم شعيب ساخرين بنبيهم عليه السلام : ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ (٢) فقد ضمنوا الاستفهام سخريتهم بصلاته وما يدعوهم إليه من ترك عبادة غير الله والحجر على تصرفهم فى أموالهم بما يمنعهم عن التطفيف والبخس ، وهذه الروح التهكمية بادية فى نسبة الصلاة إليه ، وفى إسناد الأمر إلى الصلاة ﴿أصلاتك تأمرك﴾ مع أن الآمر هو الله لا الصلاة ، وفيما وصفوه به تهكما ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾.

ومنه قول الله تعالى على لسان المشركين يهزأون برسول الله : ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم﴾ (٣) فجملة (أهذا الذى يذكر آلهتكم) بيان لاتخاذهم إياه هزوا ، والاستفهام فيها

(١) ينظر مواهب الفتاح ٢/٣٠٣.
(٢) سورة هود ٨٧.
(٣) سورة الأنبياء ٣٦.

للتهكم ، ومثله قوله تعالى : ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا﴾ (١) ، فقــد ذهب المفسرون إلى أن جملة (أهذا الذي بعث الله رسولا) مقول لقول مضمر وهى في موضع الحال من فاعل يتخذونك ، أو مستأنفة فى جواب ماذا يقولون؟ وعلى كلا القولين هى بيان لاستهزائهم، وقد أضافوا إلى الاستهزاء بالاستفهام الاستحقار باسم الإشارة ، وهذا يدلك على أن التهكم والتحقير قد يتخذ محلهما وإن تغاير مفهومهما على حد قول ابــن يعقوب(٢) ، وقد تراهما مجتمعين فى قوله تعالى : (وقال الذين كفروا هــل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد) (٣) فالسخرية بالاستفهام يعضدها الاستحقار فى تنكير "رجل" واستبعادهم لفكرة البعث بعد تمزق الأشلاء.

ويبدو التحقير واضحا في الاستفهامات التى ساقها المتنبى فى هجاء كافور :

من أية الطرق يأتى مثلك الكرم   أين المحاجم يا كافور والجلم؟

إلى أن يقول :

من علم الأسود المخصى مكرمة؟   أقومــه البيض أم آباؤه الصيد؟

أم أذنــه فـــى يد النخاس دامية؟   أم قــدره وهو بالفلسين مردود؟

---

(١) سورة الفرقان ٤١.

(٢) مواهب الفتاح ٣٠٤/٢.

(٣) سورة سبأ ٧.

٩- التهويل :

هو تفخيم المستفهم عنه وتفظيعه لينشأ عنه غرض من الأغراض ومثاله قوله تعالى تهويلا من شأن القيامة وما يقع فيها من العذاب :
﴿القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهية نار حامية﴾.(١)

(لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة "القارعة" بلا خبر ولا صفة ، لتلقى بظلها وجرسها الإيحاء المدوى المرهوب ، ثم أعقبها سؤال التهويل : "ما القارعة؟" .. فهى الأمر المستهول الغامض الذى يثير الدهش والتساؤل : ثم أجاب بسؤال التجهيل : "وما أدراك ما القارعة؟" فهى أكبر من أن يحيط بها الإدراك وأن يلم بها التصور). (٢)

ثم أعاد السؤال بصيغة التجهيل والتهويل فى بيان مصير من خفت موازينه "وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه" إنها شئ لا يقادر قدره ولا يتصور كنهه.

وهكذا تجد هذا الضرب من الاستفهام فى كل ما يعظم أمره ويعز على العقل تصوره وإدراكه ، تحذيرا من هوله وشدته ، كما فى هذه

---

(١) سورة القارعة ١ - ١١.
(٢) فى ظلال القرآن ٦/١٩٦٠.

السورة وأمثالها من قوله تعالى: ﴿الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة﴾ (١) وقوله ﴿وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ (٢) أو تنبيها على عظم شأن المستفهم عنه ودلالته على قدرة خالقه ، كما في قوله تعالى: ﴿والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب﴾ (٣) ففي الاستفهام ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ تهويل من شأن نجوم السماء الثاقبة المبددة لظلمة الليل ، إنها أمر وراء الإدراك ، وسيظل شأنها مجهولا غائبا مهما بدا للإنسان أنه فك رموزها ، ومزق أستارها.

كما يأتي هذا التهويل بالاستفهام تعظيما لمنازل الأبرار ، وحثا على التسابق في نيلها : ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ (٤) فقد جاء الاستفهام ﴿ما أصحاب اليمين﴾ تفخيما لدرجتهم وعظم منزلتهم عند الله تعالى ، وكأن ما ذكره الله من ألوان النعيم التي خصهم بها ليس إلا نماذج لتكريمهم ، وما أخفاه الله تعالى عنا أعظم مما تدركه عقولنا.

ولعل شوقي رحمه الله قد أفصح عن عظمة النيل ، وكشف عن أسراره بهذه الأسئلة الغامضة ، ووقفنا على منزلته في نفوس المصريين

---

(١) سورة الحاقة ١ – ٣.

(٢) سورة الانفطار ١٧ – ١٨.

(٣) سورة الطارق ١ – ٣.

(٤) سورة الوقعة ٢٧ – ٣٣.

بهـذه الاستفهامات التى جسدت عجز العقول عن إدراك سر نشأته ومنبع فيضـه وقدرته على نسج حلل الجمال على ضفتيه ، أنه أبان حين أبهم ، وأفصح حين أعجم :

مـن أى عهـد فى القرى تتدفق	وبـأى كـف فـى المدائن تغدق؟
ومن السماء نزلت أم فجرت من	علـيا الجـنان جـدا ولا تترقرق؟
وبـأى يمـن أم بأيـة مـزنة	أم أى طوفـان تفـيض وتفهـق؟
وبـأى نـول أنـت ناسـج بردة	للضـفتين جديدهـا لا يخلـق؟

١٠- الأمر :

كثيرا ما يعرض المتكلم عن صيغة الأمر تلطفا فى الطلب ، أو تجنبا لإظهـار المخاطـب فى صورة المأمور حتى لا يستثير عناده ويدفعه إلى التمرد والعصيان ، أو تأدبا فى الخطاب ، أو إعذارا إلى المخاطب أنه قد بذل طاقته فى الاحتجاج والاستدلال وعليه أن يأخذ لنفسه ما يراه مقنعا له، دون أن يلـزمه برأيه ، وفى كل ذلك يمده الاستفهام بما يحقق غرضه من طلـب ما يريد دون تصريح بصيغة الطلب على سبيل الإلزام المتمثلة فى الأمر ، مثال ذلك ما أمر الله تعالى به رسوله أن يخاطب أهل الكتاب بعد أن أبـان لهم حقيقة الدين وأسباب اختلاف أهل الكتاب : ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾. [1]

(١) سورة آل عمران ٢٠.

فــإن قوله ﴿أسلمت وجهي لله﴾ ردا على محاجتهم فيه قطع للجدل ، وإعــراض عــن الاستمرار فيه ، بعد أن استبان الأمر ووضحت الحجة ، فجــاء الاستفهام "أأسلمتم" متضمنا معنى الأمر دون التصريح به ، إنصافا للخصــم ، وتعويــلا على أنه لو أنصف نفسه لما وجد طريقا آخر للنجاة سـوى الإســلام ، ومــثله قوله تعالى : ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[1] فــبعد أن ذكــر الأســباب الصارفة عن الخمر والميسر المستوجبة الانتهاء عن مزاولتهما جاء الاستفهام "فهل أنتم منتهون" متضمنا معنى الأمر ، معرضا عن صيغته ، لأن العاقل ليس له بعد أن وقف على مضارهما إلا أن ينتهي عنهما ، وفي ذلك احترام للعقل بعد طريقة الإسلام في استنفار طاقات الإدراك ، ليفعل المرء ما يفعل ، أو يترك ما يترك عن قناعة ، لا عن إكراه ، قال الزمخشري : (يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يوجــب الإســلام ويقتضي حصوله لا محالة؟ فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفــركم ، وهذا كقولك لمن لخصت له المسالة ، ولم تبق من طرق البيان والكشــف طريقا إلا سلكته : هل فهمتها لا أم لك؟ ومنه قوله عز وعلا : ﴿فهل أنتم منتهون﴾ بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر ، وفي هذا استقصار وتعبير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تليت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق)[2].

---

(١) سورة المائدة ٩١ .

(٢) الكشاف جـ١ ٣٦٢.

١١- العتاب:

هو صورة من صور التلطف في الإنكار حين يكون المخاطب قد أتى فعـــلا غـــير مرغوب فيه ، وكان له من الأسباب ما يعذر معها لإتيانه ، ومثاله قول الله تعالى خطابا لنبيه الكريم حين أذن لبعض المنافقين بالتخلف عـــن غزوة تبوك : ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ [١] (ألقى إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة إيماء إلـــى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله ورجا منه الصلاح على الجملة بحيث يسأل عن مثله في استعمال السؤال من سائل يطلب العلم ، وهذا من صيغ الـــتلطف فـــي الإنكار أو اللوم ، بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه ، ثم أعقبه بأن ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم). [٢]

وقريـــب مـــن ذلك صيغة الاستفهام التي وردت في عتاب الله لنبيه علـــيه السلام حين تشاغل عن ابن أم مكتوم بصناديد قريش ودعوتهم إلى الإســـلام رجاء أن يسلموا معهم كثيرون: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ [٣] ففـــي قولـــه تعالى: ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ استفهام خرج مخرج العتاب واللوم على تشاغله عمن ســـعى للـــتعلم والمعرفة ، وهو ضرب من التلطف في الإنكار ، لعلم الله تعـــالى أن رســـوله كان مدفوعا بالحرص على نشر الدعوة ، وقد بدا هذا التلطف واضحا في الغيبة والخطاب ، حيث أسند الأفعال (عبس ، تولى ،

(١) سورة التوبة ٤٣.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٧/٢١٠.

(٣) سورة عبس ١ -٤.

جـــاءه) إلى الغائب لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره ، إجلالا له ص أن يصدر عنه مثله ، ثم انتقل إلى خطابه بالاستفهام إيناسا بعد الإيحاش وإقبالا بعـــد إعـــراض[1] ، لذلـــك كان حريا بنا أن نسمى هذا الاستفهام عتابا لا إنكارا، على حد تعبير النبى ص حيث كان يقول حين يرى ابن أم مكتوم : (مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى).

١٣- التحسر :

كثـــيرا مـــا يضمن السائل صيغة الاستفهام إحساسه بالحسرة والندم لعجزه عن تغيير واقعه ، كما نراه فى قوله تعالى على لسان قابيل بعد أن قـــتل أخاه ، وعجز عن مواراته التراب : ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[2] فإن تعجبه من عجـــزه عـــن مواراة أخيه حتى أصبح دون الغراب قدرة ومعرفة تضمن حســـرته وندمـــه على ما فعل بأخيه ، كما يفصح عنه قوله فى تذييل الآية ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ ، ونداؤه ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ وهى كلمة جزع وتحسر.

وهـــذا أبـــو تمـــام يشـــك مشاعر الحسرة والاسى فى رثائه بصيغة الاستفهام :

أمـــن بعـــد طى الحادثات محمدا ... يكـــون لأثـــواب الـــندى ابدا نشر؟

إذا شجرات العرف جذت أصولها ... ففـــى اى فرع يوجد الورق النضر؟

---

(١) ينظر حاشية الشهاب ٨/٣٢٠.

(٢) سورة المائدة ٣١ .

كمـــا أدمى قلوبنا بتفجعه وتحسره فى بكائيته أبو البقاء صالح الرندى مؤثرا أساليب الاستفهام فى إبراز أساه وحسرته على ضياع الأندلس :

يـــا راكبين ظهور الخيل ضامرة	**كأنهـــا فـــى مجـــال الجـــو عقبان**
وحاملـيــن ســـيوف الهند مرهفة	**كأنهـــا فـــى ظـــلام الليــل نـــيران**
أعـــندكم نـــبأ عـــن أهل أندلس	**فقــد ســـرى بحديث القوم ركبان؟**
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	**قـــتلى واســـرى فما يهتز إنسان؟**
لـــم الـــتقاطع فـــى الإسلام بينكم	**وأنـــتم يـــا عـــباد الله إخـــوان؟**
ألا نفـــوس أبـــيات لهـــا همـــم؟	**أمـــا علـــى الخير أنصار وأعوان؟**

وكما نجده فى أندلسية شوقى باكيا غربته متحسرا لفراق وطنه :

يـــا نـــائح الطلـــح أشباه عوادينا	**نشـــجى لواديـــك ام نأسى لوادينا؟**
مـــاذا تقـــص علينـــا غير أن يدا	**قصـــت جناحك جالت فى حواشينا؟**

وبعد فإن أغراض الإستفهام متعددة بتعدد أغراض الناس ، ولا سبيل إلـــى حصرها ، والمعول فى إدراكها والوقوف عليها هو الذوق ، والقدرة على التقاط الإشارات التى يدسها المتكلم فى أطواء النص ، وما ذكرناه هو بعـــض المعـــانى التي يخرج إليها الاستفهام ، وفى بعض كتب القوم معان أخـــر ، ليس هدفنا استقصائها ، وحسبنا أن دللنا عليها ، وربما يجتمع فى الاستفهام عدة أغراض ، وقديما قيل النكات البلاغية لا تتزاحم.

أدوات الاستفهام بين الحقيقة والمجاز:

اختلفت آراء البلاغيين فى هذه الأدوات حين تستعمل فى غير الاستفهام ، والسبب فى هذا الخلاف أن السكاكى رحمه الله جاء كلامه مبهما حين قال : (واعلم أن هذه الكلمات كثيرا ما يتولد منها أمثال ما سبق من المعانى بمعونة قرائن الأحوال).[1]

ففهم البعض أن الاستفهام مستعمل فى حقيقته ، والمعنى المراد متولد عنه ، وهو من مستتبعات التراكيب ، قال عصام الدين زاده فى شرح الفوائد : (بل الاستفهام مستعمل فى حقيقته ، ولما لم يناسب المقام يفهم منه معنى مناسب له من غير استعماله فيه ، ألا ترى أنه لو استعمل اللفظ فيه لم يصح جعله متولدا من الاستفهام ، إذ التولد يقتضى وجود معنيين ، وفى المجاز ينصب قرينة على عدم إرادة المعنى الحقيقى ، وكم بينهما).[2]

ويرى السعد أن استعمالها فى غير الاستفهام مجاز ، لكن تحقيق كيفية هذا المجاز وبيان من أى نوع هو مما لم يحم حوله أحد.[3]

وهناك من يرى أن الكلمات مستعملة فى معانيها الحقيقية ، والتجوز فى التركيب على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وقيل إن التجوز فى كلمات الاستفهام ، واختلف هل التجوز فيها أصالة على سبيل المجاز المرسل أو فى متعلقاتها أصالة وفيها تبعا كما فى استعارة الحروف[4] ، ثم إن القائلين

---

(١) المفتاح ١٧٥.

(٢) شرح الفوائد الغيائية ١٧٧.

(٣) ينظر المطول ٢٣٥.

(٤) ينظر الأطول للعصام ٢٤٢/١.

بالمجاز المرسل يختلفون فى تحديد العلاقة ، فيراها البعض لزومية فى كل المعــانى المتجوز بها[1] ، ويذكر آخرون علاقات أخرى غير اللزومية فى بعض المواضع. [2]

ويرى الدسوقى إمكان جعل هذه المعانى من باب الكناية ، قال تعليقا على إفادة معنى التهديد والوعيد فى قولك لمن يسئ الأدب : ألم أؤدب فلانا : (والعلاقة بين الاستفهام والوعيد اللزوم ، فإن الاستفهام ينبه المخاطب على جزاء إساءة الأدب ، وهذا يستلزم وعيده ؛ لاتصافه بإساءة الأدب فهو مجاز مرسل لا من استعمال اسم الملزوم فى اللازم ، ولك أن تجعل الكلام مــن قبــيل الكــناية بأن تجعل اللفظ مستعملا فى الاستفهام لينتقل منه إلى الوعــيد أو مســتعملا فيهما على أن يكون الوعيد من مستتبعات الكلام[3] وكثيرا ما يرجح الكناية أو كونه من مستتبعات التراكيب.

ونحن أمام هذه الآراء المختلفة وتكلف تفسير المجاز وتحديد العلاقة فى كل معنى من المعانى التى أريد بها غير الاستفهام لا نملك إلا أن نميل إلــى القــول بأن هذه المعانى المتولدة هى من مستتبعات التراكيب ، وهذا وحــده هــو الــذى يناسب دراستها فى علم المعانى ، وإلا كان درس هذا المجــاز فــى علــم البيان هو الأجدر به ، وأحسب أن هذا هو الذى أراده صاحب المفتاح.

---

(١) ينظر مواهب الفتاح ٢/٢٩١ وما بعدها.

(٢) ينظر حاشية الدسوقى ٢/٢٩٠.

(٣) حاشية الدسوقى ٢/٢٩٣.

ثالثاً : الأمر

هــو طلــب الفعل على وجه الاستعلاء ، وذلك يستلزم أن يعد الأمر نفسه عاليا على المأمور ، بأن يكون كلامه واردا على جهة القوة والغلظة، لا علــى وجــه التواضع ، سواء كان عاليا في نفسه أو مدعيا العلو ، ولا مانع أن يصدر الأمر بهذا الوصف من المساوى أو من الأدنى على سبيل الإدعــاء ، ودعاوى النفس أكثر من أن تحصى على حد تعبير ابن يعقوب المغــربى[1] فــإذا قال أحد الرعية للحاكم : أحكم بما أنزل الله ، مستعليا بصوت الحق فإن هذا يعد أمرا ، وإن كان الآمر أدنى رتبة من المأمور ، لأن مــناط الأمــرية فى الطلب هو الاستعلاء ، ولو من الأدنى وعليه فإن السيد إذا وجه صيغة الأمر إلى عبده على وجه التضرع والخضوع لم يعد ذلك من حقيقة الأمر ، وإنما هو مجاز فى الدعاء.

وللأمــر صــيغ متعددة ، فقد يدل عليه بفعل الأمر ، كقوله تعالى : ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ [2] ويــأتى مدلــولا علــيه بلام الأمر ، كقوله تعالى : ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ [3] ، ويعــبر عنه بالمصدر النائب عن فعلــه ، كما فى قوله تعالى : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ [4] ويأتى بصيغة اسم الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾. [5]

---

(١) انظر مواهب الفتاح ٣٢١/٢

(٢) سورة البقرة ٢٣٨.

(٣) سورة الطلاق ٧.

(٤) سورة الإسراء ٢٣.

(٥) سورة المائدة ١٠٥.

هــذه هى صور الأمر ، فإذا جاءت إحدى هذه الصور ، وكان الآمر مستعليا على المأمور حقيقة أو ادعاء ، كان الأمر على حقيقته ، وإذا دلت القرائـن علـى استعمال إحدى هذه الصيغ فى طلب الفعل على غير وجه الاستعلاء كانت مجازا فيما استعملت فيه.

ونــريد أن ننبه قبل الدخول فى الحديث عن المعانى المجازية لصيغ الأمر أو المعانى المتولدة عنها إلى أن هذه الصيغ حين تستعمل فى حقيقة الأمر لا تتساوى فى استخداماتها ولا فى قوة الأمر بها ، فالأمر بالمصدر أوكــد من الأمر بالفعل ، ولذلك جاءت هذه الصيغة متكررة فى القرآن عند الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، تنبيها على طلبه من الله طلبا مؤكدا ، وفى كــل مــرة يقــدم متعلق الأمر على الأمر زيادة فى التأكيد ، كما فى قوله تعــالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾ [1] والأمر بــاللام الداخلة على المضارع يدل على الطلب المتجدد المستمر ، كما فى قوله تعالى فى الأمر بالإنفاق على الأزواج ، مؤكدا على الاستمرار "لينفق ذو سعة من سعته" فآثر المضارع المسبوق بلام الأمر ، لدلالته على التجدد والاستمرار.

كمــا أن الأمــر قد يخرج فى صيغة الخبر ، وحينئذ يكون أبلغ من صــيغة الأمر ، لأن الخبر مستعمل فى غير معناه ، لعلاقة مشابهة الأمر الموثــوق بامتــثاله بالشــئ الحاصل حتى إنه يخبر عنه ، ومثاله أمر الله

(١) سورة الإسراء ٢٣.

المطلقـــات بالتربص في قوله تعالى : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ (١) قـــال الزمخشرى (فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلــت : هو خبر فى معنى الأمر ، وأصل الكلام : وليتربص المطلقات ، وإخـــراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يـــتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عـــنه موجودا ، ونحوه قولهم فى الدعاء : رحمك الله ، أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة ، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها). (٢)

ونـنــبه أيضاً أن دلالات هذه الصيغ على حقيقة الأمر أو على مجازه إنمـــا تكتســـبها من السياق وقرائن الأحوال ، وإلا فإن الفعل مقطوعا عن سياقه يكون صالحا لإرادة الحقيقة ، وإرادة اى من المعانى المجازية التى تخرج إليها صيغة الأمر ، وإليك مثالا لفعل الأمر "اعمل" فقد ورد فى قوله تعـــالى : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (٣) دالا على حقيقته من الطلب على وجه الإلزام ، وجاء فى قوله تعالى : ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (٤) دالا على التهديد والوعيد.

وفى قوله عليه السلام فيما رواه البخارى : (لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم) دل الفعل عينه على

---

(١) سورة البقرة ٢٢٨.
(٢) الكشاف ١/٣٦٥
(٣) سورة التوبة ١٠٥.
(٤) سورة فصلت ٤٠.

التشـــريف والـــتكريم ، وبذلـــك صرح ابن حجر العسقلاني فيما نقله عنه القرطبي ، فقال : (وقد ظهر لي أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف ، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة). [١]

فقوله تعالى تعقيبا للأمر في الآية ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ هو الذي خلع معـــنى التهديد على الفعل ، وقوله ﴿فقد غفرت لكم﴾ في الحديث الشريف هو الذي دل على كمال الرضا والتشريف.

المعاني المتولدة عن الأمر :

الإباحة :

وذلك إذا استعملت صيغة الأمر في مقام يتوهم فيه السامع حظر شيئ عليـــه ، فـــيؤذن لـــه بالفعل دون إلزامه به ، ومثاله قوله تعالى : ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾. [٢]

كـــان المسلـــم فـــي ابتداء الإسلام إذا أفطر يحل له الأكل والشرب والجمـــاع إلـــى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجد المسلمون من

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/٥١٥.

(٢) سورة البقرة ١٨٧ .

ذلك مشقة كبيرة[1] فكان من رحمة الله تعالى ان أباح لهم في هذه الآية ما كان محظورا عليهم ، وأحل لهم مباشرة النساء والأكل والشرب إلى طلوع الفجر ، فالأوامر "باشروهن" و "كلوا" و "اشربوا" خرجت عن حقيقة الأمر من الإيجاب إلى الإباحة ، وهو عند كثير من البلاغيين مجاز مرسل بعلاقة الخصـــوص والعموم ، لأن صيغة الأمر موضوعة للمأذون فيه المطلوب طلـــبا جازمـــا ، فاستعملت في المأذون فيه من غير قيد بطلب ، فهو من استعمال الأخص في الأعم.[2]

ويرى آخرون أنه من المعاني المتولدة عن الأمر ، فهو مستعمل في أصـــل المعـــنى ، والمعنى المراد مفهوم من جانب اللفظ ويسمى ذلك من خواص التراكيب ولعل هذا هو الأقرب إلى مذهب السكاكي ، وما قيل هنا يقال في جميع المعاني التي خرج غليها الأمر ومنه قول كثير عزة :

اسيئي بنا أو أحسني لا ملومة   لديـــنا ولا مقلـــية عـــن تقلـــت

فقـــد استبد به الحب ، وبلغ إلى حد التفاني فيه ، حتى إنه ليتلذذ بكل فعل يصدر من المحبوب إحسانا أو إساءة ، فهو راض كل الرضا ، مبيح لمن يهوى أن يفعل به ما يشاء.

وفـــي مـــثل هـــذا الضـــرب الذي يعطف فيه بأو ، وقع خلاف بين البلاغييـــن والنحاة ، فعند البلاغيين أفيدت الإباحة من صيغة الأمر و "أو" قريـــنة علـــى ذلـــك ، وعند النحاة أن الإباحة مفادة من "أو" لا من صيغة

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٢٢/١.

(٢) ينظر مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ٣١٣/٢.

الأمـــر، وحـــاول الـــبعض التوفيق بين المذهبين ، فرأى أن المستفاد من الصـــيغة مطلـــق الإذن ، والمســـتفاد مـــن "أو" الإذن فى أحدا الشيئين أو الأشـــياء، ومـــا وراء ذلـــك مـــن جـــواز الجمع بينهما وامتناعه إنما هو بالقرائن.(١)

ومـــا يجـــب أن يكون موطن اهتمام البلاغيين فى صيغة الأمر حين يـــراد بها الإباحة ، هو النكتة من إخراج المباح فى صورة المأمور به وهو فـــى الآية الكريمة السابقة الإشارة إلى أن الله يحب أن تؤتى رخصة ، كما يحـــب أن تؤتـــى عزائمه ، فأخرج المباح فى صورة الموجب حتى يغلق الـــباب على المتنطعين الذين يرون كمال العبادة فى أخذ أنفسهم بالشدائد ، ولذلـــك نهى الرسول ﷺ المسلمين عن مواصلة الصيام ، ودعا إلى تعجيل الفطـــر وتأخير السحور، وهو ما صرح به القرآن الحكيم ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾(٢) أما فى بيت كثير فهو إيهام أن الإساءة أمر مرغوب فيه محبب إليه ، ولذلك قدمت الإساءة على الإحسان ، ليدل على كمال الرضا ، فى مقام التدله.

(١) ينظر مواهب الفتاح وحاشية الدسوقى ٢/٣١٥.
(٢) سورة البقرة ١٨٥.

التهديد :

تستعمل صيغة الأمر للتهديد فى مقام عدم الرضا بالمأمور ، فيكون الأمر بشئ لا يرغب فيه الآمر توعدا للمأمور بعقابه على ذلك الفعل ، من ذلك ما جاء فى الحوار الذي دار بين الله واللعين إبليس : ﴿قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ [1] فما أمر به إبليس من الاستفزاز والإجلاب والمشاركة والوعد فى مقام عدم الرضا من الله تعالى ليس إلا استدراجا ووعيدا بدليل قوله : ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا﴾.

ومنه قوله تعالى : ﴿إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ [2] ففى قوله ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ وما فيه من التهديد بالمجازاة والعقاب قرينة على أن الأمر بعمل ما يشاءون ليس على حقيقته ، وإنما هو وعيد للملحدين.

وقد يكون الوعيد مجملا كما فى هذه الآية ، وقد يكون مفصلا وصريحا كما فى قوله تعالى : ﴿وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل

---

(١) سورة الإسراء ٦٢ - ٦٤.

(٢) سورة فصلت ٤٠.

تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ [1] حيث عقب الأمر بالتمتع بتهديد صريح ووعيد مفصل بالجزاء ، ومثله قول الله تعالى : ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ [2] فليس الأمر بالكفر على حقيقته ، لأن الله لا يأمر به ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإنما هو تهديد للكافرين وقد فصل لهم ما ينتظرهم من عقاب.

هذا وقد فرق القوم بين التهديد والإنذار ، فجعلوا التهديد أعم من الإنذار ، لأن التهديد تخويف ، والإنذار تخويف مع إبلاغ ، فقوله تعالى : ﴿قل اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ [3] يسمى تهديدا لما فيه من التخويف بما ينتظرهم من سوء العاقبة ، وهو إنذار ، لأنه مصحوب بالإبلاغ ، كما يدل عليه الأمر "قل".

أما إذا قال السيد لعبده : اعصني وستعرف كيف أعاقبك فهذا تهديد فحسب ، لأنه ليس هناك رسول أبلغ هذا التهديد.

ومن أشد ما وقع بصيغة الأمر تهديدا في الذكر الحكيم قوله تعالى خطابا لنبيه الكريم متوعدا أحد العتاة المكذبين من قريش هو الوليد بن المغيرة فيما وردت به الروايات : ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له

(١) سورة إبراهيم ٣٠.
(٢) سورة الكهف ٢٩.
(٣) سورة الأنعام ١٣٥.

مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا﴾.(١)

إنـــه تهديد مروع (خل بينى وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده ، فأنا ســأتولى حـــربه .. وهـــنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل ، وهو يتصـــور انطلاق القوة التى لا حد لها .. قوة الجبار القهار .. لتسحق هذا المخلـــوق المضعوف المسكين الهزيل الضئيل ، وهى الرعشة التى يطلقها الـــنص القرآنى فى قلب القارئ والسامع الآمنين منها ، فما بال الذى تتجه إليه وتواجهه؟!).(٢)

التعجيز :

التعجـــيز : إظهار العجز ، وذلك فى مقام يدعى فيه المخاطب القدرة علـــى أمر ليس فى طاقته فعله ، فيؤمر بفعله ليظهر عجزه ، وأبرز أمثلته قوله تعالى تحديا للمشركين المكذبين: ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾(٣) فهؤلاء الذين يرمون الرسول بافتراء القرآن ما الذى يمنعهم أن يستسقطوا حجـــة الرسول ، وهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان بأن يأتوا بسورة من مثله ليثبتوا أن القرآن من عند غير الله؟ فإذا لم تستطيعوا جميعا أن يفعلوا ذلـــك – ولـــن يفعلوا – ظهر عجزهم ، وتأكد صدق الرسول فيما بلغ عن

---

(١) سورة المدثر ١٦ – ١٧.

(٢) فى ظلال القرآن ٣٧٥٦/٦.

(٣) سورة البقرة ٢٣.

ربه ولعلك تلمس غاية التعجيز حين لا يقف التحدى عن طلب الإتيان بمثل القرآن كله ، ولا عند طلب الإتيان بسورة مثله ، بل جاءت "من" التى تدل على الابتداء إمعانا فى التحدى وكأنه يقول لهم : ائتوا بسورة من ابتداء ما يسمى مثله ، لا مما بلغ الغاية والانتهاء.

ومـــنه قولـــه تعـــالى بعد أن ذكر عظيم خلقه وما أبدعه فى كونه : ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ [1] قـــال مـــتحديا : ﴿هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه﴾ [2] فقولـــه: "أرونـــى" أمر قصد به تعجيز المشركين عن الإتيان بمخلوق لغير الله، ليتبينوا أنهم فى ضلال مبين ، كما جاء فى تذييل الآية: ﴿بل الظالمون فى ضلال مبين﴾.

وهكـــذا يتحدى القرآن كل مفتر يدعى باطلا من الأمر ، فيطلب إليه دليلا على دعواه مما ليس فى مقدوره ليثبت عجزه ، ويظهر بطلان دعواه ، مـــثلما نجده فى تحدى الله أهل الكتاب أن يأتوا بدليل على ما زعموه من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [3] فإن طلب برهان على زعمهم الكاذب قصد به إعجازهم وإظهار كذبهم ، وليس الأمر على حقيقته ، لأن الله يعلم أنهم كاذبون.

(١) سورة لقمان ١٠.
(٢) سورة لقمان ١١.
(٣) سورة البقرة ١١١.

ومنه تعجيز الله تعالى الكفار يوم القيامة أن يجدوا مهربا من عذابه ، أو ملجأ في السموات والأرض يحميهم من عقابه : ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ [1] وفي قوله : ﴿لا تنفذون إلا بسلطان﴾ قرينة على أن الأمر بالنفاذ ليس على حقيقته ، وإنما هو وارد على سبيل التعجيز.

ومنه قول الشاعر :

أروني بخيلا طال عمرا ببخله ... وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

وقول الآخر :

أرني الذي عاشرته فوجدته ... متغاضيا لك عن اقل عثار

فالشاعر الأول مؤمن بأن البخل لا يطيل عمرا ، ولا يقصر في الأعمار كثرة البذل ، لذلك طلب من مخاطبه على سبيل التعجيز أن يأتي بمثال واحد ينقض دعواه.

والشاعر الثاني مؤمن بأن الناس لا يغفرون زلات إخوانهم ولا يتغاضون عن هفوات خلانهم ، فإذا كن هناك من يعارضه فليأت بمثال يكذبه فيما ادعاه ، وهيهات أن يجد ذلك.

والتعجيز واضح جلي في الأمر بإعادة الشباب إلى من أدبر عنه في قول الشاعر :

يا خليلي خليانى وما بى ... أو أعيدا إلى عهد الشباب

(١) سورة الرحمن ٣٣.

فإن إعادة صاحبيه عهد الشباب إليه أمر محال ، فكأن طلبه ممن لا يستطيعه تعجيز له ، ودفع له عما يحاوله من إصلاح ما لا سبيل إلى إصلاحه.

الإهانة والتسخير والتحقير :

تستخدم صيغة الأمر في الإهانة في مقام يقتضي عدم الاعتداد بشأن المأمور وإذلاله ، فإن كان الفعل المأمور به مما يحصل حال إيجاد الصيغة فهو التسخير ، ومثاله قوله تعالى خطابا لليهود تذكيرا لهم بمصير من اعتدوا منهم في السبت : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١) فإن الله تعالى صيرهم قردة حال صدور الأمر إليهم ، ولما كان المخاطبون منقادين لأمر الله لا يتأتى منهم تحقيق الأمر ، كان توجيه الأمر إليهم تذليلا وإهانة ، وكأنهم ينفذون أمر الله تعالى فيما يصيرون به على هذه الصورة الممسوخة الحقيرة.

وإن كان الفعل المأمور به لا يحصل ، إما لأنه موجود قبل الأمر كقوله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾. (٢)

فإن أمر الله تعالى من هو متجرع للعذاب بقوله : "ذق" ليس على حقيقته ، لأنه ذائق له قبل صدور الأمر ، وهو قرينة على إرادة الإهانة والتحقير ، وهو ما أكد بالاستعارة التهكمية "إنك أنت العزيز الكريم".

---

(١) سورة البقرة ٦٥.

(٢) سورة الدخان ٤٧ – ٤٩.

وقد يكون الفعل المستعمل في الإهانة مما لا يحصل ، لأنه غير مطلوب حصوله ، كقوله تعالى : ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ (١) فالأمر "كونوا" للإهانة ، وكأنه يقول لمنكري بعثهم بعد أن يكونوا عظاما ورفاتا : كونوا على حالة أشد بعدا وإحالة من العظام والرفات ، وهي حالة الحجارة والحديد ، فإن الله تعالى الذي فطركم أول مرة لن يعجزه إعادتكم، ولو كنتم حجارة أو حديدا ، وهي أعظم في الإعادة من العظام التي هي عمد الأجسام وأقرب إلى قبول الحياة مما أمرهم أن يكونوا عليه ، والقرينة على عدم إرادة حقيقة الأمر هو أن المخاطبين لا يستطيعون تنفيذ ما أمروا به ، كما أنه ليس مقصودا منهم أن يكونوه.

وإذا كان الفعل مما يحصل من المأمور ، وقصد عدم المبالاة به والاستخفاف بفاعله كان ذلك تحقيرا ، ومثاله قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام تحقيرا للسحرة وعدم مبالاة بسحرهم : ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ (٢) لذلك لم يكتف بأمرهم بالإلقاء ، وإنما طلب إليهم أن يستنفدوا كل طاقتهم ويظهروا كل ما يملكون من فنون السحر وهو ما يدل عليه قوله : (ما أنتم ملقون) وكأن موسى عليه السلام قد نفخ في روح السحرة من إيمانه بالله وثقته فيما عنده بعد أن آمنوا به فاستخفوا بعقاب

---

(١) سورة الإسراء ٥٠ – ٥١.

(٢) سورة الشعراء ٤٣.

فــرعون ، واحــتقروه ، غير مبالين بما تهددهم به فى قوله : ﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل﴾ (١) فكان ردهم : ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا﴾ (٢) "فاقض ما أنت قاض" إنها نفس الروح التى كانت تسرى منذ قليل فى قول موسى : (ألقوا ما أنتم ملقون) فتشابهتا فــى الصياغة ، وفى روح الاستخفاف والتحقير ، وعدم المبالاة بما يأتيه المخاطب.

التمني :

التمــنى هــو طلب الأمر المحبوب الذى لا طماعية فيه ، واستعمال صــيغة الأمر فى التمنى يجسد شدة ما يعانيه المتمنى ورغبته فى التخلص من واقعه ، ومن أمثلته فى الذكر الحكيم قوله تعالى حكاية عن أهل النار : ﴿إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾. (٣)

إن صيغة الأمر "ليقض" التى آثرها أهل النار فى التعبير عن أمنيتهم هــى صرخة من استبد به هول العذاب ، فتمنى أن يتخلص منه بالموت ، ولعلهــم لــم يصرحوا بالموت فيقولوا : ليمتنا ربك خوفاً ، أن يعادوا بعد

---

(١) سورة طه ٧١.

(٢) سورة طه ٧٢.

(٣) سورة الزخرف ٧٤ - ٧٥.

المـــوت إلى العذاب مرة أخرى كما بعثوا من قبورهم بعد الموت ، فعدلوا عنه إلى القضاء الذى لا يبقى لهم أثرا ، فهو كأمنيتهم ان يكونوا ترابا فى قول الله تعالى بصريح لفظ التمنى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾.[1]

وكثيرا ما تكون قرينة التمنى فى صيغة الأمر هى توجهه إلى ما لا يملك تحقيق الفعل ، بل ربما يكون مما لا يتوجه إليه الخطاب أصلا ، كما نراه فى قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

يقول ابن يعقوب تعقيبا على الأمر فى البيت : (فكأنه يقول : انكشف أيهـــا اللـــيل الطويـــل طولا لا يرجى معه الانكشاف ، ولذلك صار الأمر بـــالانجلاء تمنـــيا ، وإرادة الطـــول الذى لا ينتهى فى الليل عند المحبين مشهور معلوم ، ولهذا قال الشاعر :

ولـــيل المحـــب بـــلا آخـــر

ولمـــا ظهر أن ليس المراد أمر الليل بالانكشاف ، إذ ليس مما يؤمر ويخاطـــب بذلـــك حصل على التمنى ، ليناسب حال التشكى من الأحزان والهمـــوم وشـــدتها ، إذ لا يناســـبها إلا عدم الطماعية فى انجلائه ، لأنها لكثرتها ولزومها الليل بعد الليل منها مما لا يزول).[2]

(١) سورة النبأ ٤٠.

(٢) مواهب الفتاح ٢/٣٢٠.

ومثله قول الشاعر :

فـيا مـوت زر إن الحياة ذميمة ويـا نفس جدى إن دهرك هازل

حيث تمنى الشاعر زيارة الموت تخلصا من حياة هازلة ذميمة ، ولما كـان المـوت لا يخاطب ولا يؤمر دل ذلك على التمنى ، وصيغة الأمر تشـعر بغاية ضيقة وتبرمه بالحياة حتى صرخ طالبا الموت الذى يفر منه الناس.

وفى قول المتنبى :

رأيتك تصفى الود من ليس جازيا أقـل اشـتياقا أيهـا القلب ربما

يطلب إلى قلبه على سبيل التمنى أن يخفف من تعلقه بمحب لا يبادله نفس الشعور ، ولا يرعى الود ، وذلك مما لا سبيل إلى الحصول عليه بعد أن وقـع قلـبه أسـير من يهواه ، وقد ضمن ذلك شكواه وضيقه من عدم الوفاء.

الدعـاء :

الدعـاء هو الطلب على سبيل التضرع والخضوع ، ولا يشترط فيه أن يكـون الداعـى أدنى رتبة من المدعو ، كما لا يشترط أن يكون الآمر أعلى رتبة من المأمور ، فالمعول عليه هو أن يكون الطلب على وجه القوة والغلظـة فـيكون أمرا ، أو على وجه التواضع والخضوع فيكون دعاء ؛ ولذلك يقع الدعاء من السيد إلى العبد ، إذا صحب صيغة الأمر ما يدل على الخضوع والتذلل ، كأن يقول السيد لعبده وقد آذاه فندم على إيذائه : اغفر

لـــى قسوتى ، وإذا قال العبد لسيده على وجه الغلظة : اعتقنى كان أمرا ، وإن كـــان ذلك سوء أدب منه ، ولذلك يلجا الكثيرون من الكتاب والباحثين تأدبـــا إلى صيغة الخبر بدلا من صيغة الأمر فيقولون : ينظر كتاب كذا ، مســـتبدلين إياها بصيغة الأمر "أنظر" ، تحاشيا من توجيه هذه الصيغة إلى من هو أعلم منهم وأرفع منزلة.

ومثال الدعاء قول إبراهيم عليه السلام فى دعائه ربه : (رب اجعلنى مقـــيم الصـــلاة ومـــن ذريـــتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنيـــن يوم يقوم الحساب) فالأفعال : اجعل ، تقبل ، اغفر ، أريد بها جميعا الدعاء. (١)

ومنه قول المتنبى فى خطابه لسيف الدولة :

أزل حســـد الحساد عنى بكبتهم ... فأنـــت الـــذى صيرتم لى حسدا

جـــاء الأمر "أزل" فى سياق يظهر الخضوع والتضرع، ويجل من توجه إليها لخطاب عن مقام المأمور ، فكان ذلك قرينة على إرادة الدعاء.

الالتماس :

وذلـــك إذا توجه الطلب لمن يتساوى مع الطالب فى الرتبة ولم يكن مصـــحوبا بتضـــرع أو استعلاء ، فإذا كان الأمر من المساوى على جهة الغلظـــة لم يكن التماسا وإنما هو أمر ، وإذا كان على جهة التضرع كان دعـــاء ، ومـــن أمثلته فى الكتاب الحكيم ما جاء على لسان واحد من أهل

---

(١) سورة إبراهيم ٤٠ - ٤١.

الكهف مخاطبا إخوانه : ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا﴾ فلما صدر الأمر من أحد هؤلاء الفتية إلى إخوانه وهم يتساوون فى المرتبة كان محمله الالتماس فى كل صيغ الأمر "ابعثوا" "فلينظر" "فليأتكم" و"ليتلطف".(١)

ومنه قول مالك بن الريب يخطب صاحبيه ملتمسا منهما أن يتخيرا قبره ، يحفراه ويوسداه التراب :

فيا صاحبى رحلى دنا الموت فاحفرا ... برابية إنى مقيم لياليا

وخطا بأطراف الأسنة مضجعى ... وردا على عينى فضل ردائيا

فالأوامر : "احفرا" و "خطا" و "ردا" خرجت مخرج الالتماس.

التسوية :

وتأتى صيغة الأمر دالة على التسوية بين الفعل والترك أو بين الفعل فى أحوال متعددة ، وذلك فى مقام يتوهم فيه السامع رجحان أحد الأمرين.

قال الله تعالى خطابا لرسوله الكريم حين استغفر لرأس المنافقين عبد الله بن أبى : ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ (٢) فدفع بذلك توهم أن استغفار الرسول للمنافقين قد يكون سببا فى غفران الله لهم ، وسوى بين استغفار الرسول وعدمه فى احتجاب مغفرة الله عنهم ، والغرض من إيثار صيغة الأمر الدلالة على غاية غضب

---

(١) سورة الكهف ١٩.

(٢) سورة التوبة ٨٠.

الله تعالى عليهم ، وإغلاق باب الرجاء في العفو عنهم لدرجة جعلت أعظم الخلـق منزلة عند الله يستغفر لهم فلا يجاب ، وفي ذلك من التيئس ما لا يكـون لو نهى الرسول عن الاستغفار لهم ، إذ لو قيل : لا تستغفر لهم لما دل على ما دل عليه الأمر من شدة الغضب الإلهي.

ومـثله قولـه تعالى خطابا للمنافقين وإحباطا لأعمالهم : ﴿قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين﴾ (١) فإن أمر الله تعالى لهم بالإنفاق والجزم بعدم قبول ما أنفقوه أدل على سخط الله تعالى ، وكأنه من شدة بغضه لهم يكلفهم الجهد ومغالبة شح النفس في الإنفاق ثم لا يتقبله منهم.

وانظـر كـيف تؤدى التسوية إلى احتقار المأمور وازدرائه في قوله تعـالى : ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا﴾ (٢) فإن المنزل أجل من أن ينال منه تكذيب الجاهليـن ، فليؤمنوا أو لا يؤمنوا ، فليس لتصديقهم أو تكذيبهم وزن بعد أن خـر أولو العلم ساجدين تعظيما لمن أنزله ، يقول الزمخشري : (أمر بالإعـراض عـنهم واحتقارهم ، والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمـانهم وبامتـناعهم عنه ، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقـرآن ، وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيرا منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرأوا الكتب وعلموا ما الوحي والشرائع قد آمنوا به وصدقوه).

---

(١) سورة التوبة ٥٣.

(٢) سورة الإسراء ١٠٧.

رابعاً : النهى

النهى طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء ، وله صيغة واحدة هـي لا تفعل ، وحقيقته أن يكون الناهى مستعلياً ، كقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ (١) وقولـه : ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما﴾ (٢) وهـذا اسـتعلاء حقـيقى لصدوره من الأعلى إلى الأدنى على وجه القوة والإلزام ، وقد يعد الناهى نفسـه عالـياً وإن لـم يكن أعلى رتبة ، كما فى النهى الوارد على لسان الخضر خطابا لموسى عليهما السلام : ﴿قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ (٣) فإن الخضر عليه السلام ليس أعلى رتبة من موسى ، ولكنه وقف منه موقف المعلم فصار النهى منه صادرا على سبيل الإلزام ، والاستعلاء فيه ادعائى ، بخلاف صيغة النهى الواردة فى خطاب موسى للخضر معتذرا عن إخلاله بشروط المصاحبة وسؤاله عما لم يحدث بـه : ﴿قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا﴾ فإنها ليست للـنهى ، لما صاحبها من الخضوع ، ووقوف موسى موقف طالب العلم ، المعتذر عما خالف فيه شروط معلمه.

---

(١) سورة المائدة ٨٧.
(٢) سورة النساء ٥.
(٣) سورة الكهف ٧٠.

المعانى المتولدة عن النهى :

كثيراً ما تدل القرائن بحسب المقام على استعمال صيغة النهى فى غير طلب الكف استعلاء ، فيتولد منها معان يراها البعض مجازا فيها ، ويراها آخرون من مستتبعات التراكيب ، من ذلك دلالتها على الدعاء إذا كان طلب الكف عن الفعل واقعا من الأدنى رتبة على سبيل التضرع والتذلل ، كما ورد فى الذكر الحكيم على لسان المؤمنين : ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ (١) ، وكما جاء على لسان الراسخين فى العلم : ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ (٢) فإن صدرت هذه الصيغة من الأدنى إلى الأعلى ولم تكن مصحوبة بالتضرع والخضوع لم تكن دعاء ، كما إذا قال العبد لسيده متبرما: لا تمنعنى عن مقابلة من أحب، وإن كان ذلك من العبد سوء أدب.

ومنها الالتماس ، وذلك حين تصدر صيغة النهى من المساوى على سبيل التلطف ، كما جاء على لسان هارون مخاطبا موسى عليهما السلام : (يا ابنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولى) (٣) فهو شريكه في الانتساب إلي الأم ، وشريكه فى الدعوة (وأشركه فى أمرى) فطلبه عدم مؤاخذته بفعل قومه واقع على سبيل الالتماس.

(١) سورة البقرة ٢٨٦.
(٢) سورة آل عمران ٨.
(٣) سورة طه ٩٤.

ومنه قول الشاعر يخاطب صاحبا له :

لا ترحلــن فمــا أبقيــت لـــى خلدا   ممــا أطـيق بــه توديــع مرتحل

وقول مالك بن الريب يلتمس من صديقيه أن يوسّعا له في قبره :

ولا تحســـدانى بـــارك الله فـــيكما   من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

وتســتعمل صيغة النهى فى التممنى حين يطلب بها ترك أمر محب من لا يملك الفعل أو الترك ، كما في قول الشاعر :

يــا لــيل طــل يــا نــوم زل   يــا صــبح قــف لا تطلـــع

فأمر الليل بالطول ، والنوم بالزوال ، والصبح بالوقوف ، ونهيه عن الطلــوع ، كــل ذلــك واقع على سبيل التمنى ، وليس أمرا أو نهيا على الحقيقة، لاستحالة أن يؤمر الليل أو الصبح بفعل أو ينهيا عنه ، ومثله قول إسماعيل صبرى :

فيا قلب لا تجزع ويا نفس أملى   بلوغ المنى فالعسر لن يغلب اليسرا

فتوجيه النهى عن الجزع إلى من لا ينتهى وهو القلب تجوز به عن التمنى ، وتستعمل هذه الصيغة فى النصح والإرشاد ، حين يكون الناصح لا سلطان له على من نهاه ، وهو فى القرآن كثير كقوله تعالى على لسان العقلاء من قوم قارون ينصحونه بحسن التصرف فيما آتاه الله : ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى

الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ (١) فكل ما ورد من صيغ الأمر والنهى هنا أريد به نصح قارون فى مقام يتطلب الموعظة والنصيحة ، ومثله قول القائل من إخوة يوسف : (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) (٢) وهى نصيحة منه بترك قتله وقد لقيت القبول عندهم ، وفى ذلك إيماء بأن هذا الأخ لم يشارك فى جريمتهم ، لا عند عزمهم على القتل ، ولا فى إلقائه فى الجب ، وإنما وقف منهم موقف الناصح الذى آثر أخف الأضرار .

ومنه قول الشاعر ناصحا ، وهو من أجمل القول وأعذبه :

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة　　　إن الخوافى قوة للقوادم

وتستخدم صيغة النهى فى التهديد فى مقام الزجر والتخويف وذلك حين يكون المنهى عنه غير مرغوب فى تركه ، فيكون النهى عنه قرينة على أن تركه موجب للعقاب ، كقولك لمن يعصيك : لا تطعنى ، ملوحا له بأن عصيانه سيعرضه لما لا يحب من العقاب ، وتستعمل فى التحقير فى مقام الاستخفاف والاستهانة بمن يوجه إليه النهى ، ومما جاء منه فى الذكر الحكيم قوله تعالى على لسان هود عليه السلام ردا على قومه حين خوفوه عاقبة الاستخفاف بآلهتهم ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ (٣) فقال فى رده : ﴿فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون﴾ فكان أمره لهم بالكيد له ،

(١) سورة القصص ٧٦-٧٧.
(٢) سورة يوسف ١٠.
(٣) سورة هود ٥٤.

ونهـيهم عـن إمهاله غاية في الاستخفاف والتحقير لهم ولآلهتهم ، ولذلك طلب منهم أن ينضموا إلى آلهتهم في المكر به ، قلة مبالاة ، واستهانة بهم وبآلهتهم ، وفي ذلك من الثقة بالله ما فيه ، ومنه قول الشاعر :

دع المكـارم لا تـرحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقـد تضـمن نهيه عن الرحيل لطلب المكارم ذماً له وتحقيراً ، فهو ليس أصلا لأن يطلبها ويسعى لها.

ومن معاني هذه الصيغة التيئيس ، حين يكون الغرض من النهي عن الفعـل إعـلام المخاطب بأنه لا جدوى منه حتى لا يحاوله ، ويدفعه إلى الـيأس فـلا يقـدم على ما كان يظن فيه نفعه ، ومثاله قوله تعالى خطابا للمنافقيـن الذين أرادوا الاعتذار للمسلمين عن تخلفهم عن الغزو أملا في العفـو عنهم ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم﴾[1] فكان نهيهم عن الاعتذار تيئيسا لهم ، وإعلاما لهم بأنهم لن يستطيعوا خديعة المسلمين بعد أن كشف الله حقيقتهم.

ومـثله قوـله تعالى للكافرين يوم القيامة : ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾[2] فإن نهيهم عن الاعتذار تيئيس لهـم عـن الاستماع إلى أعذارهم ، بعد أن سبق عليهم القضاء بعقاب لا يجدي معه الاعتذار (إنما تجزون ما كنتم تعملون).

---

(١) سورة التوبة ٩٤.

(٢) سورة التحريم ٧.

وعلى غراره جاء قول المتنبي في مدح سيف الدولة :

لا تطلبــن كــريما بعــد رؤيته   إن الكــرام بأسخاهم يدا ختموا

فكــان التيئــيس مــن طلب مثله في الكرم غاية المدح بتفرده فيه ، ووصوله إلى حد يجعل محاولة العثور على هذا المماثل ضربا من المحال.

هــذه بعــض المعاني التي تستعمل فيها هذه الصيغة غير مراد بها حقيقة النهي ، وغالب ما ذكرناه من المعاني التي تستعمل فيها صيغة الأمر يمكــن أن تــؤدى بصيغة النهي ، والمعول عليه في فهم هذه المعاني هو القرائــن والذوق المتمرس على إدراك ما يخبئه المتكلم في هذه الصيغ من الأغراض.

ومــثلما قلنا في صيغ الأمر حين لا يراد بها حقيقته من عدها مجازا مرســلا ، أو اعتــبارها من خواص التراكيب نقول بمثله هنا حين لا يراد بصيغة النهي حقيقته ، فهي إما مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد ، أو علاقــة اللزوم أو السببية ، أو العموم والخصوص طبقا لاختلاف المعاني واخــتلاف آراء البلاغيين ، فمثلا استعمال صيغة النهي في التهديد جعلها ابن يعقوب مجازا مرسلا علاقته اللزومية حيث قال : (والعلاقة بين النهي والتهديد استلزام النهي للوعيد) [1] في حين جعلها الدسوقي من السببية (لأن النهي عن الشئ يتسبب عنه التخويف على مخالفته) [2] ، وجعل ابن يعقوب

---

(١) مواهب الفتاح ٢/٣٢٧.

(٢) حاشية الدسوقي ٢/٣٢٦.

العلاقة فى الالتماس من استعمال الأخص الذى هو طلب الكف استعلاء فى الأعم وهو مطلق الطلب[١] وجعلها الدسوقى الإطلاق.[٢]

وإما أن تجعل هذه الصيغة مستعملة فى حقيقتها ، ويتولد عنها بحسب المقام معان تفهم من جنب اللفظ على أنها من مستتبعات التراكيب ، فمثلا إذا قال السيد لعبده : لا تطع أمرى ، فهو نهى عن الطاعة ، ولما كان ترك الطاعة مما لا يؤمر به تولد عنه بحسب المقام تهديده على عصيانه ، فالتهديد متولد عن النهى وليس مجازا فيه ، وإلى ذلك ذهب بعض البلاغيين.

صور من خروج النهى على خلاف مقتضى الظاهر :

من أبلغ صور النهى ما جاء بطريق الكناية ، وذلك حين يوجه النهى إلى من ليس مقصودا به ، لينتقل النهى إلى المخاطب به بطريق التلازم ، ومثاله قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[٣] ، فظاهر قوله ﴿فلا يقربوا المسجد﴾ أنه نهى للمشركين ، ولما كان المشركون ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة ، لزم أن يكون المراد نهى المسلمين عن تمكين المشركين من دخول المسجد الحرام والاقتراب منه ، وفى ذلك مبالغة فى نهى المؤمنين حين جعلوا

---

(١) مواهب الفتاح ٢/٣٢٧.

(٢) حاشية الدسوقى ٢/٣٢٧.

(٣) سورة التوبة ٢٨.

مكلفيـــن بكف المشركين عن الاقتراب من المسجد الحرام يقول الألوسي : (فهو كناية عن نهي المؤمنين عن تمكينهم مما ذكر ، بدليل أن ما قبل وما بعد خطاب للمؤمنين). [١]

وهـــذا الضــــرب من الكناية تجده في قوله تعالى على لسان إبراهيم يوصـــي بنـــيه : ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [٢] حيــث توجــه النهي ظاهرا إلى الموت ، وهو غير مقدور للمخاطبيـــن ، والمراد النهي عن مفارقة الإسلام حين الموت وهو ضرب مـــن التوســـع جـــرى به لسان العرب (فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خـــلاف حـــال الإسلام إذا ماتوا ، كقولك : لا تصل إلا وأنت خاشع ، فإن قلــت : فاي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة وليس بمنهي عنها؟ قلت : إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : أنهاك عـــنها إذا لـــم تصلها على هذه الحالة ، وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه). [٣]

ومـــنه توجـــه النهي إلى السبب وإرادة المسبب ، ومثاله قوله تعالى خطابا لرسوله عليه السلام : ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾. [٤]

---

(١) روح المعاني ٧٧/١٠.

(٢) سورة البقرة ١٣٢.

(٣) الكشاف ٣١٣/١.

(٤) سورة آل عمران ١٩٦.

"وقد جعل النهى فى الظاهر للتقلب وهو فى المعنى للمخاطب ، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب ، لأن التقلب لو غر لاغتر به ، فمنع السبب ليمتنع المسبب".(١)

وفــى توجيه النهى إلى السبب ضرب من المبالغة فى النهى باجتناب أسـبابه ، والبعد عن كل ما يؤدى إلى الاغترار بمظاهر حياة الكفار ، وما أوتـوه مـن حظوظ الدنيا لذلك حرص القرآن على هذه الطريقة فى النهى كلما حذر من الاغترار بالدنيا ، فجاء ظاهر النهى موجها إلى الحياة الدنيا من مثل قوله تعالى: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ (٢) ففـى توجيه النهى إلى الدنيا وهى السبب مبالغة فى التحذير من الاغترار بمظاهرها.

دلالة النهى على الثبات :

من خروج النهى على خلاف مقتضى الظاهر ما جاء خطابا لرسول الله ص نهـيا عما لا يمكن أن يتأتى منه ، كقوله تعالى : ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد﴾ (٣) وقولـه تعالى : ﴿يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ (٤) وقولـــه : ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ (٥) فما

(١) الكشاف ٤٩٠/١.
(٢) سورة لقمان ٣٣.
(٣) سورة آل عمران ١٩٦.
(٤) سورة الأحزاب ١.
(٥) سورة يونس ١٠٥ – ١٠٦.

نهـي عـنه المعصوم ص من الاغترار بحظوظ الدنيا، وطاعة الكافرين ، والشـرك بالله ، ودعاء ما لا ينفع ولا يضر ، كل ذلك مما هو مجتنب من رسول الله ، فالنهي عنه من تحصيل الحاصل ، لذلك فسر النهي هنا وفي أمـثاله بطلـب الـدوام والثـبات على تركه ، وهذا أحد وجهين ذكرهما الزمخشـري عندما لحديث على الآية الأولى فقال : (إن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم ، فأكد على ما كان وثبت على التزامه ، كقوله : ﴿ولا تكن من الكافرين﴾ ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ ، ﴿ولا تطع المكذبين﴾ وهـذا فـي الـنهي نظير قوله في الأمر : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. [1]

خامساً : النداء

النداء : طلب الإقبال بحروف نائب عن الفعل ، وحروف النداء منها ما وضع لنداء القريب كالهمزة وأي ، وما وضع لنداء البعيد ، مثل : يا ، وأيا ، وهيا.

والأصل في النداء دعوة العاقل إلى الإقبال ، ومراعاة قربه وبعده في اختيار الأداة الدالة على القرب أو البعد.

فهـذا رسول الله ص ينادي الشباب ويحرص على أن يسمع صوته لكل شاب في كل زمان ومكان : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليـتزوج ، فإنـه أغـض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم) ولما كان الأمر الذي يدعو إليه الرسول جد خطير لتعلقه بفضائل

(١) الكشاف ٤٩٠/١.

المجتمع ، وبنائه المادي والخلقي كانت الدعوة إليه عامة لكل الشباب ، فاستعمل الرسول أداة النداء ذات الصوت الممدود التي ينادى بها البعيد ، ليسمع كل الشباب تنبيها على خطر ما يدعو إليه.

وهذه أمامة بنت الحارث توصى ابنتها فتقول : (أي بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك "فاستخدمت أداة القرب ، لأنها تهمس بوصيتها في أذن ابنتها ، وهي قريبة منها ، يقظة منتبهة بحسن أدبها لكل ما تسمع من أمها.

وربما يراعى شدة القرب وكمال التنبه في المنادى فتحذف أداة النداء إشعارا بأن المنادى لا يغيب عن العين أو القلب ، كقول أبي تمام :

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب

وقول الله تعالى على لسان العزيز : ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ [1] فحذف أداة النداء لقرب يوسف منه حسا ومعنى ، وللإيماء إلى كمال تفطنه للحديث ، وحسن تيقظه.

هذا هو الأصل في استعمال أداة النداء ، ولكن الأديب قد يتصرف في أداة النداء فيحملها فيض مشاعره ، وما تهجس به نفسه ، فينقل القرب والبعد الحسيين إلى القرب والبعد من النفس ، أو بعد المنزلة ودنوها ، فتراه ينادي القريب بأداة البعيد أو العكس ، تعبيرا عن هذه المعاني ، وتجوزا بالقرب أو البعد الحسي عن القرب أو البعد المعنوي.

(١) سورة يوسف ٢٩.

فهذا يوسف عليه السلام يحمل أداة البعد معنى التعظيم ، فيجعل البعد الحسي دليلا على بعد المنزلة وسمو المكانة ، فينادى أباه وهو منه جد قريب ﴿يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ (١) فكانت أداة البعد دليلا على أدب النبوة والبنوة المنتظرة ليوسف عليه السلام ، إذ حملها ما يكنه لأبيه من إجلال وتعظيم.

ومثله نداء إبراهيم عليه السلام لأبيه على الرغم من كفر الأب ومجافاته للحق : ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾ (٢) فآثر أداة نداء البعيد تعظيما لقدر أبيه ، وفاء بحق الآباء في التوقير والإجلال.

وقد رد عليه أبوه بنداء البعيد إيماء إلى شدة غضبه على ابنه ، وتبرئة منه ، ودلالة على بعد المواقف بينهما بقدر ما بين الإيمان والكفر من البعد : ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا﴾ (٣) فقد اطلح الابن بخروجه عن دين أبيه بعيدا عن نفسه، لذلك ناداه باسمه لا بوصف البنوة ، وكان الظاهر أن يقول : يا بني ، كما قال إبراهيم "يا أبت" وكأن صلة الأبوة قد قطعت بينهما.

ولك أن تقارن هذا الموقف من الأب الجافي بنداء الأب الحاني :

أبني إن أباك كارب يومه ... فإذا دعيت إلى المكارم فاعجل

(١) سورة يوسف ٤.

(٢) سورة مريم ٤٤ – ٤٥.

(٣) سورة مريم ٤٦.

فكانــت أداة النداء تحمل معنى القرب النفسى والتزاوج الروحى بين الأب وابنه.

وهــذا أبــو فــراس الحمدانى ينادى سيف الدولة ، وهو فى أسره ، وبيـنهما مــن البعد ما لا يخفى ، ولكنه لحضوره فى نفسه رآه ماثلا أمام عينيه ، قريبا بين يديه يناجيه لا يناديه ، فاستخدم أداة القرب ، ثقة فى أنه يسمعه ويجيبه :

أسـيف الدولـة المـأمول إنى   عـن الدنيا إذا ما عشت سالى

وكما يتصرف الأديب فى الأداة فيحملها معانى القرب والبعد النفسى كذلـك يتصـرف فى النداء ذاته ، فينقله من مجرد طلب الإقبال إلى معان أخـرى تحقـيقا لأغراض يشى بها هذا النداء ، وبقدر تعدد حاجات الناس وتنوع المشاعر وأحوال النفوس تتعدد الأغراض ولا سبيل إلى حصرها.

فمـا فـارق النداء فيه حقيقته من طلب الإقبال ما دل على التحسر والتوجع ، ويكثر ذلك فى نداء الديار والأطلال والقبور والويل والحسرة ، ويبلغ التحسر مداه حين ينادى المرء الهلكة ، فكأنه يستعجلها ليتخلص من آلامـه وأحـزانه كمـا فـى قول الله تعالى على لسان الكافر يوم القيامة: ﴿يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا﴾ (١) "يـا ويلتى" كلمة تجزع وتحسر ، وكأنـه يقـول أيـتها الهلكة أقبلى واستنقذينى من العذاب ، ومثل ذلك فى

(١) سورة الفرقان ٢٨.

الدلالة على التحسر والتوجع قول الحسن بن مطير في رثائه لمعن ، مناديا قبره :

أيا قبر معن كنت أول حفرة … من الأرض خطت للسماحة مضجعا

ويا قبر معن كيف واريت جوده … لو كان حيا ضقت حتى تصدعا

وقول البارودي يخاطب يد المنون بعد أن اغتالت زوجه وشقيقة روحه :

أيد المنون قدحت أي زناد … وأطرت أية شعلة بفؤاد؟

وفي إيثار البارودي لأداة القريب في نداء الموت إيحاء بأنه جد قريب منه ، لأنه اقتطع جزءا من نفسه.

ويستعمل النداء في الدلالة على العتاب واللوم ، وذلك في مقام التلطف وترك المؤاخذة على فعل غير مرغوب فيه ، ومثاله عتاب الله تعالى لنبيه الكريم في قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾[1] فقد خرج النداء هنا مخرج العتاب على فعله عليه السلام لغير ما هو الأولى والأليق بمقام النبوة ، وفي ندائه عليه السلام (يا أيها النبي) في مفتتح العتاب من حسن التلطف مثل ما في قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) حيث كان تقديم (عفا الله عنك) في مقابلة تقديم النداء هنا ، وكأن الله تعالى يشعره من البداية أنه يلومه ولا يؤاخذه ، لذلك جاء تذييل الآية دالا على العفو والرحمة (والله غفور رحيم).

---

(١) سورة التحريم ١.

ومن العتاب واللوم وإن كان قاسيا مرا قول إيليا أبى ماضى :

يـــا أخـــى لا تمل بوجهك عنى   مـــا أنـــا فحمـــة ولا أنت فرقد

ففى ندائه بصفة الأخوة مر العتاب لمن يتكبر فى الأرض ، ويصعر خـــده للناس ، وكأنه خلق من مسك وخلق غيره من طين ، وينسى أن الله ســـوى بيـــن الناس فى أصل الوجود وغايته ، فهم من التراب خلقوا وإليه يعودون.

ومـــن معانـــيه التعظيم ، وذلك حين يكون النداء بوصف يدل على إجـــلال المـــنادى وتفخيمه ، كما فى قوله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا﴾ (١) ففـــى ندائه بالعزيز واختيار أداة البعد فى النداء إجلال للمنادى وتعظيم له ، ومنه قول شوقى فى مدح الرسول ص :

يـــا خـــير من جاء الوجود تحية   من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا

ومـــن معانـــيه التحقير ، وذلك حين ينادى بما يدل على الاستخفاف والاستهزاء كما فى نداء المشركين لرسول الله ﷺ :

﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ (٢) حيـــث أرادوا بوصـــف (الذى نزل عليه الذكر) التهكم والاستخفاف ، بقرينة قولهم (إنك لمجـــنون) وبقولهـــم بعـــد : ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾

---

(١) سورة يوسف ٨٨.

(٢) سورة الحجر ٦.

فنداؤه بوصف يكذبونه فيه وينكرونه عليه دليل على الاستهزاء ، وقد شاء الله تعالى أن ينطقهم بالحق حين أرادوا به التهكم والتحقير ، فصدقت ألسنتهم وكفرت قلوبهم.

وقد ذكر البلاغيون من معاني النداء الاختصاص ، وذلك حين يخصص به حكم علق على ضمير بغرض التفخيم كما في قول الفارس : أنا أيها الفارس أمضى الناس سيفا ، أو بغرض التذلل والمسكنة كقولك : أنا أيها العبد الفقير إلى الله ، وقول المسكين : أنا أيها المسكين أطلب المعروف ، فالنداء في هذه المثل مجرد عن طلب الإقبال ، لأن المتكلم لا يطلب إقبال نفسه ، وإنما استعمل في التخصيص على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد أو العموم والخصوص.

التعبير عن الإنشاء بلفظ الخبر:

من أروع صور الإنشاء ما أدي بلفظ الخبر تجوزا بما هو واقع عما يطلب وقوعه ، فيعبر بالماضي أو المضارع بدلا من الأمر أو بالنفي بدلا من النهي ، وهو أبلغ في الدلالة على الامتثال من صيغة الأمر او النهي ، ومثاله في الأمر الذي عبر عنه بالخبر قوله تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ [1] حيث عبر بالمضارع "يرضعن" وأراد الأمر بالإرضاع وهو آكد من الأمر وأبلغ ، ومثله في التعبير بالخبر عن النهي

---

(١) سورة البقرة ٢٣٣.

قولـه تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله﴾ (١) فعبر بالنفى وهو خبر ، عن النهى وهو إنشاء ، قال الزمخشرى : ("لا تعبدون" إخبار فى معنى النهى ، كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له هذا تريد الأمر ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء ، فهو يخبر عنه).(٢)

وقد يعبر بالمضارع عن الأمر إظهارا لحسن التأدب ، وتجنبا للمواجهة بصيغة الأمر ، كما يقول الباحث : ينظر الكتاب ، بدلا من : انظر الكتاب ، تأدبا مع القارئ ، إذ ربما يكون أعلم منه وأرفع منزلة ، فيتحاشى مواجهته بصيغة الأمر.

ويعبر بالمضارع بدلا من الأمر لحمل المخاطب على تحصيل المطلوب ، وذلك حين يكون المخاطب ممن لا يحب أن يكذب الطالب ، فإذا قال لمخاطبه : تفطر معى غدا ، كان ذلك أدعى إلى تحقيق ما يطلبه ، لأنه بامتناعه يكون قد كذبه فيما أمر به ، ولما كان المخاطب حريصا على أن لا يكذبه ، فإنه يجد فى تنفيذ ما أراده ، فهو فى هذا المقام أبلغ من صيغة الأمر.

ويعبر بالماضى بدلا من الأمر لإظهار الحرص على وقوعه فى مقام الحث على التمكن من المطلوب ، فتقول لمن ترغب فى لقائه رغبة شديدة:

---

(١) سورة البقرة ٨٣.

(٢) الكشاف ١/٢٩٢.

رزقني الله لقاءك ، فهو لشدة رغبته في اللقاء وكثرة تصوره له ، واستقراره في خياله ووجدانه خيل إليه أن مطلوبه غير الحاصل قد حصل من زمن ماض ، فآثر صيغة الماضي الدالة على الوقوع ، تعبيرا عن حرصه الشديد ورغبته في حصول اللقاء ، وهذا معنى نفسي أحسن البلاغيون الكشف عنه.

وقد يكون الغرض من التعبير بالماضي هو التفاؤل ، فيظهر غير الواقع واقعا كما تقول للطالب ، وقد رأيته جادا في درسه : وفقك الله للنجاح ، تفاؤلا بوقوعه ، وهكذا ترد على ألسنة البلغاء صيغ الدعاء بلفظ الماضي ، تفاؤلا بتحقق المطلوب ، أو إظهارا لشدة الرغبة في حصوله ، فيقولون لك رحمك الله ، وغفر الله لنا بدلا من أرحم واغفر.

الفصل والوصل

الهدف من الفصل والوصل:

إن دراسة موضوع الفصل والوصل تهدف فى المقام الأول إلى الوقوف على ما بين المعانى من مناسبات. وتبين الصلات التى تربط المعانى ببعضها، وأنواع تلك الصلات، ومعرفة الكيفية التى من خلالها صح أن يلتقى هذا المعنى بغيره، ولم عطف هذا المعنى أو فصل؟ ومعرفة درجة هذا الاتصال أو الانفصال.

ويذكر العلوى فى الطراز : أن أسرار الفصل والوصل ولطائفه لا تقف عند حدود علم الإعراب ومجرد إلحاق المعطوف للمعطوف عليه فى الإعراب. بل يزيد أمراً أخص من ذلك. وأقدر على تحصيل الأسرار الغريبة واللطائف العجيبة فى كتاب الله تعالى وفى غيره. وإن كان لابد من التصرفات الإعرابية والإحاطة بالمعانى النحوية"[١].

وإلى جانب معرفة مقاطع الكلام وما يجمع أوله وآخره. فإن معرفة الأسرار الكمنة فى طيات هذا الموضوع من الدقة بمكان ، وهى التى جعلت إمام البلاغة عبد القاهر الجرجانى يقول فى مقدمة حديثة عن الفصل والوصل: "اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة. ومما لا يتأتى التمام فيه إلا للإعراب الخلص. أو لقوم طبعوا على البلاغة. وأوتوا فناً من المعرفة فى

(١) الطراز ٢/٣٣.

ذوق الكـــلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة.

فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عن البلاغة فقال:

البلاغة معرفة الفصل والوصل

وما ذلك إلا لغموضه ودقة مسلكه. وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل له سائر معانى البلاغة[1].

ومـــن ذلك أيضاً أن معرفة الفصل والوصل بين الجمل متوقف على معـــرفة مـــا يجب لكل واحدة من الجملتين. وذلك متوقف على معرفة ما مضـــى من أحوال المسند إليه والمسند والمتعلقات. ولذا كان تحصيل هذا الـــباب ومعرفة أسراره نتيجة لمعرفة كثير من شئون أبواب البلاغة. ولذا قـــيل : "هذا الباب من أعظم أبواب البلاغة لعظم خطره وصعوبة مسلكه، ودقة مأخذه"[2].

وإذا نظـــرنا إلى التراث النقدى ، وجدنا إشارات تشيد بقيمة التآخي بين الكلام والترابط بين مفرداته.

فقد نوهوا بالكلمة المتمكنة وعابوا الكلمة القلقة فى موضوعها والتى لم تتآلف مع جاراتها.

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٢.

(٢) عروس الأفراح٣/٢-٣.

كما تحدثوا عن الشعر المترابط وغير المترابط أى: ما له قران وما ليس له قران. ومن ذلك ما أنشده ابن الأعرابى :

وبـــات يدرس شعراً لاقران له ... قــد كــان ثقفــه حولا فما زادا

ومن ذلك ما ذكره الجاحظ فى خلف الأحمر:

وبعض قريض القوم أبناء علة ... يكــد لســان الــناطق المــتحفظ

ومنه قول الآخر :

وشــعر كبعر الكبش فرق بين ... لســان دعــى فى القريض دخيل

فالمــراد مــن كــون الشعر "أبناء علة"[1] أنه مستكره لا تقع ألفاظه ممــاثلاً بعضها بعضاً. ويكون بينها من التنافر وعدم التلاؤم ما بين أولاد العلات. وهذا عيب فى الكلام.

وأمــا كــون الشعر كبعر الكبش. فلأن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مــتجاور، وكذلــك حــروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر حينما تراها متــنافرة غــير ملتئمة بحيث يصعب نطقها، بخلاف الكلام الذى استوفى شــروط الملاءمة والتوافق فى التأليف. حيث تجئ كلماته منسجمة مترتبة على حسب المعانى، فتكون سلسة النظام خفيفة على اللسان واضحة الدلالة على معناها ، لأن الكلمة فى جملتها كالحرف الواحد فى كلمته[2].

---

(١) هم أولاد الرجل من نسوة شتى.

(٢) انظر إلى البيان والتبيين ٨٩/١ وما بعدها.

ويقـــول شيخ البلاغيين وتاج البلاغة وإمامها عبد القاهر الجرجاني: "وهـــل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وملاءمـــة معـــناها لمعاني جاراتها، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافـــه كلمة قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن: عن سوء التلاؤم وأن الأولى لم تلتق بالثانية في معناها. وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها"[1].

ومعـــرفة جهة التآخي بين الكلمات شيء ليس بالسهل. لأنه قد يخفى علـــى بعض الناس، حتى على بعض من لهم اهتمام بدراسة بالشعر ولقد درست في النقد كيف عيب على الكميت قوله :

أم هـــل ظعائن بالعلياء نافعة ... وإن تكامل فيها الأنس والشنب

حيث قالوا له: لقد باعدت. فأين الأنس من الشنب؟

وذلك أن الشنب لا يناسبه ذكر الأنس، بل يناسبه بقية أوصاف الثغر والقـــم واللعس (وهو لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلاً) وغير ذلك من أوصاف الريق وغيره.

---

(١) دلائل الإعجاز ٤٥.

تعريف الفصل والوصل

أولاً: تعــريف الوصل: عرفه البلاغيون بقولهم: عطف بعض الجمل على بعض بالواو خاصة.

ثانياً: تعريف الفصل: وعرفوه بقولهم: هو ترك هذا العطف بين الجمل.

والواضـــح مـــن هذا التعريف أن : الوصل والفصل خاص بالجمل. وهـــذا مـــا ذهـــب إليه عبد القاهر الجرجاني في الدلائل ، والخطيب في الإيضاح والعلوي في الطراز ، وابن قيم الجوزية.

ومن ثم قيل عن هذا التعريف: إنه مختص بنوع من الفصل والوصل وهو الواقع بين الجمل، لا أنه تعريف لحقيقة الفصل والوصل مطلقاً، وإنما قـــيل فـــي التعريف (بعض الجمل) والمراد جنس الجمل يشمل التعريف العطـــف الواقـــع بيـــن جملتين فقط، والواقع بين الجمل المتعددة كعطف جملتين على جملتين. فإنه ربما لا تتناسب جمل أربع مترتبة بحيث تعطف كـــل واحـــدة على ما قبلها بل تتناسب الأوليان والأخريان فيعطف في كل اثنتيـــن أولاً، ويعطـــف الأخـــريان على الأوليين. لأن مجموع الأخريين يناسب مجموع الأوليين، ولو قيل في التعريف:

الوصل : (عطف جملة على جملة) لم يشمل هذه الصورة المذكورة هنا والظاهر أن ما ذكره الزمخشري عند قوله تعالى:﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فـــي سورة البقرة من قوله: "إن هذا من عطف قصة ثواب المؤمنين على قصـــة المنافقيـــن يصلح مثالاً لعطف مجموعة جمل على مجموعة جمل أخرى.

هـذا وقـيل فـى التعريف (عطف بعض الجمل) بدلاً من أن يقال (عطـف الكلام) ليدخل فى الفصل والوصل الصفة والصلة مما لا يشمله الكلام، بناء على أنه لابد أن يكون مقصوداً لذاته[1].

والمـراد بقوله: "الفصل ترك عطف بعض الجمل على بعض" يعنى مما شأنها العطف، إذ لا يقال لترك عطف الجملة الحالية على جملة قبلها إنه فصل. لأنه ليس من شأن الجملة الحالية العطف على ما قبلها.

اختصاص العطف بالواو دون غيرها:

ويـنظر علمـاء البلاغة فى الفصل والوصل باعتبار أن كلاً منهما خـاص بالعطف بالواو وتركه، دون غيره من حروف العطف، نظراً لأن حروف العطف غير الواو تستعمل بناءً على ما تفيده من معانيها النحوية المعـروفة، كإفـادة العطف بالفاء الترتيب بغير مهلة، و(ثم) الترتيب مع الـتراخى. فإذا عطفت بواحدة منها الجملة على الجملة ظهرت الفائدة فإذا قلت: أعطانى فشكرته، ظهر من العطف بالفاء أن الشكر كان معقباً على العطاء ومسبباً عنه. وإذا قلت : خرجت ثم خرج زيد، أفاد العطف بثم أن خروجه كان بعد خروجك بمهلة، وإذا قلت : محمد يُعطيك أو يكسوك دل العطـف بأو، على أن محمد يفعل واحداً غير معين من العطاء أو الكسوة دون أن يجمع بينهما معاً.

---

(١) حاشية الدسوقى ٣/٤.

أما الواو : فإنها عند العطف بها خاصة فى الجمل التى لا محل لها من الإعراب تحتاج إلى اعتبار آخر، غير كونها للتشريك فى الحكم الذى يقتضيه الإعراب يسوغ عطف هذه الجمل على بعضها.

فـإذا قلـت جاءنى زيد وعمر ولم تفد بالواو شيئاً أكثر من إشراك عمـرو فـى المجئ الذى أثبته لزيد والجمع بينهما فى هذا المجيء وهذا يحـتاج إلى جانب الاشتراك فى الحكم الإعرابى إلى معنى آخر يجمعهما وهـو المسمى بالمناسبة التى سوغت العطف– وهى فى هذا المثال كون زيـد وعمـرو كالنظيرين أو الشريكين. ولذلك وقع الإشكال فى العطف بالواو أو تركه.

سر قصرهم العطف على الجمل التى لا محل لها من الإعراب:

هـذا وقد قصروا البحث فى هذا الباب على الجمل التى لا محل لها مـن الإعراب، لأن دقة الفصل والوصل تظهر فى عطف هذه الجمل أو عـدم عطفها؛ ولأن كونها لا محل لها من الإعراب يجعل عطفها أو ترك عطفهـا يكـون لغير التشريك فى الحكم الإعرابى بخلاف المفرد والجمل التى لها محل من الإعراب، فإن عطفها بالواو أو بغيره فى الغالب يكون لقصد التشريك فى الحكم وهذا مما يسهل.

وإذا كـان عطف الجمل التى لا محل لها من الإعراب لا يقصد به التشـريك فى الحكم، فإنها تحتاج إلى اعتبارات أخرى مناسبة تجعل هذا العطف مقبولاً كما تحتاج إلى اعتبارات تدل على أن الفصل هو المقصود عند الذهاب إليه.

مثال ذلك: زيد قائم وعمرو قاعد، فإن العطف هنا لغير التشريك فى الحكم. ومن ثم يحتاج للوقوف على الاعتبار الذى سوى هذا العطف، وهو هـنا: اتحـاد الجملتيـن فى الخبرية مع وجود مناسبة بين الجملتين وهى التضـاد بين القيام والقعود من جهة وكون عمرو بسبب من زيد من جهة أخـرى. وقـد تحـدث البلاغيون عن هذه المناسبة المسوغة للعطف بين الجمل وعابوا على من لم يراع تلك المناسبة.

يقول عبد القاهر الجرجانى: "لا نقول : زيد قائم وعمرو قاعد حتى يكـون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأول عناه أن يعرف حالة الثانى ... فلا تجئ حتى يكون المعنى فى هذه الجملة لفقاً لمعنى فى الأخرى ومضافاً له مثل : إن زيداً وعمراً –فى المثال المذكور– إذا كانا أخوين أو نظيرين كالحال التى يكـون عليها أحدهما من قيام أو قعود مضمومة فى النفس إلى الحال التى علـيها الآخر، وهكذا. والمعانى فى ذلك كالأشخاص فإنما قلت مثلاً العلم حسـن والجهل قبيح لأن حسن العلم مضموم فى النفوس إلى كون الجهل قبيحاً. (١)

ولذلك إذا عطفت على الأولى شيئاً ليس منه بسبب ولا هو مما يذكر بذكـره ويتصـل حديثه بحديثه لم يستقم ذلك العطف. فلو قلت : "خرجت

---

(١) ويـرى بعض الباحثين أن هذا الاعتبار غير قاصر على الجمل التى لا محصل لها من الإعـراب فقـط، وإنما مراعاة هذا الاعتبار يتعلق أيضاً بعطف المفرد أو فصله. وكذا الجمـل التى لها محل من الإعراب. وقد ضربوا أمثلة لذلك. وسيأتى الحديث عنها بعد ذكر بعض الضوابط.

الـيوم مـن داري" ثـم قلت : "وأحسن الذي يقول بيت كذا" أي بيت من الشعر. قلت ما يضحك منه. ومن هنا عابوا على أبي تمام قوله:

لا والـذي هو عالم أن النوى ... مـر وأن أبـا الحسـين كريم

لأنـه لا مناسـبة بيـن كـرم أبي الحسين ومرارة النوى ولا تعلق لأحدهما بالآخر[1].

ويذكـر الدكـتور محمد أبو موسى أن الغيب موجود في هذا البيت سواء وجد العطف أم لم يوجد، لانقطاع الصلة بين المعنيين ولذا يقول :

"فالانقطاع أي بين المعنيين إذا لم يكن له مغزى ، فإنه يكون عيباً لا محالـة وجدت واو الوصل أو سقطت. لأن العلة ليست في الحقيقة راجعة إلـى العطـف، وإنمـا لأن الكـلام قرن عناصر من المعاني والأحوال والخواطـر لا تقترن. ونقل القارئ نقلاً مفاجئاً من مرارة النوى إلى كرم أبي الحسين، وهذه وثبة فيها جفوة عاقت تحدر الكلام. فهذا الكلام المقطع الأوصال غريب على أصول اللسان ساقط عند أهل الاعتبار ولا يرتضي الدفاع عن الشاعر في هذا وأمثاله.

وقـد دافع البعض عن أبي تمام بأن الجامع هنا خيالي لتقارن مرارة الـنوى وكرم أبي الحسين في خيال أبي تمام، أو وهمي ، وهو ما بينهما مـن شـبه التضـاد، لأن مرارة النوى ضد لحلاوة الكرم. ولكن كل هذا تعسف ومحاولة اختلاق أعذار لا تتناسب وطبيعة اللسان العربي.

- تنبـيه ! إتمامـاً للفـائدة نذكر هنا أنواع الجمل التي يتكون منها الكلام العربي.

---

(١) الدلائل ٢٢٤-٢٢٦.

أنواع الجمل

والضـــابط فى ذلك : أن الأصل فى الجملة أن لا يكون لها محل من الإعــراب وإنمـــا يكـــون لها محل من الإعراب إذا صح أن يسد المفرد مسدها. والجمل التى لها محل من الإعراب سبع.

١- الجملـــة الخـــبرية : زيد أبوه قائم ، فمحل(أبوه قائم) هو الرفع. وإذا دخلت كان هنا كان محلها النصب (محل الجملة).

٢- الحالية : جاء زيد وهو يضحك، ومحلها هنا النصب دائماً.

٣- الواقعـــة مفعـــولاً إمـــا محكياً بالقول مثل : إنى عبد الله، أو فى محل المفعول الثانى من باب ظن مثل: ظننت زيداً يقوم، أو معلقاً عنها نحو : "لنعلم أى الحزبين أحصى".

٤- المضـــاف إليها : "هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم". وقوله تعالى: "يوم هم بارزون" ومحلها الجر.

٥- الواقعـــة جواب شرط بالفاء، مثل : ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ أو بعـــد إذا الفجائـــية، مثل : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ومحلها الجزم.

٦- الجملـــة الـــتابعة للمفـــرد كالجملة الموصوف بها. وهى على حسب موضوعها.

٧- الجملة التابعة لجملة لها محل نحو: زيد قام وقعد[١].

(١) انظر -يا رعاك الله- مغنى اللبيب ٤١٢/٢ وما بعدها.

أما الجمل التى لا محل لها من الإعراب فهى سبع أيضا :

١- الابتدائية (المستأنفة) كزيد قائم، مات فلان -رحمه الله- ويخص البيانيون* الاستئناف لما كان جواب المقدر نحو : "قالوا سلاماً قال سلام".

٢- الجملة المعترضة. وتقع بين الفعل ومرفوعه[1]، أو بينه وبين مفعوله وبين المبتدأ وخبره، وبين الشرط وجوابه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ ومثل : "**فإن لم تفعلوا**".

٣- التفسيرية، وهى الفضلة الكاشفة لحقيقة ما تليه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٤- الجملة المجاب بها القسم قال تعالى: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ **وقوله تعالى** : ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾.

٥- الجملة الواقعة جواباً لشرط غير جازم مطلقاً ، كجواب لو ولولا ولما وكيف. أو لشرط جازم ولم تقترن بالفاء ولا بإذا الفجائية مثل : إن تقم أقم.

٦- الواقعة صلة لاسم أو حرف، فالأول : جاء الذى قام أبوه فالذى فى موضع رفع والصلة لا محل لها. والثانى مثل : أعجبنى أن قمت.

٧- الجملة التابعة لما لا محل له فى الإعراب نحو : قام زيد ولم يقم عمرو إذا قدرت الواو عاطفة[2].

* علماء البيان.

(١) مغنى اللبيب ٢/٣٨٧ وما بعدها.

(٢) انظر مغنى اللبيب ٣٨٢ وما بعدها.

رأى السكاكى:

وقد ذهب السكاكى إلى أن كلاً من الوصل والفصل يأتى فى عطف الجمـــل بأنواعهـــا وفى المفردات، وفى العطف بالواو وغيره من حروف العطــف، وأن المعول عليه فى ذلك هو الجهة الجامعة، فمتى وحدت هذه الجهة صح العطف فى الجمل وغيرها كقولك : الشمس والقمر ، والسماء والأرض، و الجـــن والإنـــس كـــل ذلك محدث. فالذى سوغ العطف ليس مجرد التشريك فى الحكم الإعرابى ، وإنما لوجود الجهة الجامعة بين هذه الأشياء وهى كونها جميعاً محدثة.

ومـــتى فقدت هذه الجهة الجامعة امتنع العطف، فلا يصح أن تقول: الشـــمس ومرارة الأرنب ودين المجوس كلها محدثة، لأنه لا مناسبة بين الشمس ومرارة الأرنب، وبينهما وبين دين المجوس.

وقـــد تبع السكاكى فى ذلك الدسوقى فى حاشيته على شرح السعد ٣/٣، وكذا تبعه بهاء الدين السبكي في عروس الأفراح ٣/٥.

هـــذا وسنسير مع جمهور البلاغيين فى حديثهم عن الفصل والوصل فـــى الجمل التى لا محل لها من الإعراب، كما سنحاول ذكر أمثلة مع كل لون لبعض الجمل التى لها محل من الإعراب حتى تتم الفائدة.

وقبل الحديث عن الجمل التى لا محل لها من الإعراب نتوقف قليلاً عند عطف المفرد أو ترك عطفه، وكذا الجملة التى لها محل من الإعراب لتعرف الدقائق التى ذكرها البلاغيون فى هذا العطف أو تركه.

القول بعطف المفرد والجملة التى لها محل إعرابي:

وممن ذهب إلى القول بشمول الفصل والوصل للمفرد الدسوقى بقوله: "الظاهر من تعريف الفصل والوصل أنهما لا يجريان فى المفردات وليس كذلك، بل الفصل والوصل كما يجريان فى الجمل يجريان فى المفردات، ولا يختصان بالجمل كما يوهمه كلام المصنف (أي السعد فى التلخيص) فإن كان بين المفردين جامع وصلتهما كما إذا كان بينهما تقابل نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ فقد جاء الوصل فى الآية لدفع توهم عدم اجتماع كل منهما(١).

---

(١) ويعلل العلوى سر عطف هذه الصفات بقوله : "جاءت الآية بالواو لأنها متضادة المعانى فى أصل الوضع ، فلهذا جاءت الواو رافعة لتوهم من يستبعد ذلك فى ذات واحدة لأن الشئ الواحد لا يكون ظاهراً باطناً فى وجه واحد، فلأجل هذا حسن العطف، ولهذا جاء العطف فى قوله تعالى: "ثيبات وأبكاراً" لما بين البكارة والثيوبة فى التناقض فجاء العطف لرفع التناقض، بخلاف ما تقدمهما فى الصفات فقد جاءت معدودة فى غير عطف، لعدم التناقض بينهما من جهة، ولقيام هذه الصفات مقام الموصوف من جهة أخرى، وتلك الصفات هى قوله تعالى : "عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً". ومثلها فى مجئ الصفات غير معطوفة إذا لم تكن متضادة، ومعطوفة عند التضاد وقوله تعالى: "التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ" فقد جاءت الصفات فى أول الآية من غير عطف -كما قال الزمخشرى "للإشارة أنهم الجامعون لهذه الخصال"- وهذا يدل على أنها مجتمعة منهم وكأنها صفة واحدة، وجاء العطف فى آخرها لتضاد الصفتين. وأما عطف الصفات فى قوله تعالى: " الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ" فقد ذكر الزمخشرى أن العطف هنا للدلالة على كمالهم

أو كان بينهما شبه تماثل كقوله :

ثلاثــة تشــرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو اسحاق والقمر

لها.

فــي كل واحدة منها على حدة وقد عقب د/ محمد أبو موسى على ما ذكره العلوى فى مجــئ الــواو فى الصفات عند التضاد وتركها عن عدمه بقوله: "إن الصفات المتضادة تأتى فى كلام العرب من غير واو كما فى قول امرئ القيس :

مكــر مفــر مقــبل مدبــر معــا   كجلمــود صــخر خطة السيل من عل

كمــا تقع الواو بين الصفات غير المتضادة كثيراً كما فى : "الصابرين والصادقين" ومن ثــم فالإشكال يتمثل فى التعرف على سر مجئ الواو حين تجئ وسر تركها حين تترك، فترك الواو لا يكون عبثاً وإنما وراءه إيحاء بما تعتلج به المعانى، انظر إلى قول المتنبى يمدح عبد الواحد بن العباس:

الحــازم الــيقظ الأغــر العــالم   الفطــن الألــد الأريحــى الأروعــا

الكاتــب اللــبق الخطيــب ....

فلا نقف عند مجرد القول بأن هذه الصفات جاءت بغير عطف لأنه الأكثر، ولكن ينبغى أن نجــتهد فــى لمــح شئ آخر وراء هذا التعداد، هو فيما نظن: الإشارة إلى أن هذه الصفات كأنها تلاقت فى داخلها، وشكلت صفة واحدة تشتمل عليها دون أن يكون هناك إشــعار بأنهــا صفات متغايرة -وإن كانت كذلك فى الواقع- ولو جاءت الواو لأشعرت بتغير هذه الصفات واستقلالها وتعددها، فالمغايرة لا تنفك عن الواو، وحين تسقط الواو مــن بيــن الصفات تجتمع تلك الصفات من غير جامع، وحين تذكر تجتمع الصفات بها وبيــنها فــرق لطيف وهكذا قول امرئ القيس، فالمراد أن هذه الصفات تجتمع عليه من غــير أن تكون مستقلة ومتغايرة يجمعها جامع، وهذا يعنى أنها تلتقى معاً وهذا هو سر حســنها فــى وصف الفرس، وبيان أن ذلك يكون منه فى وقت واحد، ولو قال : مقبل ومدبــر لمــا جــاز أن يقول معاً لأن الواو تؤذن بتميز الحدثين واستقلالهما. وكذا قوله تعــالى: "لَــيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ، خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ" أى تخفض وترفع ويقع منها الفعلان فى زمن واحد.

فبين الأمور الثلاثة فى الشطر الثانى شبه تماثل، هذا وقد فصلت جملة شمس الضحى.. عما قبلها لأنها مفسرة للجملة قبلها فهى تتمة لما قبلها.

ثم يقول الدسوقى: وإن لم يكن بن المفردين جامع فصلتهما كما فى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ فقد فصلت هذه المفردات عن بعضها للدلالة على كون كل واحد منها مستقلاً بذاته فى الدلالة.

كما يذكر ابن يعقوب المغربى: أنهم جوزوا ترك العطف فى الأخبار كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وكذا فى الصفات المتعددة مطلقاً، بل هو الأحسن فيها ما لم يكن فيها إيهام التضاد كقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وقال عن هذه الآية: وإنما استحسن العطف عند إيهام التضاد هنا لينغم الجمع ونفى التناقض.

ومن أمثلة عطف الفرد على مثله لوجود الجهة الجامعة بينهما قولك: جاء زيد وابنه وتكلم عمرو وأبوه، فالجهة الجامعة فى المثالين التضايف، بخلاف ما لو قيل جاءنى زيد وحمار، فإنه لا يقبل فيه العطف؛ لعدم وجود جهة جامعة بين زيد والحمار، وذلك لأن الجمع بينهما فى هذا المثال كالجمع بين الضب والنون مع عدم التناسب لأن النون وهو الحوت حيوان بحرى، والضب برى فلا مناسبة تجمعها وكذلك قولك: زيد طويل وكاتب لأنه لا مناسبة بين الكتابة والطول. فليس مجرد الاشتراك فى الحكم مما يصحح العطف فى المفردات فقولك زيد طويل وشاعر، وقولك زيد طويل

شـاعر، في الفساد سواء لأنه لا ارتباط بين الشاعرية والطول سواء جاء معطوفـية أو مفعولـية بل لابد من أن يكون الاقتران بين الألفاظ خاضعاً لتناسق المعاني وملائماً لدلالاتها.

ومـن أمـثلة عطف الفرد على المفرد لوجود الجهة الجامعة -وهى الـتقابل- قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ فالجـامع المسوغ للعطف هنا التقابل بين (ما يلج - وما يخرج) وبين (ما ينزل وما يعرج).

يقول العلوى:

إعلم أن العطف على نوعين: عطف مفرد على مفرد وعطف جملة على جملة.

فأما عطف المفرد على المفرد فيستفاد منه مشاركة الثاني للأول فى الإعراب رفعه ونصبه وجره وجزمه، فأما الصفات فالأكثر أنه لا يعطف بعضها على بعض كقولك مررت بزيد الكريم العاقل الفاضل، وقل العطف فـيها لانهـا جاريـة مجـرى الموضوف، ولهذا فإنه يمتنع عطفها على موصـوفها، فلا يجوز أن تقول: جاءني زيد والكريم على أن الكريم هو زيـد لاستحالة عطف الشئ على نفسه ويجوز عطف بعضها على بعض باعتـبار المعـانى الدالة عليها، ولهذا تقول: مررت بزيد الكريم والعاقل والعـالم، وكأنك قلت: مررت بشخص اجتمع فيه الكرم والعقل والعلم، فقد اجتمع فى الصفة ودلالتها على الموصوف ودلالتها على معنى فى الذات،

ولأجـل تلك المعانى التى تدل عليها جاز العطف ولأجل كونها دالة على الذات قل فيها عطف بعضها على بعض، وتعذر عطفها على الموصوف.

فأمـا الأوصاف الجارية على الله تعالى فقلما يأتي فيها العطف وما ذاك: لا لأنها أسماء دالة على الذات باعتبار هذه الخصائص لها، ومرافقة للـذات فى عدم الأولية لها، ولهذا جرت مجرى الأسماء المترادفة كقوله تعـالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ ثـم قال: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ وقال: ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ فجاء بهـا علـى التعديد من دون الواو وجاءت معطوفة فى "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ" لأنـه متضادة المعانى، فجاء العطف لرفع توهم من يستبعد اجتماعهما فى ذات واحدة، لأن الشئ الواحد لا يكون ظاهراً باطناً فى وجه واحد.

وأمـا العطـف فـى قولـه تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ مع اشـتراكهما مع ما ذكر من بقية الصفات فى كونها فى الأوصاف الفعلية، فالسـر فى ذلك أن مجئ "غافر" عقيب "العزيز العليم" مع أنها من صفات الـذات فـ "غافر" من صفات الأفعال ، لأنها فى معناهما (أى فى معنى العزة والعلم) لأن من كان غالباً بالقدرة على كل شئ، وعالماً بحسن العفو ومزيد الإحسان، فهو الأحق باسقاط العقوبة، ولذا جاءت "غافر" بغير واو لانتظامها مع ما قبلها فى سلك واحد.

وأمـا مجئ (قابل التوتب) بالواو مع كونها من صفات الأفعال لأن معـنى الغافـر. من لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق (وهذا سلب) وقبول

التوبة (معناه إثبات) وهو قبول العذر والندم فلما كان بين المغفرة وقبول التوبة تضاد في المعنى جاءت الواو، وجمع بنيهما كذلك -مع أنهما من صفات الأفعال- لسر لطيف وهو "إفادة الجمع ليلائم بين رحمتين قبول توبته فتكتب طاعة، وجعلها إنحاءً للذنوب كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول ومن وجه آخر، فالمغفرة مختصة بالعبد والقبول مختص بالله وهما متغايران. وجاء (شديد العقاب ذي الطول) بغير واو لكون الأوصاف ملتئمة متناسبة يجمعها كونها من صفات الأفعال، كما جاء قوله تعالى ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ من غير واو لكونها جميعاً من الصفات الفعلية. أ هـ العلوي.

ويتلخص مما سبق : أن الصفة تكون جارية مجرى الموصوف وكأنها تكرار لذكر ذلك الموصوف، ولذا فهي من هذه الناحية لا تعطف، ومن ناحية أخرى لما كانت دالة على غير الذوات جاز العطف لتغاير هذه المعاني، فإذا قلت لقيت محمداً العالم والكاتب والشاعر، فالأصل عدم العطف نظراً لدلالة الثلاثة على محمد، وصح أن تعطف -كما هنا- نظراً لتغاير هذه الصفات.

وأما الأوصاف الجارية على الله تعالى فهي جارية مجرى الأسماء المترادفة ، وهذا دلالة على وحدتها من كونها دلت على الذات التي لا تتعدد، فإذا كان العطف قليلاً في عامة الصفات فإنه نادر جداً في صفات الله سبحانه وتعالى.

مجئ العطف فى الجمل أو تركه :

عرفت فيما سبق أن الجمل على قسمين: جمل لها محل من الإعراب، وجمل لا محل لها من الإعراب، وأن حديث الجمهور فى باب الفصل والوصل منصب على الجمل التى لا محل لها من الإعراب، ويأتى الحديث هنا عن نوعى الجمل وكيف يتأتى فى كل قسم منها الفصل أو الوصل، وسر كل واحد منهما فى نوعى الجمل.

أولاً: الجمل التى لها محل من الإعراب :

يذكر البلاغيون أنه إذا كان للجملة محل من الإعراب بأن تكون فى محل رفع خبرية، أو نصب كالمفعولية، أو جر كالمضاف إليها.

فإن قصد جعل الجملة الثانية مشاركة للجملة الأولى فى حكمها الإعرابى –من رفع أو نصب أو خفض أو جزم– وجب عطف الجملة الثانية على الأولى، لأن حكم هذه الجملة فى هذا كالمفرد عندما يراد إشراكه فى حكمه الإعرابى لسابقه، فإنه يعطف عليه[1].

وشرط كون هذا العطف مقبولاً فى باب البلاغة بالواو ونحوه ما يقتضى التشريك فى الحكم كالفاء وثم، أن يكون بين المتعاطفين جهة جامعة كما فى المفرد.

---

(١) والفرق بينهما (أى بين المفرد والجمل التى لها محل من الإعراب) كون الصفات المفردة كالشئ الواحد من الموصوف لعدم استقلالها ، بخلاف الجمل فإنها لاستقلالها لا بدل على تعلقها فيما قبلها إلا العطف.

والمـــراد بالجهة الجامعة : أن يوجد وصف له خصوص يجمع بين المتعاطفيـــن فـــي العقل أو العادة أو الوهم أو الخيال، ويقرب أحدهما من الآخـــر كالضدية مثلاً. ولا يكفى مطلق ما يجتمعان فيه كالحيوانية مثلاً، فإن هذا لا يعد جهة جامعة ، بل لابد من أمر خاص كصداقة معلومة بين المســند إليهما، وعداوة وأخوة وعلم وإمارة وشجاعة وغيرها، كما يصح الجمع بالاتحاد فى المسند إليه أو المسند.

ولذلك يذكر عبد القاهر: أنه إذا كان المخبر عنه فى الجملتين واحداً كقولـــنا هو يسئ ويحسن، ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهوراً لأنك فى المثال المذكور أوجبت له الفعلين جميعاً وجعلته يفعلهما معاً، ولو قلت يسئ يحسن من غير واو لم يجب ذلك بل قد يجوز أن يكون قولك "يحسن" رجوعاً عن قولك "يسئ" وإبطالاً له[1].

وإذا وقـــع الفعـــلان فى مثل هذا فى الصلة ازداد الاشتباك حتى لا يتصوز تقدير إفراد أحدهما عن الآخر وذلك مثل قولك: "أيحسن أن تنهى

---

(١) وفـــى قـــوله : "لا يجوز أن يكون قولك يحسن رجوعاً فى قولك يسئ" يقول السيد: فيه إشارة فائدة العطف بالواو فى جمل لا محل لها من الإعراب، فإنها إذا لم يعطف بعضها علـــى بعـــض احتملـــت الـــرجوع والإبطال ، وإذا عطفت فهم اجتماع مضموناتها فى الحصول بطريق النصوصية، وهذا يجرى فى بعض الصور والأحسن أن يقال الجملتان إذا لم يعطف إحداهما على الأخرى فهم اجتماع مضمونيهما فى الحصول بدلالة الفعل، وربمـــا لا تكون هذه الدلالة مقصودة للمتكلم، وإذا عطفت بالواو، فقد دل على الاجتماع بدلالة لفظية مقصودة، ثم إن هذه الدلالة لا تحسن فى كل جملتين مجتمعتين فى الواقع، بل فى جملتين متوسطتين بين غايتى الاتحاد والتباين (مطول ٢٥٠).

شئ وتأتي مثله" فالمعنى على جعل الفعلين في حكم فعل واحد، ومن البين في ذلك" :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم **وأن نكـف الأذى عـنكم وتؤذونـا**

المعـنى : لا تطمعـوا أن تـروا إكرامـنا قد وجد مع إهانتكم لنا، وجامعها في الحصول.

ومثال العطف : زيد يشعر ويكتب، وذلك لما بين الكتابة والشعر من جهـة جامعـة وهـي التناسب، فكلاهما إنشاء كلام أو صناعة بيانية مما يوجب اجتماعهما في العقل، ولذا صح العطف.

ومـن ذلك : زيد يعطي ويمنع ، لما بين الإعطاء والمنع من التضاد الموجـب للتلازم في المفكرة ، وتلك جهة جامعة ، لأن ضد الشئ أقرب خطوراً بالبال عند خطوره.

وهـذا بخلاف ما لو قيل : زيد يكتب ويعطي، أو يشعر ويمنع فإن العطف فيهما غير صحيح لعدم التناسب بين الكتابة والإعطاء في المقابل الأول، والشعر والمنع في المثال الثاني.

وقد سبق بيان عيبهم على أبي تمام قوله :

لا والـذي هـو عـالم ... .

لعدم المناسبة.

ومـن قولك: محمد يكتب الشعر ويأكل الحلوى، فإنه لا مناسبة بين كتابة الشعر وأكل الحلوى.

ومـــن أمـــثلة العطف قولك : مررت برجل خلقه حسن وخلقه قبيح، فالجهـــة الجامعة هنا هي التضاد بين حسن الخلق وقبح الخلقة، إلى جانب كـــون المســـند إلـــيه في الجملتين واحداً. ومن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ والمناســـبة بيـــن الجملتين الاتحاد في المسند إليه والتضـــاد بيـــن القبض والبسط، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالمســـند إليه في الجملة المعطوفة واحد مع وجود التضاد بينهما.

ومن ذلك قول الشاعر :

أنـــت أيقظتني وأطلقت عيني ... علـــى عـــالم مـــن الســـر أخفى

فقد عطف جملة وأطلقت .. على أيقظتني، لكونها في محل رفع على الخـــبرية، والمســـند إليه فيهما واحد مع ما بين اليقظة وإطلاق العين من التقارب.

ومنه قول الشاعر :

ولا زلت قد كنت تولى الجميل ... وتحمـــى الحـــريم وترعى النسب

حيـــث عطـــف تحمـــى الحرم على تولى الجميل التي هي في محل نصـــب خبر "لا زلت" والجامع : اتحاد المسند إليه فيهما مع ما بين إيلاء الجميل وحماية الحريم من مناسبة ظاهرة.

ومنه قوله الشاعر :

وحـــب العـــيش أعبد كل حر ... وعلـــم ســـاغباً أكـــل المـــرار

فقـد عطـف "علم" على "أعبد" لاشراكها معها فى الخبرية عن شئ واحد وهو: "حب العيش".

ما يترتب على عدم العطف من إشكال :

والجديـر بالذكر : أن من الباحثين من ذكر أن الجملة التى لها محل مـن الإعراب، ويراد تشريك الجملة الثانية معها، قد تشترك معها الثانية وهى غير معطوفة، وقولهم: "إن أردت التشريك عطفت" لا يفهم منه لزوم العطـف فى هذه الحالة وإنما يفهم منه أنك إذا لم ترد التشريك فلا تعطف لئلا يوهم العطف خلاف المراد.

وقولـه تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ تقـع فـيه الجملـتان الأخيرتان خبراً ، فهما تشاركان الأولى فى حكمها، وجاءتـا مفصـولتين، وكأن كل واحدة منهما آية مكتملة فى الدلالة على الحق جل جلاله.

قـال الزمخشـرى: "وهـذه الأفعـال مع ضمائرها أخبار مترادفة وإخلاؤها فى العاطفة لمجيئها على نمط التعديد كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذلك فما تنكر من إحسانه. فانقطاع الجمل هنا مشعر بأنها معان تعد كل واحدة منها على حدة وأنها تنهض بالغرض وحدها من غير أن ينضم إليها غيرها).

الفصل بين الجمل التى لها محل من الإعراب :

ويجـئ الفصـل بين الجمل التى لها محل من الإعراب لعدم قصد الاشـتراك فـى الحكم، ولذا يقول البلاغيون: وإن لم يقصد تشريك الثانية

للأولى في الحكم الإعرابي فصلت عن الأولى سواء كان بينهما جهة جامعة أم لا لئلا يلزم في العطف تشريك ليس بمقصود لاقتضائه خلاف المراد[١] مثل وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. لم يعطف " اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ" على قوله: " إِنَّا مَعَكُمْ "[٢] الذى هو حكاية لقولهم ، لأنه ليس من مقول المنافقين، ولو عطف عليه لزم تشريكه له لكونه مفعول "قالوا" فيكون حينئذ من مقول المنافقين وهو ليس كذلك، ولم يجعل الفصل هنا بين "الله يستهزئ بهم" وبين "إنما نحن مستهزئون" لأن قوله : "إنما نحن مستهزئون" بيان كقوله: "إنا معكم" فهو تابع، والعطف على المتبوع هو الأصل.

هذا وفصل: "إنما نحن مستهزئون" عن "إنا معكم" لما بينهما من كمال الاتصال لأنها من قبيل الجمل التى لا محل لها من الإعراب، وتلك حالة من حالات الفصل فيها[٣] على ما سيأتي.

---

(١) والحاصل أن الجملة التى لها محل من الإعراب إن لم يقصد تشريك الثانية للأولى فى حكمها الإعرابى وجب ترك العطف فى الواو وما يشبهها. وإن قصد فإن وجد الجامع عطفت وإلا وجب الترك أيضاً لانعدام الجامع، فالمعتبر فى باب البلاغة هو الجامع، فلو جعل الجامع محل التقسيم كان أنسب، لأن منع العطف لعدم التشريك تكفل به.

(٢) لأن لهذا محل من الإعراب مع كونه جزء القول، فهو معمول "قالوا".

(٣) يقول السيد: والحاصل أنه إن نظر إلى فصل "الله يستهزئ بهم" عما قبله ، فذلك فى الحكاية وفى جمل لها محل من الإعراب ولفظ الاعتبار استشهد به على فصلها عن إنا معكم وإن نظر إلى فصل "إنما نحن مستهزئون" عما قبله "إنا معكم" فذلك فى المحكى وفى جمل لا محل لها من الإعراب ، ولهذا الاعتبار يستشهد به للتأكيد أو البدل أو الاستئناف فى جمل لا محل لها من الإعراب.

وقد قيل : إن التبعية فى "إنما نحن مستهزئون" إما على التأكيد بناء على أن الاستهزاء بالاسلام يتضمن نفيه ويقتضى الثبات على العند، أو على كونها بدل اشتمال، لأن من استهزأ بالإسلام فقد حقره وعظم الكفر.

ويحتمل أن تكون جملة "إنما نحن مستهزئون" استئنافية فكأنه قيل لهم: إذا كنتم معنا فكيف تقرون بدين محمد، فقالوا : إنما نحن مستهزئون.

ومن قبيل الفصل لعم قصد التشريك فى الحكم الإعرابى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فصلت جملة "ألا إنهم" لأنها ليست من مقولهم، ووصلها يؤدى إلى أنها من مقول المنافقين ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾.

ثانياً : الجمل التى لا محل لها من الإعراب :

يقيس عبد القاهر أحوال الجمل فى فصلها ووصلها على أحوال المفرد فيقول: "واعلم أنه كما كان فى الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله فيستغنى بصلة معناه" عن واصل يصله وذلك كالصفة التى لا تحتاج فى اتصالها بالموصوف إلى شئ يصلها به، وكالتأكيد الذى لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد كذلك يكون فى الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتى قبلها وتستغنى بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهى كل جملة كانت مؤكدة للتى قبلها ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئاً سواها كما لا تكون الصفة غير الموصوف ، والتأكيد غير المؤكد، مثل قوله تعالى: "ذلك الكتاب لا ريب له" فقوله: "لا ريب فيه" تأكيد لما قبلها.

والمقصود من هذا الكلام: أن هناك جملاً تتصل بما قبلها اتصالاً داخلياً فلا تحتاج إلى عاطف يعطفها عليه، فكما لا يجوز أن تضم التوكيد إلى مؤكده بضام خارجي لا يجوز كذلك ضم الجملة المنزلة من التي قبلها منزلة التوكيد أو البيان بعاطف لكونهما كالشئ الواحد، ولأن الواو لا تقع بين الشئ ونفسه وإنما تقع بين متغايرين ومتناسبين لأنها تقتضى المغايرة والمناسبة.

ومقتضى المغايرة فى الواو ألا تدخل بين الشئ ونفسه، وإن حدث ذلك أوهم أنهما ليسا متغايرين. ومقتضى المناسبة في الواو ألا تدخلها بين المتباينين تمام المباينة(١).

وقد ذكر البلاغيون أن الجملة التي لا محل لها من الإعراب إن قصد فيها ربط الجملة الثانية بالأولى على معنى عاطف غير الواو عطفت الثانية على الأولى بذلك العاطف من غير اشتراط أمر آخر(٢) لظهور

---

(١) ولذلك ذكر عبد القاهر أن الواو فى المعاني كالوسيط فى الرجال فإذا اشتد ما بين الرجلين من صلة لا يحتاجان إلى واصل يصل بينهما، وإذا تنافر الرجلان غاية التنافر كان وجود الوسيط بينهما عبثاً وإنما يكون وجود الوسيط فى الحالة التى بين هذين الأمرين.

(٢) يعنى لا يشترط فى هذه الحروف وجود جهة جامعة لدلالتها علي معان مخصوصة، وقيل : يشترط وجود الجهة الجامعة عند عطف الجمل بهذه الحروف بدليل أنه لا يصح أن تقول: جالينوس طبيب ثم سورة الإخلاص من القرآن ثم إن القرد يشبه الآدميين. وفساد هذا المثال ليس لمجرد فقد الجهة الجامعة بل لعدم الارتباط بين أجزائه مختصاً بحال خلوهم إلى شياطينهم فقط، وليس ذلك مراداً ، بل المراد أن استهزاء الله بهم متصل لا انقطاع له بحال من الأحوال سواء خلوا إلى شياطينهم أم لا، وكذلك الحال فى قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ" وقوله : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا" لم يعطف عليهما ما بعدها لأنهم مفسدون فى جميع الأحوال قيل لهم لا تفسدوا أولاً، وسفهاء كذلك فى جميع الأحوال قيل لهم آمنوا أو لا.

الفائدة في العطف بهذه الحروف كما سبق توضيحه فتقول : دخل زيد فخرج عمر إذا أردت أن الخروج كان بغير مهلة. أو تقول : ثم خروج عمرو إذا أردت أن الخروج كان بعد مهملة، وتقول: يعطيك زيد وتيار أو يكسوك جبة، إذا أردت أن تخبر أنه يفعل واحداً منهما لا بعينه.

وإن لم يقصد ربط الثانية بالأولى على معنى عاطف سوى الواو. فإن كان للأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية وجب الفصل لئلا يلزم من الوصل التشريك في ذلك الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على "قالوا" لئلا يشاركه في الاختصاص بالظروف المقدم: "إذا خلوا" فيلزم من العطف أن يكون إستهزاء الله سبحانه بهم.

ويقول عبد القاهر عن سر الفصل في الآية بأسلوبه الأدبي : إنه لو عطف "الله يستهزئ بهم" على "قالوا" – المقيد بالشرط – كان المعنى : أنهم إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا .. ، فإذا قالوا ذلك استهزأ الله بهم ، وهذا غير مستقيم وذلك أن الجزاء إنما هو على نفس الاستهزاء وفعلهم له وإرادتهم إياه في قولهم : "آمنا" لا على أنهم حدثوا عن أنفسهم بأنهم مستهزئون ، والعطف يقتضي أن يكون الجزاء على حديثهم عن أنفسهم بالاستهزاء لا عليه نفسه.

ويرى عبد القاهر أن سبب الفصل هنا ربما كان لغرض آخر - غير قصد الاشتراك في الشرط - بأن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال والاستئناف فيقول : إن الحكاية - عن المنافقين - بأنهم قالوا كيت وكيت تحرك السامعين لأن يسألوا عن مصير المنافقين أينزل بهم العقاب؟ فكان "الله يستهزئ بهم" في معنى ما صدر جوابا عن هذا المقدر وقوعه في أنفس السامعين ، وإذا كان مصيرهم كذلك كان حقه أن يؤتى به مبتدأ غير معطوف ، ليكون في صورته إذا قيل : فإن سألتهم قيل لكم الله يستهزئ بهم ويمدهم.

والجدير بالذكر أن هذه الآيات الكريمة فيها خمسة مواضع للفصل والوصل وبيانها كالتالي :

١- الوصل في قوله تعالى : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا ..﴾ فقد عطفت جملة "وإذا خلوا" على ما قبلها لاتفاقهما في الخبرية ، وهذا من التوسط بين الكمالين ، وقد وجدت المناسبة المسوغة للعطف وهي اتحاد المسند إليه فيهما مع كون التصرفين من أحوال المنافقين ، وأن بين التصرفين تضاد في المعنى.

٢- الوصل في قوله تعالى : ﴿الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ فقد عطف قوله : "ويمدهم" على قوله : "الله يستهزئ بهم" لاتفاقهما كذلك في الخبرية والمسند إليه فيهما واحد وهو الله سبحانه ، كما أن المتعلق في الجملتين واحد وهو ضمير المنافقين الواقع مفعولاً.

٣- فصل قوله : "الله يستهزئ بهم" عن جملة "إنا معكم" التى لها محل من الإعراب ولم يقصد تشريك الثانية لها حتى لا يتناقض المعنى كما سبق توضيحه من أن يكون الكلام كله من متكلم واحد وليس كذلك.

٤- فصل قوله : "الله يستهزئ بهم" عن جملة "قالوا إنا معكم" وهى لا محل لهـا من الإعراب حتى لا تدخل معها فى حيز الشرط فيتناقض المعنى بـأن يكـون المـراد مع العطف أن الاستهزاء يكون فى وقت خلوهم وقولهم وليس كذلك كما سبق.

٥- فصل جملة : "إنما نحن مستهزئون" عن "إنا معكم" لما بينهما من كمال الاتصـال فقد قالوا إن الثانية مؤكدة للأولى ، أو بدل منها ، أو جواب عن سؤال فتكون من شبه كمال الاتصال.

ثم ذكر البلاغيون بعد ذلك ضوابط الفصل والوصل بين الجمل التى لا محل لها من الإعراب فقالوا :

إن الجملتيـن اللتين لا محل لهما من الإعراب إن كان للأولى منهما حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية منع العطف ، وقد تقدم آنفاً.

وإن لـم يكـن للأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية إما بأن لا يكون هناك حكم ، أو يكون حكم قصد إعطاؤه للثانية ففى ذلك ستة أقسام : أربعة توجب الفصل واثنان يوجبان الوصل.

أما مواطن الفصل الأربعة فهي :

١- أن يكـون بيـن الجملتين كمال الانقطاع بلا إيهام (خلاف المراد عند الفصل).

٢- وأن يكون بينهما كمال الاتصال.

٣- وأن يكون بينهما شبه كمال الانقطاع.

٤- أن يكون بين الجملتين شبه كمال الاتصال.

وأما موطنا الوصل في الجمل التي لا محل لها من الإعراب فهما :

١- أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع الإيهام.

٢- التوسط بين الكمالين (كمال الاتصال وكمال الانقطاع).

مواطن الفصل

١- كمال الانقطاع بلا إيهام :

قبل الحديث عن كمال الانقطاع لا بد من وقفة عند أمرين :

أولهمـــا : أنه ينبغي ألا نفهم من عبارة "كمال الانقطاع" أن مثل هذه الجمل المندرجة تحت هذا المصطلح لا رابط بينها أو أن العبارات مقطوعة الوشائج ، بل إن بين هذه الجمل روابط معنوية تصل ما بين الجمل ويكون الكـــلام مـــن خلالها متآلفاً متناسقاً لا عيب فيه وكيف لا يكون متناسقاً وقد جاء منه فى القرآن الكريم وفى أقوال النبى ﷺ وفصحاء العرب الكثير قال تعـــالى: ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾ (١)
وقال النبى ﷺ : **"يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية"**.

تعريفه:

هـــو الكلام الذى اختلفت فيه الجملتان خبراً وإنشاءً مما اقتضى ترك العطـــف فيها. والتسمية بـــ"كمال الانقطاع" لا يقدح فى ترابط هذه الجمل وتناسقها لأن هذا المصطلح قصد به ترك العطف بالواو ، دون القصد إلى تفكك الكلام ، وعند حديث د. محمد أبو موسى عن هذه القضية يستقى رأيا ممـــا ذكـــره بعض العلماء حول هذا فيقول : "لا يجوز أن يعلل فصل هذه الجمـــل بهذا المصطلح لأنه تعليل لا يحلل الأسلوب ولا يظهر ما بينه من روابـــط متيـــنة وحـــية ، ويتحقق فى الجملتين من الروابط ما يتحقق فى غـــيرهما ، فقد تكون جملة الإنشاء توكيداً للجملة الخبرية أو العكس ، وقد

(١) سورة الأنعام ١٠١.

تكـــون إحداهما واقعة موقع الجواب عن الأخرى ، وعلاقات المعانى بين الجمـــل لـــم تتأثر بأن هذه خبر وتلك إنشاء وإنما هما سواء فى ذلك ، وقد رأيـــنا من أهل التحقيق من يغفل هذه العلة اللفظية - يعنى مصطلح كمال الانقطاع - ويتجه إلى بحث العلاقة المعنوية بين الجملتين المختلفتين خبراً وإنشاء ، وهو العينى حيث يقول فى قول النبى ﷺ لأبى ذر - السابق - إن جملة "إنك امرؤ فيه جاهلية" ترك العطف فيها - ولم تعطف على "أعيرته بأمه؟" - لكمال الاتصال بين الجملتين ، فقد نزلت الثانية من الأولى منزلة التأكـــيد المعنوى من متبوعه فى إفادة التقرير مع اختلاف فى اللفظ ، ومن هـــذا القبـــيل قوله تعالى: ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ (١) فقاس العينى رحمـــه الله الجملتيـــن المختلفتين خبراً وإنشاء على الجمل التى بينها كمال الاتصال والمتفقة فى الخبرية.

هـــذا إلـــى جانب أن السيد الشريف قد أوضح أن هناك جامعاً يضم أطـــراف الكـــلام سواء ذكرت الواو أو لم تذكر وأن الواو حين تسقط من الكـــلام يجـــد العقل فى التقاط المشابهات بين المعانى والجمع بين أطراف الكلام ، وحين تذكر الواو تكون هى الدالة على هذا الجمع ، يقول السيد : الجملـــتان إذا لم يعطف إحداهما على الأخرى فهم اجتماع مضمونيهما فى الحصـــول بدلالـــة العقل ضرورة أن الأمور الواقعة فى نفس الأمر تكون مجـــتمعة فيها وربما لا تكون هذه مقصودة للمتكلم ، وإذا عطف بالواو فقد دل على الاجتماع بدلالة لفظية مقصودة. (٢)

---

(١) سورة البقرة ١ ، ٢.

(٢) دلالات التراكيب ٣٢٤- ٣٢٥ بتصرف.

وثانيهما : آراء العلماء فى عطف الإنشاء على الخبر وعكسه :

اختلف العلماء فى هذا فجمهور البلاغيين يمنعون ذلك وبعضهم فصل فمنع ذلك العطف فى الجمل التى لا محل لها من الإعراب وأجازه فى الجمل التى لها محل من الإعراب نظراً لكونها واقعة موقع المفرد وليست النسب بين أجزائها مقصودة بالذات فلا التفات إلى اختلاف تلك النسب بالخبرية والإنشائية ، وبعض اللغويين النحويين أجازوا ذلك واستشهدوا بأبيات من الشعر وآيات من القرآن الكريم لكن ابن هشام عرض لرأى المجيزين وناقشه وخرج ما استشهدوا به من أمثلة هذا العطف على صورة تخرجه من دائرة كونه عطف إنشاء على خبر.

والمعتمد فى ذلك منعه فى الجمل التى لا محل لها من الإعراب وجوازه فى الجمل التى لها محل من الإعراب كما ذكر السيد الشريف حيث توسط فى القضية ، وسأعرض لك آراء العلماء مفصلة هنا حتى تكون على بينة من الأمر.

يقول بهاء الدين السبكى[1] : واعلم أن الخبر والإنشاء المحضين لا يعطف أحدهما على الآخر فيجب الفصل بلاغة ، وأما لغة فاختلفوا فيه ، ونقل أبو حيان عن سيبويه جواز عطف المختلفين بالاستفهام والخبر مثل : هذا زيد ومن عمرو؟.

وحاصله أن أهل هذا الفن – أى البلاغة – متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ، ولا خلاف بين الفريقين لأنه عند من جوزه

---

(١) عروس الأفراح ٣/٢٦.

يجـــوزه لغـــة ولا يجوزه بلاغة[١] واختلفوا في باسم الله وصلى الله على محمد في إثبات الواو وإسقاطها ويقول الدسوقي : إن امتناع عطف الإنشاء علـــى الخبر باتفاق البيانيين باعتبار مقتضى البلاغة وما يجب أن يراعى فيها وأما عند أهل اللغة ففيه الخلاف.

وقال بعضهم إن من منع العطف من أهل اللغة فمنعه بالنظر للبلاغة ومـــراعاة المطابقة لمقتضى الحال ، ومن جوزه فتجويزه إذا لم تراع تلك المطابقـــة وحينـــئذ فتجويزه بالنظر للغة لا بالنظر للبلاغة فلا خلاف بين الفريقين ، وفيه نظر : لأن الجائز لغة إذا لم يكن نادراً لا ينافي البلاغة ، وإن أراد أن الفصـــل عند كمال الانقطاع واجب في مقام ، ممتنع في آخر فهذا مما لم يذكروه ولم يتعرضوا له أصلاً. [٢]

ويوافـــق ابـــن يعقـــوب المغـــربي السيد الشريف في رأيه فيقول : والجملـــتان اللـــتان لهما محل من الإعراب لا يوجب كمال الانقطاع فيهما فصلا لأنهما في معنى المفرد فلا تراعي فيهما النسبة التي بها يتحقق كمال

---

(١) لا يقصـــد السبكي هنا بعدم التجويز بلاغة أن ما جاء من ذلك من الشواهد وكان ظاهرة عطف الإنشاء على الخبر – ليس بليغاً ، بل يقصد أن أهل اللغة عندما جوزوا ذلك ربما وقفـــوا عـــند ظاهر العبارة ولم يدققوا في معناها أو يبحثوا في المراد منها وتلك وظيفة البلاغة ، حيث يقف البلاغيون عند الأغراض والدلالات التي نيطت بالمعاني الثانية ولا يقفـــون عـــند ظاهـــر الألفاظ وطالما وجد لمثل هذه الشواهد تخريجاً على وجه يجعلها وطالمـــا ليســـت مـــن قبيل عطف الإنشاء على الخبر فما المانع من الأخذ به طالما لا يـــتعارض مـــع المعـــنى المراد من العبارة خاصة وأن ابن هشام وغيره من المفسرين توصلوا إلى مثل هذا فيما ذكره المجيزون من شواهد وأخرجوها من دائرة هذا العطف.

(٢) حاشية الدسوقي ٢٩/٣.

الانقطـــاع الموجـــب للفصل ولذلك صح العطف في المحكيتين مع وجود كمالـــه فيهما باعتبار اصلهما كما في قوله تعالى: ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [١] ثـم يقـول: إن مـــنع العطف بين الإنشاء والخبـــر له ثلاثة شروط:

أ – أن يكون بالواو.

ب– أن يكون فيما لا محل له من الإعراب من الجمل.

جـــ– وأن لا يوهم خلاف المراد.[٢]

ويقول ابن عاشور[٣] : ولا يريبك عطف الإنشاء على الخبر لأن منع عطف الإنشاء على الخبر غير وجيه والقرآن طافح به.

ويعـــرض ابـــن هشـــام القضـــية عند المانعين ويرد على ما ذكره المجـــيزون من شواهد فيقول : منعه البيانيون ، وابن مالك في شرح باب المفعـــول معه من كتاب التسهيل وابن عصفور في شرح الإيضاح ونقله عن الأكثرين ، وأجازه الصفار (تلميذ بن عصفور) وجماعة مستدلين بقوله تعالى : ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [٤] ، وقوله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾. [٥]

---

(١) سورة آل عمران ١٧٣.

(٢) مواهب الفتاح ٢٨/٣.

(٣) معـــنى اللبيب ٤٨٢/٢ وما بعدها طبع الدار العصرية ، بيروت ، تحقيق محى الدين عبد الحميد.

(٤) سورة البقرة ، يعنى بعد قوله تعالى : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) فجملة (أعدت) خبرية (وبشر) إنشائية.

(٥) سورة الصف ١٣ ، يعنى بعد قوله تعالى : (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب).

وقال أبو حيان(١): وأجاز سيبويه (جاءني زيد ومن عمرو العاقلان)؟ على أن يكون (العاقلان) خبر المحذوف ، ويؤيده قوله(٢) :

وإن شفائي عبرة مهراقة ... وهل عند رسم دارس من معول؟

وقوله :

ناغى غزالاً عند باب ابن عامر ... وكحل مآقيك الحسان بإثمد(٣)

ثم يعلق ابن هشام بقوله : وأقول أما آية البقرة فقال الزمخشري :

أ- ليس المعتمد بالعطف الأمر (أي بشر) حتى يطلب له مشاكل ، بل المراد: عطف جملة ثواب المؤمنين على جملة ثواب الكافرين وكقولك: زيد يعاقب بالقيد وبشر فلانا بالإطلاق.

ب- وجوز عطفه (اتقوا) (أي على فاتقوا النار) ويضيف ابن هشام معقباً على كلام الزمخشري قائلاً: وأتم من كلامه في الجواب الأول (أ) أن يقال : المعتمد بالعطف جملة الثواب كما ذكر ، ويزاد عليه فيقال : أو الكلام منظور فيه إلى المعنى الحاصل منه ، وكأنه قيل : والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات فبشرهم بذلك ، (ومن ثم تكون الجملتان خبريتين). وأما الجواب الثاني (يعني عطف بشر على فاتقوا) ففيه نظر ، لأنه لا يصح أن يكون جواباً للشرط ، إذ ليس الأمر بالتبشير

---

(١) سيأتي أن أبا حيان نقل عبارة سيبويه خطأ.

(٢) سيأتي أن هل بمعنى النفي أو ما عنده من معول ، فتكون خبرية معنى ولا عطف فيها للإنشاء على الخبر.

(٣) سيأتي أنه ليس من قبيل الإنشاء على الخبر على تقدير فعل أمر قبل كحل.

مشروطاً بعجز الكافرين عن الإتيان بمثل القرآن ، ويجاب عن ذلك : بأنـــه قـــد علـــم أنهم غير المؤمنين ، فكأنه قيل : فإن لم يفعلوا فبشر غـــيرهم بالجنات ، ومعنى هذا : فبشر هؤلاء المعاندين بأنه لاحظ لهم من الجنة.

وقـــال الزمخشري في آية الصف : إن العطف علي (تؤمنون) [1] ؛ لأنه بمعنى آمنوا ، ولا يقدح في ذلك أن المخاطب بـــ (تؤمنون) المؤمنون وبـــ (ببشر) النبي ﷺ.

ولا أن يقال[2] في (تؤمنون) إنه تفسير للتجارة لا طلب ، وإن (يغفر لك) جواب الاستفهام تنزيلاً للمسبب منزلة السبب كما مر في بحث الجمل المفســـرة لأن تخالف الفاعلين لا يقدح تقول : (قوموا واقعد يا زيد) ولأن (تؤمـــنون) لا يتعين للتفسير سلمنا ، ولكن يحتمل أنه تفسير مع كونه أمراً وذلك بأن يكون معنى الكلام السابق : اتجروا تجارة تنجيكم من عذاب اليم كمـــا كـــان "فهل أنتم منتهون" في معنى (انتهوا) أو بأن يكون تفسيراً في المعـــنى دون الصناعة لأن الأمر قد يساق لإفادة المعنى الذي يتحصل من

(١) يعنـــت في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمـــنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمـــون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جـــنات عـــدن ذلـــك الفـــوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين).

(٢) يعني ولا يقدم فيه ان يقال.

المفسرة يقول : هل أدلك على سبب نجاتك؟ آمن بالله ، كما تقول : هو أن تؤمن بالله وحينئذ فيمتنع العطف لعدم دخول التبشير في معنى التفسير.

وقال السكاكي : الأمران (يعنى وبشر الذين آمنوا – وبشر المؤمنين) معطوفان على (قل) مقدرة قبل (يا أيها) وحذف القول كثير ، وقيل معطوفان على أمرين محذوف تقديره في الأولى : فأنذر ، وفي الثانية فبشر ، كما قال الزمخشري في "واهجرني مليا"[(١)] إن التقدير (لئن لم تنته) فاحذرني واهجرني لدلالة "لأرجمنك" على التهديد.

وأما : (وهل عند رسم دارس من معول) فهل فيه نافية مثلها "فهل يهلك إلا القوم الظالمون".

وأما (وكحل مآقيك) فيتوقف على النظر فيما قبله من أبيات ، وقد يكون معطوفاً على أمر مقدر ، ويدل عليه المعنى ، أى فافعل كذا وكحل ، كما قيل في "واهجرني مليا".[(٢)]

وأما ما نقله أبو حيان عن سيبويه فغلط فيه ، وإنما قال (أى سيبويه) (واعلم أنه لا يجوز : "من عبد الله"؟ وهذا زيد الرجلين الصالحين" رفعت أو نصبت ، لأنك لا تثنى إلا على من أثبته وعلمته ، ولا يجوز أن تخلط من تعلم ومن لا تعلم فتجعلهما بمنزلة واحدة ، وقال الصفار : لما منعها

---

(١) سورة مريم ٧٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/١٢٠ : وجملة "واهجرني مليا" عطف على جملة "لئن لم تنته لأرجمنك" وذلك أنه هدده بعقوبة آجله إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم ، وبعقوبة عاجلة وهى طره من معاشرته وقطع مكالمته..

سيبويه من جهة النعت علم أن زوال النعت يصححها ، فتصرف أبو حيان فى كلام الصفار فوهم فيه ، ولا حجة فيما ذكر الصفار ، إذ قد يكون للشئ مانعان ويقتصر على ذكر أحدهما لأنه الذى اقتضاه المقام.

ويفهـم من كل ما تقدم أنه لم يعطف الإنشاء على الخبر فى الأمثلة المذكـورة وأن المنع فى ذلك كما ذكره علماء البلاغة هو الأصح طبقاً لما ذكـر هنا من تقديرات أو تفسيرات من قبل علماء النحو والتفسير وأما ما انفـرد بـه الصفار فأرى أن ما ذكر من أقوال وتعليلات هنا يجعله غير صحيح.

وأمـا بالنسبة لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فيرى ابن هشام أنها لم يعطف فيها "وإنه لفسق" وهو خبر على "ولا تأكلوا" لأنها حينئذ تكون من قبيل عطف الخبر على الإنشاء وهو لا يصح وقـد أورد هـذه الآيـة تحت "عطف الاسمية على الفعلية وبالعكس" آراء العلمـاء فـى ذلـك وفى النهاية قال : ولو أبطل العطف لتخالف الجملتين بالإنشـاء والخبر لكان صوابا .. وإليك الكلام : يقول : فى عطف الإسمية على الفعلية ثلاثة أقوال :

١- أحدهـا الجواز مطلقاً وهو المفهوم من قول النحاة فى باب الاشتغال : "قـام زيد وعمرا أكرمته" إن نصب عمرا أرجح لأن تناسب الجملتين المتعاطفتين ، أولى من تخالفهما.

٢- الـثانى المنع مطلقاً حكى عن ابن جنى أنه قال فى قوله : عاضها الله غلاماً بعدها شابت الأصداغ والضرس.

نقـدر أن الضرس فاعل لفعل بمحذوف يفسره المذكور وليس بمبتدأ ثم قال ابن هشام ويصح هنا أن تقدر الواو للاستئناف.

٣- أنه لأبى على يجوز فى الواو فقط نقله عنه أبو الفتح فى سر الصناعة، وأضعف الثلاثة القول الثانى (أى المنع مطلقاً) وقد لهج به الرازى فى تفسـيره ، وذكـر فى كتابه فى مناقب الشافعى -رضى الله عنه- أن مجلساً جمعه وجماعة من الحنفية وأنهم زعموا أن قول الشافعى "يحل أكل متروك التسمية" مردود بقوله تعالى : ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾. (١)

فقـال : فقلت لهم : لا دليل فيها ، بل هى حجة للشافعى ، وذلك لأن ليست للعطـف لتخالف الجملتين بالإسمية والفعلية ، ولا للاستئناف لأن أصـل الواو أن تربط بين ما بعدها بما قبلها ، فبقى أن تكون للحال فتكون جملـة الحال مفيدة للنهى ، والمعنى : لا تأكلوا منه فى حالة كونه فسقاً ، ومفهومه ، جواز الأكل منه إذا لم يكن فاسقاً والفسق قد فسره الله بقوله "أو فسـقاً أهـل لغـير الله به" فالمعنى لا تأكلوا منه إذا سمى عليه غير الله ، ومفهومـه كلـوا مـنه إذا لم يسم عليه غير الله أ.هـ ملخصاً "يعنى كلام

---

(١) سورة الأنعام ١٢١ وجملة "وإنه لفسق" معطوفة على جملة "ولا تأكلوا" عطف الخبر على الإنشاء ، على رأى المحققين فى جوازه ، وهو الحق ، لا سيما إذا كان العطف بالواو ، وقـد أجـاز عطف الخبر على الإنشاء بالواو بعض من منعه بغير الواو، وهو قول أبى علـى الفارسى ، وأصبح بهذه الآية كما فى مغنى اللبيب وقد جعلها الرازى وجماعة : حالاً مما لم يذكر اسم الله عليه ، بناءاً على منع عطف الخبر على الإنشاء.

الـــرازى" وعقـــب ابن هشام على ذلك بقوله : ولو أبطل العطف لتخالف الجملتين بالإنشاء والخبر لكان صواباً.

وقد وضح السيد الشريف القضية بصورة جلتها حيث يرى أن عطف الإنشاء على الخبر جائز فى الجمل التى لها محل من الإعراب بخلاف ما لا محـــل له مـــن الإعراب فإن هذا العطف فيها غير جائز وجاء ذلك فى تعقيـــبه علـــى ما ذكره سعد الدين فى قولهم "هو حسبي ونعم الوكيل" وفى قول الشاعر :

"فقـــال رائدهم أرسوا نزاولها" عندما عد ذلك من كمال الإنقطاع وقد نقلـــت هـــنا كلام السعد فى الموضعين وتعقيب السيد الشريف عليهما بما يوضح القضية ففى كلام السعد عن "هو حسبي ونعم الوكيل" قال السعد إن "نعم الوكيل" عطف إما على جملة "وهو حسبي" والمخصوص محذوف كما فى قوله تعالى : "نعم العبد" فيكون من عطف الجملة الفعلية الإنشائية على الإسمية الإخبارية.

وأما عطف على "حسبي" أى وهو نعم الوكيل ، وحينئذ فالمخصوص هـــو الضمير المتكلم كما هو صرح به صاحب المفتاح وغيره فى قولنا : زيـــد نعم الرجل ، ثم عطف الجملة على المفسر وإن صح باعتبار تضمن المفرد معنى الفعل كما فى قوله تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً﴾ علـــى رأى – لكنه أى ونعم الوكيل فى الإعراب الثانى وهو العطف على حســـبي فى الحقيقة من عطف الإنشاء على الإخبار وعلق السيد الشريف علـــى ذلك فقال : استصعب السعد عطف "ونعم الوكيل" على "وهو حسبي"

والأمثلة هين لأنا نختار أولاً أنه معطوف على مجموع جملة "وهو حسبى" لكنا نقدر في المعطوف مبتدأ بقرينة ذكره سابقاً أى وهو نعم الوكيل ، فيكون جملة اسمية خبرية متعلق خبرها جملة فعلية إنشائية ولا شبهة فى صحة عطفها على الجملة الإسمية الخبرية السابقة ، ومن ثم لا يكون من عطف الإنشاء على الخبر ونختار ثانياً : أنه معطوف على حسبى ، ولا حاجة إلى اعتبار تضمنه معنى "يحسبني ويكفيني" فإن الجمل التى لها محل من الإعراب واقعة فى موقع المفردات ويجوز عطفها على المفردات وعكسه ، ويحسن إذا روعى فى التفنن ، نكتة كما فى قوله تعالى: ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد﴾. [1]

فإن "وجيهاً" و "ومن المقربين" و "ويكلم الناس" أحوال من "كلمة" كما صرح به فى الكشاف وقد عطف بعضها على بعض وعدل فى التكلم إلى صيغة الفعل تنبيهاً على تجدده فهنا عدل إلى الجملة الفعلية الدالة على المدح العام مبالغة فيه.

وأما قول السعد "لكنه فى الحقيقة من عطف الإنشاء على الإخبار فجوابه : أن ذلك جائز في الجمل التى لها محل من الإعراب نص عليه الزمخشرى في سورة نوح ومثله بقولك : قال زيد نودى للصلاة وصل في المسجد وكفاك حجة قاطعة على جوازه قوله تعالى : ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

(١) سورة آل عمران.

فإن هذه الواو من الحكاية لا من المحكي ، أي قالوا "حسبنا الله وقالوا نعم الوكيل" وليس هذا الجواز مختصاً بالجمل المحكية بعد القول إذ لا يشك فيه من له مسكة من عقل في حسن قولك : زيد أبوه صالح وما أفسقه! وعمرو أبوه بخيل وما أجوده ، وقد توهم السعد في باب الفصل الوصل ، أن اختلاف الجمل إخباراً وإنشاء يوجب كمال الانقطاع بينهما وإن كانت محكية بعد القول "وذلك في قول الشاعر وقال رائدهم أرسو نزاولها .. البيت".(١)

وفي رد السعد عن الاعتراض من أن يكون البيت ليس من كمال الإنقطاع في الجمل التي لا محل لها من الإعراب ، لأن جملة "ارسوا" في محل نصب مفعول قال ، قال السعد : أشار المصنف إلى تحقق كمال الإنقطاع من غير نظر إلى كونه بين جملتين يكون لهما محل من الإعراب أو لا يكون فهذا مثال لمجرد كمال الإنقطاع بين الجملتين.

ويعقب السيد على كلام السعد هنا مبيناً وجهة نظره ومضيفاً إلى ما ذكره آنفاً في هذا الصدد فيقول : واختلاف الجملتين خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى لا يوجب الفصل بينهما إذا كان للأولى محل من الإعراب ، كيف وقد ورد العطف في الجمل المحكية : (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وقد مر أن العلامة الزمخشري نص على جواز العطف هنا في سورة نوح ومثله بقولك : قال زيد نودي للصلاة وصل في المسجد.

---

(١) حاشية السيد على المطول.

ويدل على جوازه أيضاً أنهم قالوا إن الجملة الأولى إما أن يكون لها محل من الإعراب أولاً ، وعلى الأول : إن قصد تشريك الثانية للأولى في حكم ذلك الإعراب عطفت عليها كالمفرد.

وذكـــروا أن هذا العطف بالواو يكون مقبولا بين الجملتين إذا وجدت جهـــة جامعة على قياس العطف بين المفردين ، فقد جعلوا الجمل التى لها محل من الإعراب في حكم المفردات واكتفوا بالجهة الجامعة ، ولم يلتفتوا فـــي هـــذا القسم إلى الاختلاف خبراً وإنشاء بناء على ظهور فائدة العطف بـــالواو أعني التشريك في الحكم ، وإنما اعتبروا ذلك الاختلاف ونحوه في القسم الثاني وهو ألا يكون للجملة الأولى محل من الإعراب ، فلو كان تلك الأحـــوال – أعني كمال الإنقطاع ونظائره – جارية في القسمين لكان ذلك التقسيم وتخصيص اعتبار تلك الأحوال بالقسم الثاني ضائعاً.

ويرد على من يقول : ان اختلاف الجملتين خبراً وإنشاء يوجب كمال الإنقطاع سواء كان للأولى محل أم لا ؟ بقوله : الجمل التى لها محل من الإعـــراب واقعة موقع المفرد وليست النسب بين أجزائها مقصودة بالذات، فـــلا التفات إلى اختلاف تلك النسب بالخبرية والإنشائية بخلاف مالا محل لهـــا مـــن الإعـــراب فإن نسبها مقصودة بذواتها فيعتبر أحوالها العارضة لها.[1]

---

(١) مطول ٢٥٢.

هذا ويأتى كمال الانقطاع بين الجمل فى صورتين :

أ-اختلاف الجملتين خبراً وإنشاء لفظا ومعنى ، أو معنى فقط ، كأن تكون إحـــدى الجملتيـــن خبراً لفظا ومعنى والأخرى إنشاء لفظا ومعنى ، أو تكون إحداهما إنشائية لفظا خبرية معنى أو العكس.

فمثال اختلافهما خبراً وإنشاء لفظا ومعنى قول الشاعر :

وقـــال رائدهـــم أرســـوا نزاولها ... فكل حتف امرئ يجرى بمقدار(١)

ومعنى أرسوا : أى أقيموا بهذا المكان الملائم للحرب ، ونزاولها أى نحاول أمر الحرب ونعالجها ، فقوله : (أرسوا) جملة إنشائية لفظا ومعنى ، و (نزاولها) جملة خبرية لفظا ومعنى.

---

(١) وإنمـــا جعلـــوا هذا المثال لمطلق كمال الانقطاع لأنه قد اعترض على كونه مثالاً لما لا محـــل له من الإعراب لأن الجملتين فيه لهما محل من الإعراب لأنهما معمولتان لقال ، وحينئذ فالتمثيل غير مطابق ولذا أجابوا عن ذلك بأنه تمثيل لكمال الانقطاع بين الجملتين مع قطع النظر عن كونهما معاً لا محل لهما من الإعراب وقالوا عن كمال الانقطاع إذا كان فيما ليس له محل من الإعراب وجب الفصل ، وإذا كان فيما له محل من الإعراب لا يجب الفصل لأن الجمل فيه فى معنى المفرد فلا تراعى فيهما النسبة التى يتحقق بها كمـــال الانقطاع ولذا صح العطف فىالمحكيتين مع وجود كماله فيها باعتبار أصله كما فى قوله تعالى : (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل).

وهـــذا المـــثال مـــن الثانى دون الأول ، وقال ابن يعقوب المغربى إن منع العطف بين الإنشاء والخبر لثلاثة شروط :

١- أن يكون بالواو ٢-وأن يكون فيما لا محل له من الإعراب من الجمل.

٣-وأن يكون غير موهم خلاف المراد.

وجعل هذا البيت شاهداً على ما لا محل له من الإعراب رعاية للكلام المحكى لا الحكاية[1] ، لأنه لو كان على الحكاية لكان مما له محل من الإعراب ، ويكون التمثيل به حينئذ من قبيل مطلق التمثيل للاختلاف خبراً وإنشاء بغض النظر عما له محل أو ما لا محل له.

وجوز بعضهم كون الفصل هنا لشبه كمال الاتصال لجواز : كون الجملة الثانية (نزاولها) مبينة على سؤال نشأ من الجملة الأولى تقديره ما سبب الإرساء؟ وقيل وجب الفصل فى البيت لشدة ارتباط الثانية بالأولى فصارت كنفسها إذ هى علة لها ، وعطف الشئ على نفسه ممنوع حتى فى المفردات.

ومن كمال الانقطاع لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاء قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ [2] فجملة "خذوا ما آتيناكم" إنشاء وما قبلها خبر ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ [3]، ومنه قوله تعالى: ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله﴾ فتؤمنون تفسير ، وقيل مستأنفة معناها للطلب أى

(١) معنى رعاية للكلام المحكى : لأن الجملة الثانية بهذا الاعتبار مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، فالمعتبر فى ذلك حال وقوعهما من الرائد ، وأما على اعتبار الحكاية فيكون (قال) متسلطاً على الجملة على المشهور فكل واحدة من الجملتين فى محل نصب بناء على أن جزء المقول له محل إذا كان مفيدا ، أنظر شروح التلخيص ٣/ ٢١ ، ٢٩.

(٢) سورة البقرة ٩٣.

(٣) سورة البقرة ٥٧.

آمنوا بدليل يغفر بالجزم ، على الراى الأول ، فالجزم فى جواب الاستفهام تنزيلا للسبب ، وهو تنزيل الدلالة منزلة المسبب ، وهو الامتثال.

ويقـول أبـو السعود : إنَّ تؤمنون استئناف وقع جواباً عما نشأ قبله كـأنهم قـالوا كيف نعمل أو ماذا نصنع؟ فقيل تؤمنون بالله وهو خبر فى معـنى الأمـر جئ به للإيذان بالامتثال ، فكأنه قد وقع بوقوعه ، ويؤيده قراءة آمنوا وجاهدوا ، وقرئ تؤمنوا أو تجاهدوا على إضمار لام الأمر ، وعلـى هذا فهو من الفصل لكمال الانقطاع لكون الثانية إنشاء معنى خبر لفظاً ، وعلى الأول فهى من شبه كمال الاتصال. (١)

ومـن كمال الانقطاع للاختلاف خبراً وإنشاء قوله تعالى على لسان موسى : ﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم﴾. (٢)

وممـا جـاء مفصولاً لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاء قوله تعالى : ﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾. (٣)

فصلت جملة "انظروا" عما قبلها لكونها انشائية وما قبلها إخبار وقوله تعالى : ﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾. (٤)

فصلت جملة (إن صلاتك) عما قبلها لكونها خبرية وما قبلها إنشائية.

---

(١) أبو السعود ٦ ص ٢٤٥.
(٢) سورة الأعراف ١٥٠.
(٣) سورة الأنعام ٩٩.
(٤) سورة التوبة ١٠٣.

ومنه قوله تعالى : ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾. (١)

فصلت جملة (أنى يكون له ولد) لكونها إنشائية وما قبلها خبرية ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون . أتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين﴾(٢)

فقد فصلت جملة (اتبع ما أوحى إليك) عما قبلها للاختلاف خبراً وإنشاء ، وفي الآية شاهد آخر وهو عطف جملة (وأعرض عن المشركين) على جملة (واتبع ما أوحى إليك) لاتفاقهما في الإنشائية وهذا ما يعرف بالعطف للتوسط بين الكمالين ، وقد وجدت المناسبة وهي اتحاد المسند إليه في الجملتين مع كونهما مما أمر به النبي ﷺ.

يقول أبو السعود لما حكى عن المشركين قدحهم في تصريف الآيات عقب ذلك بأمره ﷺ بالثبات على ما هو عليه وبعدم الاعتداد بهم وبأباطيلهم وجملة (لا إله إلا هو) اعتراض بين الأمرين المتعاطفين مؤكد لإيجاب اتباع الوحي.(٣)

---

(١) أبو السعود "جملة" "إن صلاتك" تعليل للأمر بالصلاة أهـ ٩٩/٤.

(٢) سورة الأنعام ١٠٥ - ١٠٦ ، وقال أبو السعود : جملة "أنى يكون" مستقلة مسوقة كما قبلها لبيان استحالة ما نسبوه إليه تعالى من شركاء الجن ، وتقرير تنزهه عنه أهـ ٣/ ١٠٢.

(٣) تفسير أبي السعود ١٧١/٣.

ومما اختلفت فيه الجملتان خبراً وإنشاء قول الشاعر :

أهــدى إلـــيكم على نأى تحيته   حــيوا بأحسن منها أو فردوها

وقول الآخر :

لســت مســتمطراً لغيرك غيثاً   كـــيف يظما وقد تضمن بحرا ؟

فالشطر الأول إخبار والثانى استفهام وفصل بينهما لاختلافهما خبراً وإنشــاء ، ومما اختلفت فيه الجملتان خبراً وإنشاء فى المعنى قولنا (مات فلان رحمه الله) ، فجملة (رحمه الله) خبرية لفظاً إنشائية معنى لأنها دعاء لمن مات بالرحمة ، ومن ذلك قول حسان :

أصـــون عرضى بما لى لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض فى المال

فصـــل جملة (لا بارك الله) عن أصون عرضى ، لأنها خبرية لفظاً إنشائية معنى لأن معناها أدعو الله ألا يبارك بعد العرض فى المال.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً﴾

جـــاء فصل جملة (لا تعبدون) لأنها إخبار فى معنى النهى - وذلك على تقدير قائلين أو قلنا - وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المـــنهى حقـــه أن يسارع إلى الانتهاء عما نهى عنه فكأنه انتهى فيخبر به الـــناهى ويؤيـــده قراءة لا تعبدوا - على حذف النون - وعطف (وقولوا

للـــناس حســـناً) عليه ، لأن لا تعبدون لو لم يكن في معنى النهي لما صح عطف (قولوا) عليه وهو إنشاء ، ولكن عطفه عليه أيدكونه إنشاء.[١]

وفـــي هذا الفصل وجه آخر وهو أنه على تقدير أن لا تعبدوا فحذف الناصـــب ورفـــع الفعـــل ويعضـــده قراءة (أن لا تعبدوا) فيكون بدلاً من الميثاق.[٢]

وقد عد السكاكي منه قول اليزيدي :

ملكـــــته حـــــبلي ولكـــــنة ألقـــاه مـــن زهـــد علـــى غاربي

وقـــال إنـــي فـــي الهوى كاذب انـــــتقم الله مـــــن الكــــــاذب

وذلـــك على تقدير أن تكون جملة (انتقم الله) خبر بمعنى الدعاء أي لينـــتقم الله ، أو انتقم يا الله من الكاذب ، ويصح ذلك على أن يكون جملة (انتقم الله) من كلام المحكي عنه ، وفيه بعد ، ولكن عبد القاهر عد الفصل هـــنا مـــن قبيل شبه كمال الاتصال حيث قال (ومن اللطيف في الاستئناف علـــى معـــنى جعل الكلام جواباً في التقدير قول اليزيدي : ملكته حبلي .. إلخ.

فقـــد استأنف قوله (انتقم الله من الكاذب) لأنه جعل نفسه كأنه يجيب ســـائلا قال له : فما تقول فيما اتهمك به أنك كاذب؟ فقال أقول : أنتقم الله من الكاذب.[٣]

---

(١) عطف (قولوا) على (لا تعبدون) للإتفاق في الإنشاء وهو من التوسط بين الكمالين.

(٢) وعلى ذلك يكون الفصل لكمال الاتصال (أنظر أبي السعود ١٢٣/١).

(٣) دلائل الإعجاز ٢٣٧.

هـذا ، وقـالوا : إن كون الجملتين لفظهما معاً إنشاء وهما مختلفان معنى - كما في الخبر - قليل الوجود ، وقد اخترعوا لذلك مثالين : كقولك عـند ذكـر من كذب على النبي ﷺ : ليتبوأ مقعده من النار لا تطعه أيها الأخ، فالأولى خبرية معنى ، والثانية إنشائية معنى ولفظهما إنشاء ونحو : ألـيس الله بكاف عبده ، أتق الله أيها العبد ، فالأولى خبرية معني والثانية إنشائية معنى ، أي الله كاف عبده ولفظهما إنشاء.(١)

ب-الصورة الثانية من صور كمال الانقطاع :

أن لا يكـون بين الكلامين جامع يصحح العطف ، لأن العطف لا بد لـه مـن مناسبة خاصة توجد بين طرفي جملتيه ، كقولك : زيد طويل ، عمرو نائم ، لا يصح عطف الثانية على الأولى لعدم وجود الجامع بين نوم عمرو وطول زيد ، وكذلك : العلم حسن وجه على قبيح ، لفقدان المناسبة بيـن قـبح وجه على وحسن العلم ، وإنما يصح العطف في هذا المثال لو وجدت مناسبة كقولك : العلم حسن والجهل قبيح ، لأن المناسبة هنا متمثلة في الارتباط بين العلم والجهل وهما متضادان في المعنى ، لأن كون العلم حسناً مضموم في العقول إلى كون الجهل قبيح.

ويقـول د/ محمـد أبـو موسى عن الصورة الثانية من صور كمال الانقطاع إن ضياع المناسبة بين طرفي الجملتين لا يعني بتر الكلام وتنافر جملـه ، والذيـن يهاجمون هذا المصطلح أو فقدان الجامع ويفضلون هذه الحقـيقة ويـتوهمون أن عدم الجامع يعني جمع أشتات من الجمل لا رابط

(١) أنظر حاشية الدسوقي ٣/٣٠.

بينها البته ، وهذا مما لا يقع فيه أمثال هؤلاء العلماء وهم من أعرف الناس بأسرار اللسان وطبائع الكلام ، كما أنه لم يقع في الكلام العالي الذي هو موضع النظر والاستنباط ، وإنما هي تهمة باطلة رمى بها الشيخ أمين الخولي ثم تبعه فيها خلق كثير.

ثم يذكر مثالاً من القرآن الكريم مما قيل أن فيه كمال انقطاع ليثبت به كيف كان مرتبطاً بما قبله ارتباطاً معنوياً يجعله ملائماً في السياق لما بعده وما قبله فيقول إن بين قوله تعالى ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ والكلام السابق عليه - وهو قوله تعالى : ﴿الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان﴾ [١] كمال انقطاع لضياع المناسبة الخاصة ، ولكن الرباط المعنوي والعلاقة الجامعة بينهما لا ريب فيها وهي ذكر الرحمن الذي انتظمت مظاهر قدرته المتمثلة في خلق الإنسان الذي علمه البيان وفي إحكام حركة الشمس والقمر وضبطها بحسبان. [٢]

فالرباط المعنوي هنا متمثل في ذكر ما يندرج تحت مظاهر قدرة الله سبحانه في الإنسان والكون.

هذا ويقول أبو السعود عن (الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان) الجملتان خبران آخران للرحمن جردتا عن الرابط اللفظي (يعني لم تعطف (الشمس) على ما قبلها) تعويلاً على كمال قوة الارتباط المعنوي إذ لا يتوهم ذهاب الوهم إلى كون حال الشمس والقمر بتسخير غيره -

---

(١) سورة الرحمن ١ - ٥.

(٢) دلالات التراكيب ٣٣٢ ، ٣٣٣.

تعـــالى- ولا إلـــى كون سجود النجم والشجر لما سواه تعالى كأنه قابل : الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان له ، وإخلاء الجملة الأولى (الشـــمس) عن العاطف لما ذكر من قبل ، وتوسيط العاطف بينها وبين الثانـــية (والنجم) لتناسبهما من حيث التقابل لما أن الشمس والقمر علويان والنجم والشجر سفليان ومن حيث إن كلا من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله عز وجل.[1]

وتلاحظ عطف القمر على الشمس ، والشجر على النجم لما بين كل منهما من التناسب الظاهر وهذا من عطف المفرد على المفرد ثم يقرر أبو موســـى أن الجمل المتشاردة ، والمعاني المتغايرة والمجلوب كل منها من واد بعـــيد لا تجمـــع فـــى قرن واحد عطفت أو لم تعطف لفقدانها الجامع المعنوى لأنها تنشأ عن اضطراب في التفكير والناس جميعاً في هذا سواء ، ومـــثال ذلك "يكثر المطر فى المناطق الساحلية ، وتجبر الصلاة بسجود السهو ، ويخطئون من يعتقدون أن اليهود يسالمون العرب ، وقد ولد عيسى مـــن غـــير أب ، واختلف النقاد فى شعر أبى تمام" فهذه الملتقطات فاسدة عطفت أو لم تعطف وهى أشبه بكلام الحمقى من حيث فقدان تناسقها.

وقـــد عـــاب البلاغيون الشعر المتناثر المعنى ، كما عابوا من جهل وجه الخلوص من شئ إلى شئ عند تعدد الأغراض ، وقد سبق ذكر رأى السيد الشريف فى هذا من حيث ارتباط الكلام بالعاطف أو بدونه.

---

(١) تفسير ابى السعود ١٧٧/٨.

كمـــا أشـــار السيوطى[1] إلى الفرق بين الجامع المصحح للعطف ، والجـــامع المصحح لربط الكلام وسلامة تآخيه وتناسقه ، ذلك فى دراسته لتناسق الآيات.[2]

وبعد هذا البيان نذكر شواهد لما جاء من كمال الانقطاع فى صورته الثانـــية لوجود مناسبات معنوية تربط بين جمله من ذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [3] فقد فصل "إن الذين كفروا" عما قبله لكمال الانقطاع حيث إن الآيات قبلها تتحدث عن الكتاب وهدايته وأوصافه وجاء ذكر المتقين استطراداً ثم جاء الحديث عن حـــال الكافرين وليس هناك جامع بين الأمرين يقتضى ربطهما بالواو ولذا جـــاء الفصل لكن بين جملة "إن الذين كفروا" وما قبلها رباط معنوى جعله السـيوطى[4] متمثلاً فى التضاد الواضح من حال هداية المؤمنين واتباعهم لما جاء به النبى من القرآن وحال الكافرين الرافضين للهداية والإيمان.

ويذكر أبو السعود : أن جملة "إن الذين كفروا" مستأنفة لشرح أحوال الكفـــرة إثـــر بيان أحوال أضدادهم المتصفين بصفات الكمال ، وإنما ترك

---

(١) يراجع الاتقان ١٠٩/٢.

(٢) وخلاصة هذا الكلام أن كمال الانقطاع لفقدان المناسبة الخاصة نوعان : نوع مقبول ولا غبار عليه وهو ما وجد فيه الرباط المعنوى الذى يصل الكلام بعضه ببعض والممثل له بالآية السابقة ، ونوع غير مقبول سواء جاء بالعطف أو بغيره وهو المشتمل على معان جلـب كـل منها من واد لا ارتباط له بالآخر والناشئ عن اضطراب فى تفكير صاحبه كالمثال الذى ضرب آنفاً.

(٣) سورة البقرة ٦.

(٤) الإتقان ١٠٩/٢.

العـــاطف بينهما للتباين فى الغرض فإن الجملة الأولى (ذلك الكتاب .. إلخ الآيـــات) مسبـــوقه لبيان رفعه شأن الكتاب فى باب الهداية وجاء التعرض لأحـــوال المتقيـــن بطـــريق الاستطراد ، وأما الجملة الثانية أى "إن الذين كفـــروا" فمسوقة لبيان أحوال الكفرة وترامى أمرهم فى الضلال بحيث لا يجديهم الإنذار[1]. كما ذكر علة الفصل فى جملة "لا يؤمنون" عما قبلها من قولـــه "إن الذيـــن كفـــروا سواء عليهم أأنذرتهم" وهى لكونها جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها ، أو بدل منه ، أو خبر لأن ما قبلها اعتراض بما هو علة الحكم ومثل الآية الكريمة فى الفصل لكمال الانقطاع لعدم وجود الجامع مع وجود الارتباط المعنوى قوله تعالى : ﴿طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ، إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ [2] فسر الفصل هنا فى قوله "إن الذين لا يؤمنون بالآخرة" هو نفس ما ذكر فى آية البقرة.

ومما جاء من كمال الانقطاع لعدم المناسبة قول الشاعر :

خلقـــت أناملــه لقـــائم مـــرهف ولبـــث فـــائدة وذروة منـــبر

يلقـــى الـــرماح بوجهه وبصدره ويقـــيم هامـــته مقـــام المغفـــر

---

(١) تفسير أبى السعود ٣٥/١.

(٢) سورة النمل ١ – ٤.

جاء البيت الثاني مستأنفاً لذكر معنى جديد ، كما عطف الشطر الثاني على الأول لوجود المناسبة وهي اتحاد المسند إليه فيهما ، والاتفاق في الخبرية وكون الأمرين من أحوال الشجاعة ومنه قول الآخر :

فتى لا يبالي المدلجون بنوره   إلى ما به ألا تضئ الكواكب

له حاجب عن كل أمر يشينه   وليس له عن طالب العرف حاجب

فالبيت الثاني يذكر معنى جديداً غير ما في البيت الأول ولذلك فصل عنه ومنه :

خليفة الله إن الجود أودية   أحلك الله منها حيث تجتمع

إن أخلف القطر لم تخلف مخايله   أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فالبيت الثاني ابتداء معنى جديد مما يتعلق بالممدوح ومنه قول ابن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو اسحاق والقمر

يحكي أفاعيله في كل نائبة   الغيث[1] والليث[2] والصمصامة الذكر[3]

فالبيت الثاني يتضمن معنى جديداً مما يتعلق بالممدوح ومما جاء من ذلك نثراً ما يكون في ذكر مجموعة من الحكم أو الأمثال كقول عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– :

"الخمر جماع الإثم ، النساء حبالة الشيطان ، الشباب شعبة من الجنون ... إلخ".

(١) المراد أنه يشبه الغيث في الكرم.
(٢) المراد أنه يشبه الليث في الشجاعة.
(٣) المراد أنه يشبه الصمصامة في المضاء.

٣- كمال الاتصال :

ومن مواطن الفصل في الجمل ما يعرف بكمال الاتصال وهو : كون الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى ، أو بدلا منها ، أو بيانا لها[١] ، وامتنع العطف بالواو في هذه الأحوال الثلاثة ، لأن عطف إحدى الجمل على الأخرى كعطف الشئ على نفسه ، وقالوا : إن غير الواو لا يضر العطف به مع كمال الاتصال.

ويقول عبد القاهر عن هذه الحالة : إنه يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها ، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها ، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها.

فجئ بالجملة الثانية مؤكدة للأولى ، وذلك لدفع توهم تجوز أو غلط وتأتي على وجهين :

الوجه الأول : أن تنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة التأكيد المعنوي من متبوعه في إفادة التقرير مع الاختلاف في المعنى.

(١) ولم يدخلوا النعت في كمال الاتصال لأنه لا يتميز عن عطف البيان إلا بدلالته على بعض أحوال المتبوع لا على ذاته ، والبيان يدل على ذاته المتبوع لا على وصف فيه ، والدلالة على بعض أحوال المتبوع – وهو ما يتحقق في النعت – مما لا يتحقق له في الجمل ، لأن الجملة إنما تدل على النسبة ، ولا يتأتى أن تكون نسبة في جملة دالة على وصف شئ في جملة أخرى ، ولذلك لم تنزل الجملة الثانية من الاولى منزلة لنعت ، المنعوت ، وقد تكون النسبة في جملة موضحة لنسبة جملة أخرى فلذا نزلت الجملة الثانية من الأولى منزلة عطف البيان من المبين. حاشية الدسوقي ٣/٣٠.

الوجه الثاني : تنزيلها منزلة التأكيد اللفظي في اتحاد المعنى ، ومن أمثلة التأكيد المعنوي :

قوله تعالى : ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ (١) فقوله : (ذلك الكتاب) جملة معرفة الطرفين أفادت أن القرآن هو الكامل في الهداية أو بلغ الدرجة القصوى في الكمال بالنسبة لبقية الكتب السماوية ، وجملة (لا ريب فيه) تفيد نفي الريب والشك عن القرآن ، فهي مؤكدة ومحققة لمضمون جملة (ذلك الكتاب) ولذلك فصلت عنها. (٢)

وأما قوله تعالى في نفس الآية : "هدى للمتقين" فهو تأكيد لمعنى كون الكتاب كاملا في الهداية ، حتى كأنه هداية محصنة ، ومعنى هذه الجملة هو معنى "ذلك الكتاب" لأن معناه الكتاب الكامل والمراد بكماله كماله في الهداية. (٣)

---

(١) سورة البقرة ٢.
(٢) يذكر البلاغيون أن "لا ريب فيه" وزان "نفسه" في: جاء زيد نفسه ، أي من حيث جعلها بمنزلة التأكيد المعنوي.
(٣) قالوا إن وزان "هدى للمتقين" وزان "زيد" الثاني في "جاءني زيد زيد" ، أي أن الجملة بمثابة التأكيد اللفظي ، وتقسيمهم التأكيد هنا لهذين الوجهين يحوم حوله الاعتراض من البلاغيين (انظر حاشية الدسوقي ٣/٣١).
والواضح أن جملتي "لا ريب فيه" و "هدى للمتقين" كلتاهما مؤكدة لجملة "ذلك الكتاب" ولذا يمكن الاعتراض على هذا بأنه كان الأنسب أن تعطف الجملتان المؤكدتان وهما "لا ريب فيه ، وهدى للمتقين" لاشتراكهما في كونهما تأكيدا الجملة "ذلك الكتاب" ولا امتناع في هذا العطف.
ولذلك جعل الزمخشري جملة "لا ريب فيه" مؤكدة لجملة "ذلك الكتاب" وجعل جملة "هدى للمتقين" مؤكدة لجملة "لا ريب فيه" حتى يخرج من الأشكال المذكور هنا.
ويجاب عن هذا الاشكال – يعني عدم عطف المؤكدين – أن يقال : لما كان "لا ريب فيه" تأكيدا للجملة الأولى – ذلك الكتاب – اتحد بها وصار من تتمتها ، فالجملة السابقة التي يتوهم العطف عليها هي "ذلك الكتاب" مقيدا بما هو من تتمته – أي لا ريب فيه – ولا مجال للعطف هناك ، لأن "هدى للمتقين" مؤكد لها (حاشية السيد ٢٥٤).

ومما جاء الفصل فيه لكون الجملة مؤكدة لما قبلها قوله تعالى :

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾.[١]

فقد فصل قوله : "لا يؤمنون" لأنه تأكيد لقوله "سواء عليهم أأنذرتهم" كما فصل قوله : "ختم الله .." لأنه تأكيد ثان أبلغ من الأول ، لأن من كان حالــه إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان فى غاية الجهل ، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة.[٢]

ومــن كمال الاتصال لكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى قوله تعالي :

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ..﴾ .

فقد فصلت جملة "هو الذى خلق .." عما قبلها لأنها تقرير للإنكار فى "كــيف تكفرون" وتأكيد له من الأمرين المذكورين من خلق ما فى الأرض وتسوية السموات السبع.[٣]

ومــن ذلــك ما مر فى قوله : ﴿قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾ لأن قولهــم "إنا معكم" أى لم نترك اليهودية ولم نؤمن بمحمد ﷺ ، ومعنى "إنما نحن مستهزؤون" يتضمن نفس المعنى ، لأنه لا فرق بين أن يقولوا :

---

(١) سورة البقرة ٦ ، ٧.
(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٨.
(٣) أبو السعود ٧٨/١.

إنـــا لم نقل ما قلناه إلا استهزاء ، وبين أن يقولوا : إنا لم نخرج من دينكم وإنا معكم ، بل هما في حكم الشئ الواحد.

ومـــن ذلك قوله تعالى : ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا﴾. (١)

لـــم يعطـــف قوله : ﴿كأن في أذنيه وقرا﴾ لكونه مؤكدا لما قبله لأن المقصود من التشبيه بمن في أذنيه وقر هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع ، إلا أن الثاني أكد في المراد ، لأن المعنى في التشبيهين جميعا أن ينفى أن يكون للتلاوة الآيات عليه فائدة ، أو تاثير فيه ، وأن يجعل حاله إذا تليـت عليه كحاله إذا لم تتل ، ولا شبهة في أن التشبيه بمن في أذنيه وقرا أكد في جعله كذلك (يعني عدم الإفادة أو التأثير) من حيث كان من لا يصح منه السمع أبعد من أن يكون للتلاوة عليه فائدة من الذي يصح منه السمع إلا أنه لا يسمع إما اتفاقا وإما قصدا إلى أن لا يسمع. (٢)

ومـــن ذلـــك قوله تعالى : ﴿ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾ (٣) فقوله : "إن هذا إلا ملك" تأكيد لنفي كونه بشرا.

ووجـــه آخـــر أن يقال : أنه إذا قيل ما هذا بشرا والحال حال تعظيم وتعجـــب من حسن خلق أو خلق أن يكون المراد أن يقال إنه ملك ، لفهمه

---

(١) سورة لقمان ٧.

(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٩.

(٣) سورة يوسف ٣١.

من اللفظ قبل أن يذكر ، وإذا كان مفهوما من اللفظ قبل أن يذكر كان ذكره إذا ذكر تأكيدا لا محالة.

كما يذكر عبد القاهر ان الآية يصح فيها أن تكون من قبيل البيان فيقول : إنه إذا نفى أن يكون بشرا فقد أثبت له جنس سواه ، إذ من المحال أن يخرج من جنس البشر ثم لا يدخل فى جنس آخر ، فيكون إثباته ملكا تبيينا لذلك الجنس الذى أريد إدخاله فيه.

هذا ويقول الشيخ عبد المتعال فى البغية : والظاهر من كلام عبد القاهر أنه يجعل كل كمال الاتصال من باب التأكيد ، وإن كان قد يشتمل أحياناً على نوع من البيان ، ولعل هذا أسهل من تكلف ما سبق من الفروق بين التوابع فى الجمل. [١]

ويذكر عبد القاهر لونا من التأكيد المقتضى الفصل لكمال الاتصال وهو ما جاء من القصر بالنفى والاستثناء فيقول :

(ومما جاء فيه الإثبات بإن وإلا على هذا الحد قوله عز وجل : "وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين"[٢] وقوله : "وما ينطق عن الهوى.إن هو إلا وحى يوحى" [٣] أفلا ترى أن الإثبات فى الآيتين جميعا – يعنى فى أسلوب القصر – تأكيد وتثبت لنفى ما نفى؟ فإثبات ما علمه النبى ﷺ وأوحى إليه ذكرا وقرآنا ، تأكيد وتثبيت لنفى أن

(١) بغية الإيضاح ٧٧/٢.
(٢) سورة يس ٦٩.
(٣) سورة النجم ٣ ، ٤.

يكـــون علم الشعر ، وكذلك إثبات ما يتلوه عليهم وحيا من الله تعالى تأكيد وتقرير لنفى أن يكون نطق عن هوى). [(١)]

ويعقـــب عبد القاهر على ذلك قائلاً : واعلم أنه ما من علم من علوم الـــبلاغة أنـــت تقول فيه إنه خفى غامض ، ودقيق صعب ، إلا وعلم هذا الـــباب أغمـــض وأخفى وأدق وأصعب ، وقد قنع الناس فيه أن يقولوا إذا رأوا جملـــة قد ترك فيها العطف : إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك ، ولقد غفلوا غفلة شديدة.

هذا ، ويقول الدكتور/ محمد أبو موسى[(٢)] (عن الفصل للتأكيد) : إنه يحـــتاج فـــى إدراكه إلى صفاء نفس ، لأنك تدير المعنى فى نفسك وتتدبر جملة جهاته حتى تدرك الجهة التى يلتقى فيها مع سابقه ، وقد يكون الالتقاء بطريق الفحوى وتداعيات المعانى ، والجملة الثانية دائما ذات معنى جديد ينمو به الكلام وتتكاثر فوائده ، وخذ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ﴾[(٣)] تجد كل جملة من هذه الجمـــل تعطى معنى وفكرة جديدة تدخل فى بناء الكلام وتركيبه ، فالجملة الأولـــى نهى عن الشرك ، والثانية تأكيد لألوهيته[(٤)] -سبحانه- ، والثالثة

---

(١) أنظـــر دلائـــل الإعجـــاز ٢٣٠ ، هذا وقد بين سر فصل "إن هو" فى الآيتين عما قبله ، وانظر تفسير أبى السعود ١٧٧/٧ ، ١٥٥/٨.

(٢) دلالات التركيب ٢٩٦.

(٣) سورة القصص ٨٨.

(٤) ومـــع وقوع الجملة الثانية مؤكدة هنا وهذا ما اعتبره د. أبو موسى سبب الفصل إلا أنه يمكن أن يقال أن سبب الفصل ربما يرجع لشئ آخر وهو اختلاف الجملتين خبرا وإنشاء فيكون الفصل من قبيل كمال الانقطاع أيضاً..

إخبار عن هلاك الأشياء كلها وتفرده بالبقاء ، والرابعة إخبار بأن الحكم له وهــذه حقائق كبرى نهضت كل جملة بواحدة منها ، وهذا وجه جليل من وجــوه الإيجاز الذى يعنى غزارة المعنى وقلة اللفظ ، وحين تتأمل الكلام مــن جهة أخرى تجد هذه الحقائق – مع أنها كالهضاب الكبيرة – إلا أنها تتداخل وتتآزر فى تأكيد حقيقة واحدة ، ووجه تأكيد الثانية للأولى ظاهر – لأنهــا مؤكدة لاستحقاقه التفرد بالعبادة دون غيره – ووجه تأكيد الثالثة لما قبلها أن الهلاك فيها وصف لكل ما عدا الحق ، فالآلهة الأخرى هالكة وهذا صــرف واضـــح عن عبادتها ، وقوله "له الحكم" فيه قصر الحكم عليه لا يتعداه إلى غيره ، وهذا مظهر الربوبية.

وخـذ قولــه تعــالى : ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾. (١)

فقولــه : ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ توكيد لما قبله ، وقوله : "إن الحكــم إلا لله" يعنى من وجه آخر أن هذه الآلهة مسلوب عنها الحكم الذي هو مظهر الربانية فبقيت فارغة.

وقوله : ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ (٢) ظاهر فى التوكيد وكأنه نص فى الغرض.

---

(١) سورة يوسف ٤٧.

(٢) وقــد جعــل بعض المفسرين قوله : "أمر ألا تعبدوا إلا إياه" مفصولاً عما قبله لكونه من شــبه كمال الاتصال ، لأنه استئناف مبنى على سؤال ناشئ من قوله "إن الحكم إلا لله" فكأنــه قيل : فماذا حكم الله فى هذا الشأن؟ فقيل : أمر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام "ألا تعبدوا .. " أبو السعود ٢٧٨/٤.

وقوله : ﴿ذلك الدين القيم﴾ توكيد آخر ، وكل جملة من هذه الجمل لهـا عطـاء لا تجده في السابقة ، فالجملة الأولى تفيد أنهم يعبدون أسماء فارغة من غير مدلول ، سموها هم وآباؤهم ، والثانية تفيد أنه لم ينزل بها من الله سلطان ، والثالثة تفيد أن الحكم لله لا لغيره ، والرابعة تفيد أنه أمر بعـبادته وحده ، والأخيرة تفيد ان ذلك هو الدين القيم ، وهذه معان مختلفة وبيـنها فـروق ولكنها تصب في جهة واحدة هي محورها وغايتها وهي توكـيد الوحدانـية ، واقرأ آية الكرسي : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض﴾. [1]

فقولـه : ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ تأكـيد لألوهيـته وتمام هيمنته وقيوميته[2] وقوله : ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ يفيد ملكيته لخلقه، وهذا من وجه آخر تأكيد أنه واحد قيوم.

وقولـه : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ يفيد نفي الشفيع إلا في حالة الإذن ، وهذا مظهر الهيمنة والألوهية.[3]

---

(١) سورة البقرة ٢٥٥.

(٢) ويقـول أبو السعود : إن الجملة تأكيد لما قبلها من كونه تعالى حيا قيوما فإن من يعتريه السنة أو النوم يكون موقوف الحياة قاصرا في الحفظ والتدبير ، وقيل استئناف مؤكد لما سبق ٢٤٨/١.

(٣) ويقول أبو السعود : إن هذا بيان لكبرياء شأنه.

وقوله : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ يفيد إحاطة علمه بخلقه وهذا تأكيد للهيمنة والألوهية.

وهكـذا نجـد الكلام ينمو وتتكاثر معانيه ، ولكن خيوطه في النهاية تتلاقى عند نقطة واحدة.

هذا ، وقد جاء العطف هنا في قوله : ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ علـى قولـه : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ لما أنهما جميعا دليل على تفرده تعالى بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته.

ومن الفصل لكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى قول الخنساء :

تبكى خناس على صخر وحق لها　　　إذ رابهـا الدهر إن الدهر ضرار

والشاهد فى "إن الدهر ضرار" لأنها تأكيد لريب الدهر لها.

ومن ذلك قول ابن الرومى فى وصف كأس بالشفافية :

تـنفذ العيـن فـيه حـتى تراها　　　أخطأتـه مـن رقـة المستشف

كهـواء بـلا هـباء مشـوب　　　بضـياء أرقـق بهـذ وأصـف

فقـد جـاء البيت الثانى مؤكدا لما ذكر من شفافية الكأس فى البيت الأول حـتى تنفذ العين فيه من شدة رقته وشفافيته ، ولذلك فصل عما قبله لكمال الاتصال.

ومن ذلك قول الشاعر :

قـد ينفع الأدب الأحداث فى مهل　　　ولـيس يـنفع بعد الكبرة الأدب

إن الغصـون إذا قومتها اعتدلت　　　ولـن تليـن إذا قومتها الخشب

فجاء البيت الثانى مفصولا عن الأول لأنه تمثيل لمعناه وتوكيد له.

ب- الأمر الثاني من الأمور التي بها كمال الاتصال :

أن تكون الجملة الثانية بدلاً من الأولى ، والمقتضى لهذا الإبدال كون الجملـــة الأولى غير وافية بتمام المراد حيث يكون في الوفاء قصور ما أو خفـــاء مـــا ، بخلاف الثانية فإنها وافية والمقام يقتضي اعتناء بشأن المراد لنكـــتة ككـــون المراد مطلوبا في نفسه أو فظيعاً[1] أو عجيباً[2] أو لطيفا[3] فتنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة بدل البعض أو الاشتمال.[4]

---

(١) الفظيع يؤتى به لقصد التقريع والتوبيخ ولذلك يقتضي الاعتناء به فيقصد مرتين ، مثاله : أن يقال لامرأة تزني وتتصدق (لا تجمعي بين الأمرين لا تزني وتتصدقي).

(٢) فيعتـــنى به لإعجاب المخاطب قصد البيان غرابته ، وكونه أهلا لأن ينكر إن ادعى نفيه هـــو ، أو يقتضـــي العجب ممن ادعى إثباته وذلك كقوله تعالى : "بل قالوا مثل ما قال الأولـــون ، قـــالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون" فإن البعث بعد صيرورة العظام ترابا عجيب عند منكريه ، ومن عجائب القدرة عند مثبتيه ومثله : قال فلان قولا قال يهزم الجند وحده.

(٣) أي ظـــريفا مستحسنا فيقتضي ذلك الاعتناء به لإدخال ما يستطرف في أذهان السامعين حيث يقتضي المقام بسطهم كقولك لغائص يريد الغناء : غوص وغناء كيف سرني ، أو إذا رأيـــت زيـــدا حسن السيرة رقيق القلب فتقول : زيد جمع بين أمرين بين رقة القلب وحسن السيرة.

(٤) إنمـــا اقتصـــروا على بدل البعض أو الاشتمال لأن المبدل منه فيهما غير موف بالمراد بخـــلاف بـــدل الكـــل ، ومن هنا تعلم أن البدل الاتصالي لا يخلو من بيان ووفاء ، ولم يقتصر على البدل في جميع الأقسام دون المبدل منه مع أن الوفاء إنما هو بالبدل ، لأن مقام البدل يقتضي الاعتناء بشأن النسبة ، وقصدها مرتين أوكد.

ولا يقـــال : حيـــث كـــان البدل الاتصالي لا يخلو عن بيان يلزم التباسه بعطف البيان؟ والجواب : أن البيان في البدل غير مقصود بالذات بل المقصود تقرير النسبة ، وعطف البيان المقصود منه التفسير والإيضاح لا تقرير النسبة.

ووجه منع العطف في بدل البعض والاشتمال : أن المبدل منه في نية الطرح عن القصد الذاتي فصار العطف عليه كالعطف على ما لم يذكر ، وقول بعضهم : إن وجه المنع أن الـــبدل والمبدل منه كالشئ الواحد ، لا يتم مع كون المبدل منه كالمعدوم ، إذ لا يتحد ما هو بمنزلة المعدوم بالموجود ، مع أن البعض من حيث هو والمشتمل عليه من حيث هو لا اتحاد بينه وبين ما قبله.

ومـــثال مـــا جعلـــوه من تنزيل الجملة الثانية من الأولى منزلة بدل البعض من متبوعه قوله تعالى على لسان هود عليه السلام : ﴿واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون﴾.(١)

فقد جاء هذا الكلام للتنبيه على نعم الله تعالى عند هؤلاء المخاطبين ، والمقـــام يقتضى الاعتناء بشأن ذلك التنبيه لكونه تذكيرا للنعم لتشكر وهو كذلـــك ذريعة لغيره كالإيمان والعمل بالطاعة ، فعليهم – بهذا التنبيه – أن يعلمـــوا أن مـــن قدر أن يتفضل عليهم بهذه النعمة فهو قادر على الثواب والعقاب فيتقونه ، وهذا أمر مطلوب فى نفسه.

فلمـــا أفـــادت الجملة الأولى "أمدكم بما تعلمون" الإمداد بالنعم على طريق الإجمال من غير تسميتها جاء قوله تعالى : "أمدكم بأنعام وبنين".." وافيا بتأدية المراد وهو التنبيه المذكور لدلالته على نعم الله تعالى بالتفصيل مع تسميتها من غير أن يحيل ذلك على علم المخاطبين المعاندين ، والإمداد بما ذكر من النعم بعض(٢) الإمداد بما يعلمون.

هـــذا ، وصاحب الإيضاح يجعل فصل قوله : "أمدكم بأنعام" محتملا لأن يكـــون مـــن شبه كمال الاتصال ، لكن اعترض عليه بأنه لو كان منه

---

(١) سورة الشعراء ١٣٢ – ١٣٤.

(٢) ولذلك جعلوا هذا المثال كقولك : أعجبنى زيد وجهه ، والجملة الثانية بمنزلة "وجهه" فى هـــذا المـــثال لدخول الثانى فى الأول لان "ما تعلمون يشمل الأنعام وغيرها ، والأفضل عدم النظر إلى هذا التقسيم لبدل البعض أو الاشتمال.

لكـــان التأكـــيد – هنا – مستحسنا مع أن الجملة الثانية قد أعيدت من غير تأكيد.

ومـــثال مـــا جعلـــوه من تنزيل الجملة الثانية من الأولى منزلة بدل الاشـــتمال من متبوعه قوله تعالى : ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون﴾.[1]

فـــإن المـــراد بهذا الكلام حمل المخاطبين على إتباع الرسل ، وقوله تعـــالى : ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجرا﴾ أوفى بتأدية ذلك المعنى ومؤكد له لأن معـــناه : لا تخســـرون معهـــم شيئا من دنياكم وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة.

ومن ذلك قول الشاعر :

أقـــول له ارحـــل لا تقيمن عندنا … وإلا فكن فى السر والجهر مسلما

المراد من البيت كمال إظهار الكراهة لإقامته لأن سره يخالف علنه ، وقـــوله : "لا تقيمن" أوفى بتأدية هذا المعنى لدلالته عليه بالمطابقة مع ما فـــيه مـــن التأكـــيد، بخـــلاف "ارحـــل" فإن دلالته على الكراهية لإقامته بالتضمن.[2] وقالوا إن جملة "لا تقيمن" إما أن تكون بدل اشتمال ، وهذا لا

(١) سورة يس ٢٠ ، ٢١.

(٢) وذلك لأن طلب الارتحال يقتضى عرفا محبة ذلك الارتحال عنهم ومحبته تقتضى كراهة ضده وهو الإقامة ، هذا وقالوا إن هذا البيت يناظر قولنا : (أعجبتنى الدار حسنها) لأن "لا تقيمن" بمنزلة "حسنها" فى هذا المثال ، لأن معنى الجملة الثانية مغاير لمعنى ما قبلها وغير داخل فيه مع ما بينهما من الملابسة ، أى أن "لا تقيمن" من بدل الاشتمال ، وقيل إنها تأكيد لطلب الارتحال أو استعمل هذا على بدل الاشتمال والتأكيد معاً.

يمنع كونها تأكيداً لفظياً وقيل يصح أن تكون تأكيداً معنوياً ، لأن عدم الإقامة مغاير للارتحال بحسب المفهوم ولكنه ملازم له في الوجود.

هذا وقد دار جدل طويل حول هذا البيت يراجع في شروح التلخيص ٣/٤٤.

ومن كمال الاتصال لكون الجملة الثانية بدلا من الأولى قوله تعالى : ﴿قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون﴾ [1] جاءت الثانية بدلا من الأولى ففصلت عنها ، وسر مجئ هذا البدل لئلا يتوهم أن مرادهم برب العالمين فرعون.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ﴾ [2] ، فجملة "موعظة ..."مفصولة عما قبلها لأنها بدل من قوله : "من كل شئ" أي كتبنا له كل شئ من المواعظ وتفصيل الأحكام. [3]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾ فصلت جملة "يوم يسمعون" عما قبلها إما لكونها خبرا والأولى إنشاء ، أو لأنها بدل من يوم ينادي. [4]

---

(١) سورة الأعراف ١٢٢.
(٢) سورة الأعراف ١٤٥.
(٣) أبو السعود ٣/٢٧٠.
(٤) أبو السعود ٨/١٣٥ ، ٤١/٤٢ ق.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ فقوله : "يفصل الآيات"جزء من معنى قوله : "يدبر الأمر" وبدل منه ، لأن تفصيل الآيات بعض من تدبير الأمور ولذلك كانت بمنزلة بدل البعض.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾.[1]

فجملة : "إن دابر هؤلاء مقطوع" بدل من قوله : "ذلك الأمر" وتفسير لما فيه من إبهام.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾[2] فإن "يذبحون ..." بدل بعض من قوله : "يسومونكم ..." ولذا فصل بينهما لكمال الاتصال.

جـ - ومن صور كمال الإتصال أن تكون الجملة الثانية بيانا للجملة التي قبلها بأن تنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة عطف البيان من متبوعه لإيضاح ما في الجملة الأولى من نوع الخفاء[3] والمقام يقتضي إزالته ، كقوله تعالى : ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ، فصل جملة "قال يا آدم" عما

(١) سورة الحجر ٦٦.

(٢) سورة البقرة ٤٩.

(٣) يقال : إذا كان في الجملة الأولى خفاء فتكون غير وافية بتمام المراد كالبدل فيلزم أن تتحد حالتا البدل والبيان؟ والجواب عن ذلك : أن المقصود في الإبدال هو الثاني لا الأول ولهذا كان الأول غير واف، والمقصود في البيان هو الأول، والثاني توضيح له وإن اشتركا في أصل خفاء الجملة السابقة.

على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ، فصل جملة "قال يا آدم" عما قبلها لكونها تفسيرا له وتبيينا.[١]

وجعلوا من هذا قوله تعالى : ﴿ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾ من وجه ، وهو أنه إذا خرج من جنس البشر فقد دخل في جنس آخر ، فجاءت جملة (إن هذا إلا ملك كريم) لبيان نوع هذا الجنس وسبق أن جاءت هذه الآية شاهدا على الفصل لكون الثانية مؤكدة للأولى ، وهذا منظور فيه إلى أنه إذا قيل عن إنسان ما هذا بشرا ، إعجابا به فهم منه إلحاقه بالملائكة ، فإذا قيل بعد ذلك (إن هذا إلا ملك كريم) كان تأكيدا لما فهم من الجملة الأولى ومن ثم فالآية صالحة لأن تكون من قبيل التأكيد أو البيان بناء على أحد الاحتمالين المذكورين.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالي : ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾ [٢] فقوله : "هل من خالق ..." مبين لنعمة الله عليهم من حيث المعنى ومفسر لها.

ومن صور كمال الاتصال لكون الثانية بياناً للأولي قوله تعالي : ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾.[٣]

---

(١) واعترض على الشاهد بأن جملة "وسوس" معطوفة على جملة "وإذ قلنا للملائكة" فتكون في محل جر مثلها والكلام في الجمل التي لا محل لها من الإعراب؟ والجواب - كما سبق - أن الاستشهاد بهذا منظور فيه إلى ما قبل تسليط قال عليه.

(٢) سورة فاطر ٣.

(٣) سورة آل عمران ٤٧.

فقد فصل جملة "إذا قضى أمراً ..." عما قبلها لكونها بيانا لكيفية خلق الله مـا يشاء ، خاصة فى ذلك المقام الغريب المتمثل فى ولادة عذراء من غير أن يمسها بشر. [1]

وفى الآية شاهد آخر لشبه كمال الاتصال بين جملة "قالت: رب أنى يكـون لى ولد" وما قبلها لكونها جواباً عن سؤال نشأ من الكلام الذى قبلها تقديـره : فماذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم..﴾.

ومـن كمـال الاتصال للبيان قوله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

فقد فصلت جملة "تأمرون بالمعروف" عن "كنتم خير أمة" لأنها مبينة لكونهـا خيـر أمة لما اتصفوا به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله ، ولا يخفى سبب الوصل فى "وتنهون" "وتؤمنون".

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا﴾. [2]

فقد فصلت جملة "يخادعون" عما قبلها لأنها بيان لـ "يقول" وتوضيح غرضهم مما يقولون ، فبينهما كمال اتصال.

(١) أبو السعود ٢/٣٧.

(٢) سورة البقرة ٨ ، ٩.

وقيل إن الفصل هنا جاء لشبه كمال الاتصال لأن جملة "يخادعون" استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين؟ فقيل : "يخادعون الله".(١)

وقد جعل عبد القاهر فصل "يخادعون" من قبيل أنها تأكيد لما قبلها ، لأن مخادعتهم ليست شيئاً غير قولهم "آمنا" من غير أن يكونوا مؤمنين فهو إذن كلام أكد به كلام آخر هو في معناه وليس شيئاً سواه.(٢)

قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾.(٣)

فصل جملة "ما أريد منهم من رزق" عما قبلها لأنها بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم أي ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقي ولا رزقهم بل أتفضل عليهم برزقهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي.(٤)

ومن الفصل لكمال الاتصال لكون الجملة الثانية مبينة للأولى قوله تعالى : ﴿إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع يوم تمور السماء مورا﴾.(٥)

---

(١) أبو السعود ١/٤٠.

(٢) الدلائل ٢٢٨.

(٣) سورة الذاريات ٤٦ ، ٤٧.

(٤) أبو السعود ٨/١٤٥.

(٥) سورة الطور ٧ – ٩.

فقـد فصـلت جملة "يوم تمور" لكونها مبينة لكيفية الوقوع منبئة عن كمال هوله وفظاعته ، وهى ظرف لواقع ، والمور : الاضطراب والتردد فى المجئ والذهاب وقيل : تحرك فى تموج. [1]

ومـن الفصل لكون الثانية بياناً للأولى قوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت﴾. [2]

فجملـة "لا إله إلا هو" بيان لما قبله لأن من ملك العلم كان هو إله لا غير.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد﴾. [3]

فجملة "بأسهم .." فصلت عما قبلها لأنها بيان لأن ما ذكر من رهبتهم ليس لضعفهم وجبنهم فإن بأسهم بالنسبة إلى أقربائهم شديد. [4]

ومن الفصل لكون الجملة الثانية بيانا للأولى قوله تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله

---

(١) أبو السعود ١٤٧/٨.

(٢) سورة الأعراف ١٥٨.

(٣) سورة الحشر ١٤.

(٤) أبو السعود ٢٣١/٦.

إلا هو يحيي ويميت﴾ فجملة "لا إله إلا هو" بيانا لما قبله لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره.

ومن البيان قوله تعالى : ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ (١) فإن جملة "يذبحون .." بيان ليسومونكم ولذا فصلت عنها وقيل إنها بدل بعض من قوله : "يسومونكم".

هـذا وقد جاء فى سورة إبراهيم قوله تعالى فى نفس القصة : ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم﴾ بعطف جملة "يذبحون" على ما قبلها بخلاف ما فى البقرة ، ويعلل أبو السعود سبب العطف فى آية سورة إبراهيم بقوله : وإنما عطفه على "يسومونكم" إخراجا له عن مرتبة العذاب المعـتاد(٢) ويقول في آية البقرة إن "يذبحون" بيان "ليسومونكم" ولذلك ترك العطف بينهما.

ويقـول سعد الدين : قد تعطف الجملة التى تصلح بيانا للأولى عليها تنبـيها على استقلالها ومغايرتها للأولى ، واستشهد بالآيتين المذكورتين ، وقـال عـن آية إبراهيم إن إثبات الواو جعل التذبيح بيانا لأنه أوفى على جنس العذاب وازداد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

(١) سورة البقرة ٤٩.

(٢) تفسير أبو السعود ٣٤/٦ ، ١٠٠/١.

ثم يقول أيضاً : وقد يكون قطع الجملة عما قبلها لكونه بيانا وتفسيراً للمفــرد من مفرداته كقوله تعالى : ﴿عذاب يوم كبير ، إلى الله مرجعكم﴾ فإنــه بين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعكم إلى من هو قادر على كل شئ فكان قادرا على أشد ما أراد من عذابكم.[1]

ومــنه قوله تعالى : ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾[2] ، فصــلت "أصحاب الجنة" لأنها بيانًا لكيفية عدم الاستواء فى الأحوال الأخروية كما ينبئ عنه التعبير عن الفريقين بصاحبيه النار وصاحبية الجنة.

ومن قبيل البيان قول أبى العلاء :

الــناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فإن جملة "بعض لبعض" موضحة ومبينة كون الناس للناس.

ومن ذلك قول الشاعر :

تلــــك عرســــاى تــــنطقان على عمــد قــول زور وهــتر

ســــألتانى الطـــلاق أن رأتــا مــالى قلــيلا قــد جئتمانى بنكر

فالبيــت الثانى جاء مفصولا عن الأول لأنه مبين لقول الزور والهتر الــذى ورد فى البيت الأول ، وفصلت جملة "قد جئتمانى بنكر" لشبه كمال الاتصـــال ، لأنها بمنزلة جواب عن سؤال نشأ من جملة "سألتانى .." كما

---

(١) المطول ٢٥٦/٢٥٧.

(٢) سورة الحشر ٢٠.

جاءت هذه الجملة على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب الذى زاد المعنى ظهوراً.

ومن ذلك قول سويد بن أبى كاهل :

ودعتنى برقاها إنها تنزل الأعصم من رأس اليفع

تسمع الحداث قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يستمع

فصل البيت الثانى عن سابقه لأنه بيان لما جاء فيه من رقاها وإنزالها الأعصم من رأس اليفع.[1]

ومن ذلك قول الشاعر :

إذا قيل أعمى قلت إن وربما أكون وإنى من فتى لبصير

إذا أبصر القلب المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس يضير

فجاء البيت الثانى مفصولا عن الأول لأنه بيان لكونه بصيرا مع أنه أعمى.

ومن ذلك قول لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

يتآكلون مغالة وخيانة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

(١) العصمة : المنع والحفظ ، واليفع : ما ارتفع من من الأرض ، وكأنها تؤثر على من اعتصم أو امتنع من غيره من أعلى مكان أو شئ اعتصم به.

فصـــل البيـــت الثانى عن الأول لأنه بيان لكون من عاش فيهم كجلد الأجرب.

ومـــن ذلـــك قـــول زيـــاد : إنى رأيت خلالا ثلاثا نبذت إليكم فيهن النصيحة : رأيت إعظام ذوى الشرف ، وإجلال ذوى العلم ، وتوقير ذوى الحلـــم فإن جملة "رأيت إعظام" وما عطف عليها مفصولة عما قبلها لأنها بيان للخصال الثلاث.

ووجـــه حســـن كمـــال الاتصـــال أنه فى التوكيد يفيد تقوية المعانى وتقريرها ، وفى البيان يفيد تنشيط النفس وإيقاظها ، لأن النفس عندما يرد علـــيها كلاما فيه شئ من الغموض تتشوق إلى بيانه ، فإذا جاء هذا البيان تمكـــن من النفس خير تمكن ، وفى المنزل منزلة البدل يفيد تفصيل الكلام كما فى قوله تعالى : ﴿واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين﴾ فـــإن قولـــه : ﴿أمدكم بأنعام﴾ أوفى بتأدية الغرض مما قبله لدلالته عليه بالتفصيل من غير إحالة على علمهم مع كونهم معاندين.

تنبيه :

لوحـــظ أن بعـــض الأساليب فى كمال الاتصال قد جاءت موصولة بالواو وذلك يكون لغرض يقصد إليه المتكلم كقول زهير بن خباب الكلبى :

أبـــنى إن أهلـــك فـــإنى ... قـــد بنيـــت لكـــم بنـــية

وجعلـــتكم أبـــناء ســـادا ... ت زنـــادكم وريـــة

فالبيت الثاني "وجعلتكم" وقع بيانا لبنية المجد التي بناها لهم ولو تركت هذه الواو لكان الكلام متصلا بنفسه من غير حاجة إلى الواو ، لكن ذكر الواو هنا دل على المغايرة التي قصد إليها الشاعر حيث قصد إلى جعل المعنى الذي دخلت عليه الواو متميزا في باب السيادة والشرف عن بقية مظاهر الشرف التي ذكرها في قوله : "بنيت لكم بنية".

ومما وقعت فيه الواو مع الجملة المنزلة منزلة التوكيد قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾. (١)

فقد عطف قوله : ﴿وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ – أي عهد عظيم الشأن – عطفه على "أخذنا من النبيين" مع أن الميثاق الثاني هو عين الميثاق الأول ، والأخذ في الثاني هو نفس الأخذ في الأول ، وذلك لتنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي تفخيما لشأن الميثاق ، كأن الميثاق الثاني ميثاق آخر مغاير للأول.

ومثله قوله تعالى : ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ بالعطف بعد قوله : ﴿فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ (٢) مع أن النجاة واحدة ولكن جاءت الثانية معطوفة لجعلها كأنها نجاة مختلفة عن الأولى ومتميزة عنها ، وفي ذلك تفخيم لشأن النجاة. (٣)

---

(١) سورة الأحزاب ٧.

(٢) سورة هود ٧٧.

(٣) تفسير أبو السعود ٩٢/٧.

ويلاحظ أن قوله تعالى : ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ (١) فـــي قصة صالح عليه السلام مع قومه دون عطف الجملة الثانية على الأولى.

وجـــاء في قصة شعيب قوله تعالى : ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ بالواو في الثانية.

ويذكر المفسرون : أنه إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرســـالة في نظر المرسل إليهم وهما التسحير والبشرية ، وأن الرسول لا يجـــوز أن يكـــن مسحرا ولا يجوز أن يكون بشرا ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا إلى معني واحد وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشراً. (٢)

وجاء ما يفيد التأكيد كذلك معطوفا على ما قبله بالواو في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله﴾ (٣) الأولـــى مصروفة لشئ غير التقوى فقد رجح المفسرون أن تكون التقوى الأولـــى مصروفة لشئ غير التقوى الثانية مع أن المأمور فيه واحد ، وإذا كـــان الأمـــر الثاني بالتقوى غير الأمر الأول كان وراء ذلك إعلاء لشأن التقوى واهتماما بالأمر بها وكأنه يتجدد مرتين.

---

(١) سورة الشعراء ١٥٣ - ١٥٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٦٢/٦ ، والكشاف ٣٦٢/٣.
(٣) سورة الحشر ١٨.

ومـن ذلـك أيضـا قولـه تعالى : ﴿يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ [١] ، فالاصطفاء واحد وكرر معطوفا مع أن الثاني مؤكد للأول ، وفي هذا دلالة على أن كونه قد تجدد مرتين فكان الله اصطفاها أولا ثم اصطفاها ثانيا وفي هذا من التكريم ما لا يخفى ويقال مثل هذا في قوله تعالى : ﴿أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [٢] فالمـتحدث عـنهم واحد وهم الكفرة ولكن مجئ الواو حدد ثلاث صور متغايرة في كل واحد من الشناعة والبشاعة ما يجعلها كأنها شئ قائم برأسه.

وجـاء قولـه تعالى عقب صفات المتقين في سورة البقرة : ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ بالعطف أيضاً مع أن المشار إليهم في الموضعين واحد.

وفي سر عطف "أولئك" الثانية يقول أبو السعود : تكرير اسم الإشارة لإظهـار مزيد العناية بشأن المشار إليهم وللتنبيه على أن اتصافهم يقتضي نيل كل واحد من تينك الأثرتين ، وأن كلا منهما كاف في تميزهم بها عمن عداهـم ، ويؤيده توسيط العاطف بين الجملتين بخلاف ما في قوله تعالى : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ فـإن التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيههم بالبهائم ، فتكون الجملة الثانية مقررة للأولى.

---

(١) سورة آل عمران ٤٢.
(٢) سورة الرعد ٥.

وأمـــا الإفـــلاح – الـــذى هو عبارة عن الفوز المطلوب – فلما كان مغايرا للهدى نتيجة له ، وكان كل منهما فى نفسه أعز الحرام يتنافس فيه المتنافسون فعل ما فعل (يعنى عطف أولئك) [١] فالواو فى كل ما سبق لما قبلها مـــن معـــنى التغاير الذى ينعكس على هذه الجمل فيوهم أنها معان متمايزة ومختلفة ووراء ذلك أسرار ولطائف كما رأيت. [٢]

٣- شبه كمال الانقطاع : [٣]

فهو أن تكون الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى ، يعنى أنها صـــالحة لأن تعطف[٤] لكن عطفها عليها يوهم عطفها على غيرها فيلتبس المعـــنى المراد مع العطف ولذلك يجب القطع ، وقد سمى المتأخرون من البلاغيين هذا النوع بالقطع والاستئناف ، ومثاله :

وتظـــن ســـلمى أننى أبغى بها بـــدلا أراهـــا فى الضلال تهيم

لـــم يعطف جملة "أراها فى الضلال" على جملة "تظن سلمى" مع أن العلاقـــة بيـــن أجزاء الجملتين تجوز العطف لما بينهما من مناسبة ظاهرة لاتحادهمـــا فى المسند – لأن معنى "أراها" "أظنها" والمسند إليه فى الجملة الأولى محبوب ، وفى الجملة الثانية محب لكنه لو عطف لكان من المحتمل

---

(١) تفسير أبى السعود ١/٣٤.

(٢) انظر دلالات التراكيب ٣٠٧.

(٣) إنما جعل ذلك شبيها بكمال الانقطاع باعتبار أنه يشتمل على مانع من العطف وهو إيهام خلاف المراد كما أن المختلفتين خبرا وإنشاء ، والمتفقتين اللتين لا جامع بينهما يشتملان على مانع لكن المانع هو دونه لأنه مانع خارجى يمكن دفعه بنصب قرينة.

(٤) لأنه لا مانع فى النحو من أن تعطف لكن مع العطف لأمر بلاغى.

أن يتوهم أنها معطوفة على جملة "أبغى بها بدلا" التى هى مظنون سلمى – لقربها منها ، فيكون قوله "أراها" داخلا فى مظنونات سلمى مع أنه ليس بمراد ومن ثم يفسد الكلام مع العطف وقالوا إن هذا البيت يمكن أن يكون من شبه كمال الاتصال كأنه قيل كيف تراها فى هذا الظن؟ فقال : أراها تتحير فى أودية الضلال.

٤-شبه كمال الاتصال[1] :

(١) الفرق بين كمال الاتصال وشبهه : أن الاتصال فى الأول بين الجمل اتصال كامل ، أما فى شبه كمال الاتصال فليست الجملة الثانية عين الأولى ، وإنما أبانت عن معنى أثارته الجملة الأولى وهذه هى الصلة التى بين الجملتين ، وإذا كانت المعانى فى كمال الاتصال تتحد إما فى جزء من مضمون المعنى ، أو عن طريق المقتضيات التى ترتبط بوجوه المعاني ، فإن المعانى فى شبه كمال الاتصال تتواصل من جهة أن الأولى تتولد منها الجملة الثانية وكأنها أصل ينبثق منه فرع. هذا وكون شبه كمال الاتصال موجب للفصل راجع إلى أن السؤال والجواب إن نظر إلى معنييهما (يعنى تقدير السؤال ومجئ الجملة جوابا عنه) فبينهما شبه كمال الاتصال وإن نظر إلى قائلهما فكل منهما كلام متكلم ، ولا يعطف كلام متكلم على كلام آخر ، فعلى جميع التقديرات الفصل متعين.

والجدير بالذكر أن مما ذكروه فيما يشكل من هذا النوع قوله تعالى : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) التوبة ١١٣/١١٤ – فقد ذكروا أن "وما كان استغفار إبراهيم" جواب عن سؤال مقدر اقتضته الآية قبله تقديره : لم استغفر إبراهيم لأبيه؟ وقد اشتملت جملة الجواب على الواو؟ وأجابوا عن ذلك بأن الواو للاستئناف – كما سبق فى موضع آخر – لا للعطف ، كما أجيب عن ذلك أيضاً بأن السؤال المعتبر فيه الفصل ما كان منشؤه التردد فى حال المسئول عنه بأن حاله كذا أم لا؟ وقد علل عبد الحكيم سبب الوصل هنا مستندا على سبب نزول الآيات مثال : إن قوله "ما كان للنبى" نزلت فى منع الرسول عليه السلام من الاستغفار لعمه ومنع المؤمنين من الاستغفار لآبائهم محتجين فى ذلك بأن إبراهيم استغفر لأبيه ، فالآية الأولى منع لهم عن الاستغفار للآباء والأقربين ، والثانية "وما كان استغفار إبراهيم" جواب لتمسكهم باستغفار إبراهيم ، فعطف الثانية على الأولى وليست جوابا عن سؤال نشأ من الآية الأولى ، وبذلك تكون الواو إما للاستئناف وليست جوابا عن سؤال نشأ من الآية الأولى ، وبذلك تكون الواو إما للاستئناف وليست للعطف ، أو تكون عاطفة للتناسب كما ذكر آنفا.

أى كـون الجملـة الثانيـة بمنزلة المتصلة بالأولى ، وهو أن تكون الجملـة الثانيـة جوابا لسؤال اقتضته الجملة الأولى فتنزل الجملة الأولى منـزلة السؤال لكونها مشتملة عليه فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عـن السـؤال[1] فالعلاقـة هنا كالعلاقة التى بين السؤال والجواب وهما متغايران.

ويسـمى الفصـل لذلـك استئنافا ، وكذا الجملة الثانية أيضا تسمى استئنافا ، وقد جعلوا الاستئناف هنا على ثلاثة أضرب :

أ-أن يكـون السـؤال الذى تضمنته الجملة الأولى عن العلة المطلقة للحكم كقوله :

قـال لـى كـيف أنت قلت عليل ... سـهر دائـم وحـزن طويـل[2]

أى ما بالك عليلا؟ أو ما سبب علتك؟ فقال : سهر دائم .. إلخ.

وكقول أبى العلاء :

وقد غرضت من الدنيا فهل زمنى ... معط حياتى لغر بعد ما غرضا[3]

---

(١) تـنزيل السـؤال بالفحوى منزلة الواقع يكون لأغراض بلاغية منها : كإغناء السائل أن يسأل ، أو أن لا يسمع من السامع شئ تحقيرا له وكراهة لسماع كلامه ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه أو كالقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو على ترك السؤال.

(٢) يكون هذا البيت من الفصل للاستئناف إذا جعل "سهر" خبر مبتدأ تقديره : (حالى سهر) ، أمـا إذا جعـل خـبرا بعد خبر على المبالغة فلا شاهد فيه ولا شاهد فى الشطر الأول للاستئناف للتصريح فيه بالسؤال.

(٣) غرضت : أخذت غرضى وشبعت ، الغر : الغافل ، ما غرضا : أى لم يضجر الحياة ، ومعـنى البيـت الـثانى أن تجربته مع الناس لم تترك له حاجة فى ودهم وجعلته يسأم الحياة.

جربـــت دهري وأهليه فما تركت لي التجارب في ود امرئ غرضا

فالبيت الأول يصف ضيق الشاعر بالحياة وما يجري فيها ويتمنى أن يهـــب الـــزمان حـــياته لرجل غافل لا يزال مشوقا للحياة ، وهذا المعنى المفهوم من البيت الأول يثير في النفس تساؤلا عن معرفة علة ذلك؟ أي لم تقـــول هذا؟ وما الذي اقتضاك أن تطوى عن الحياة إلى هذا الحد كشحك؟ فجاء في البيت الثاني قوله : (جربت دهري ..) جوابا عن هذا السؤال.

ب-أن يكـــون السؤال عن سبب خاص للحكم[1] كقوله تعالى: ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾. [2]

فالتهام النفس هنا جعلها لا تخلو مما يشوب براءتها وهذا لا يسأل فيه عن علة الحكم المطلق ، وإنما يسأل فيه عن سبب خاص، وتقدير السؤال: هـــل النفس أمارة بالسوء؟ فقيل : إن النفس .. إلخ. وهذا الضرب يقتضي تأكـــيد الحكم المذكور في الجملة الثانية لأن السؤال فيه عن حكم تصديق ، أما السؤال العام في الضرب السابق فهو تصور (ما هو) لا يتأتى فيه شك فلا يؤكد.

---

(١) ضابط هذا الضرب وما قبله (يعني السؤال عن الحكم مطلقا) أن الجملة السابقة أو سياقها إذا لوحـــا بالاستئناف فالسؤال المقدر عن سبب خاص ، وإلا فهو سبب عام فقوله : قال لـــي كيف أنت .. إلخ ، لا يدل إلا على وجود علة مستديمة لسبب ما ، وأما الآية (وما أبـــرئ) فإن الذهن ينصرف فيه إلى سبب خاص هو أنها أمارة بالسوء ، وإثارة الجملة الأولى للسؤال يجعل النفس اليقظى تتسارع لفهم الجواب.

(٢) سورة يوسف ٥٣.

جـ-أن يكون السؤال عن غير الأمرين السابقين ، بأن يكون السؤال عن شئ آخر له تعلق بالجملة الأولى غير المتعلق بالسببية ، كقوله تعالى : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام) [1] ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام؟ فقيل : قال سلام ومنه قول الشاعر :

زعـم العـوازل أننى فى غمرة صـدقوا ولكن غمرتى لا تنجلى

فإن الشاعر لما اشتكى من جماعات العوازل ، كأنه أثار نفس السامع ليسأل : أصدقوا فى ذلك أم كذبوا؟ فقال : صدقوا.

ومثله قول جندب بن عمار :

زعـم العـوازل أن ناقـة جندب بجـنوب خبـت عريـت وأجمت

كـذب العـوازل لـو رأينـني بالقادسـية قلـن : لـج وذلت[2]

فالبيت الثانى مفصولا عما قبله لأنه جواب عن السؤال كما فى المثال السابق ، إلا أن الاستئناف هنا قد ازداد تأكيد بان وضع فيه الاسم الظاهر (العوازل) وفي البيت الثانى وضع المضمر لأن حقه الإضمار لتقدم ذكره ، لكـنه أظهـره بحيث يبدو أنه غير محتاج إلى ما قبله ، وجعل كأنه ليس مسبوقا بكلام آخر.

---

(١) سورة هود ٦٩.

(٢) خبـت : من ديار بكر ، وعريت : أزيل عنها رحلها ، أجمت : تركت فلم تركب ، وهذا كنايـة عن قعوده بهذا المكان دون عرضة ، والقادسية : موضع بالعراق ، ومعنى لج وذلت أى جد فى السير وانقادت ناقته له.

ومن أمثلة شبه كمال الاتصال قول لبيد :

عرفـــت المـــنزل الخـــالى عفـــا مـــن بعـــد أحـــوال
عفـــاه كـــل حـــنان عســـوف الوبـــل هطـــال(١)

فإنه لما قال (عفا) -والعفاء لا يحصل للمنزل بنفسه- كان مظنه أن يسال عن فاعل العفاء من هو؟ فجاء البيت الثانى مفصولا لكونه جوابا عن هذا السؤال المقدر.

ومثله قول المتنبى :

ومـا عفـت الـرياح له محـلا عفـاه مـن حـدا بهـم وراحا

فإنـــه لما نفى فعل العفاء عن الرياح كان مظنة أن يسأل عن الفاعل فجاء قوله "عفاه من حدا.." جوابا مفصولاً عما قبله.

ومن الفصل لشبه كمال الاتصال قول أبى العلاء المعرى :

لا تطلبـــن بآلـــة لـــك حاجـــة قلـــم البلـــيغ بغـــير حـــظ مغزل

فالجملـــة الثانية (قلم البليغ ..) بمنزل جواب عن سؤال نشأ من جملة (لا تطلبن .. إلخ) تقديره.

ومـــن الفصل لشبه كمال الاتصال قوله تعالى : ﴿وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون

---

(١) عفا: درس ، والأحوال : هى التى سعد فيه المكان بسكانه من أحبابه ، الحنان : السحاب، عسوف الوبل : شديد المطر.

﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [1] فقوله : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ جاء بغير العطف لأنه استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات ، وقد وقعت هذه الجملة جوابا عن سؤال مقدر ناشئ من الوعد السابق كأنه قيل : كيف يروا دار الفاسقين وهم فيها ، فقيل : سأهلكهم ، وإنما عدل عن التعبير بالإهلاك إلى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئنانا بها.

هذا ويقسم البلاغيون شبه كمال الاتصال (الاستئناف) إلى عدة صور غير ما تقدم ومنها :

أ-أن من الإستئناف ما يأتى بإعادة اسم ما استؤنف عنه الحديث نحو : أحسنت إلى زيد زيد بالإحسان حقيق، فقوله: زيد بالإحسان حقيق .. استئناف أعيد فيه اسم زيد المتحدث عنه فى الجملة الأولى ، وهذا واقع جوابا عن سؤال أثارته الجملة الأولى تقديره من المخاطب : وهل زيد حقيق بالإحسان أم لا؟

ب-ومن الاستئناف ما يبنى على صفة ما استؤنف الحديث عنه دون اسمه – يعنى يبدأ الاستئناف بذكر الصفة لا الاسم – والمراد أن هناك صفة تصلح لترتب الحديث عليه مثل : أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك ، فقوله (أهل لذلك) استئناف بصفة من صفات زيد ، فصل عما قبله لكونه جوابا نشأ من الجملة الأولى ، تقديره : لماذا أحسن إليه؟ أو هل هو حقيق بالإحسان؟

(١) سورة الأعراف ١٤٥.

وهــذا الضـــرب أبلغ من سابقه لاشتماله على بيان السبب الموجب للحكــم وهو الصداقة التى دعت إلى الإحسان بخلاف الضرب الأول ففيه بيان سبب لا يشتمل على مثل تلك الصفة.

ومما ذكروه فى الاستئناف (شبه كمال الاتصال) أنه قد يحذف صدر الاســتئناف لقــيام قريــنة تــدل عليه كقوله تعالى : ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال﴾ [1] فمن قرأ "يسبح" مبنيا للمفعول ، إذ التقدير : يسبح فــيها رجــال وكأنه جواب عن سؤال مقدر : من يسبحه؟ فجاء الاستئناف بقوله "رجال" محذوف الصدر وهو "يسبح فيها" والمحذوف هنا فعل.

وعلى قراءة البناء للفاعل يكون "رجال" فاعلا لـــ يسبح ، ويدخل فى هــذا نحو قولهم : نعم الرجل زيد وبئس الرجل عمرو ، وذلك على القول بــأن المخصوص خبر مبتدأ محذوف أى هو زيد ، كأنه لما قيل ذلك فأبهم الفاعل بجعله معهودا ذهنيا سئل عن تفسيره فقيل : هو زيد ، فحذف المبتدأ الذى هو صدر الاستئناف.

وقــد يحذف الاستئناف كله – يعنى الجملة الواقعة جوابا – ويقام ما يدل عليه مقامه كقول الحماسى :

زعمـــتم أن إخوتكـــم قـــريش ... لهـــم إلـــف ولـــيس لكم إلاف [2]

فقد حذف الجواب الذى تقديره : كذبتم فى زعمكم ، وأقام قوله (لهم إلــف .. إلــخ) مقامه لدلالته عليه ، ويجوز أن يقدر قوله : (لهم إلف ..) جوابــا لسؤال اقتضاه الجواب المحذوف ، وكأنه لما قال المتكلم : كذبتم ، قــالوا : لــم كذبــنا؟ قــال : لهم إلف وليس لكم إلاف ، فيكون فى البيت استئنافان.

---

(١) سورة النور ٣٦ ، ٣٧.

(٢) البيت فى تكذيب بنى أسد عند انتسابهم لقريش.

ويجوز أن يكون الفصل في البيت لشبه كمال الانقطاع ، وذلك لدفع إيهام العطف على قوله : (إن إخوتكم قريش) فيدخل قوله (لهم إلف) ضمن ما زعموه ، ويكون ما زعموه أمرين : إن إخوتهم قريش ، وأن لهم إلفا ، وليس ذلك بمراد فجاء الفصل لدفع هذا الإيهام. وقد يحذف الاستئناف ولا يقام شئ مقامه لوجود قرينة تدل عليه كقوله تعالى : ﴿إنا وجدناه صابرا نعم العبد﴾ [1] تقدير الاستئناف : أيوب ، أو هو ، لدلالة ما قبل الآية وما بعدها عليه ، ونحوه قوله تعالى : ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ [2] والاستئناف المحذوف تقديره : هم نحن.

فائدة :

وقد ذكر عبد القاهر أن حذف المبتدأ مما يطرد فيه القطع والاستئناف كما في قول الشاعر :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده ... وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواء أذاع المعصرات به ... وكل حيران سار ماؤه خضل

فلما ذكر الشاعر أن الطلل قد هاج أهواءه المكنونة اشتاقت نفس المخاطب إلى معرفة خبر هذا الطلل ، فاستأنف الشاعر حديثا ، وبنى الكلام على حذف المبتدأ في البيت الثاني أي ذاك ربع.

وقد عرض عبد القاهر لكثير من شواهد هذا النوع على نفس النمط.

---

(١) سورة ص ٤٤.

(٢) سورة الذاريات ٤٨.

مواطن الوصل

يتأتى الوصل فى موضعين :

الأول: كمال الانقطاع مع الإيهام

ومعـــناه : أن يكون ذلك فى كمال الانقطاع بين الجملتين عندما يوهم الفصـــل فـــيه خـــلاف المقصـــود ، أى أن الأصل فى هذا هو الفصل لأن الجملتيـــن مختلفتين خبراً وإنشاء لكن مجيئهما مفصولتين يوهم معنى غير مـــراد فيتعين الوصل حينئذ لدفع هذا الإيهام[1] ، كقولهم : (لا وأيدك الله) فقولـــه : لا يصدر لكلام سابق كأنه قيل : هل الأمر كذلك؟ قيل : لا ، أى لـــيس الأمر كذلك ، فهذه جملة إخبارية ، (وأيدك الله) جملة إنشائية معنى لأنهـــا بمعـــنى الدعاء فبينهما كمال الانقطاع ، لكن ترك العطف هنا يوهم خـــلاف المقصـــود ، فإنـــه لـــو قيل : لا ايدك الله ، لتوهم أنه دعاء على المخاطـــب بعـــدم التأيـــيد ، فلعدم هذا التوهم جئ بالواو العاطفة للإنشائية الدعائـــية على الإخبارية المنفية المدلول عليها بكلمة "لا" كما ترك العطف فى صورة القطع (شبه كمال الانقطاع) فى قوله : "وتظن سلمى .." البيت دفعاً للإيهام.

---

(١) وقـــالوا إن ذلـــك يأتى فى كمال الاتصال أيضا عند ذلك الإيهام كقولك لمن سألك : هل تشـــرب قهوة؟ لا وتركت شربها ، فإن بين جملة لا إنى لا أشربها ، وبين جملة تركت شـــربها كمال اتصال لأن الثانية مؤكدة للأولى ، لكنه لو فصل فقال : لا تركت شربها لأوهم أنه لا زال يشربها ، ومن ثم تعين العطف هنا مع أن المقام للفصل ، وقيل يمكن المجئ بقد فيقول : لا وقد تركت شربها ، أو يسكت قليلا.

ويـــروى أن أبا بكر رضى الله عنه مر برجل فى يده ثوب فقال له الصديق : أتبيع هذا الثوب؟ فقال الرجل : لا يرحمك الله ، فقال الصديق : قل لا ويرحمك الله.

الثانى: الوصل للتوسط بين الكمالين (أى بين حالتى كمال الانقطاع وكمال الاتصال)

وضابط هذا الضرب :

أن تتفق الجملتان خبرا وإنشاء لفظا ومعنى أو معنى فقط[1] مع وجود جامع بينهما[2] ، ويندرج تحت هذا الضرب عدة أقسام :

أ– مثال اتفاق الجملتين خبرا لفظا ومعنى قول الله تعالى : **(إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم).** [3]

فالجملتـــان خبريتان لفظا ومعنى ، ومتفقتان فى الاسمية – وهذا مما يحسن الوصل – والمناسبة بينهما ظاهرة وهى التضاد بين الأبرار والفجار

---

(١) والاتفـــاق خبرا وانشاء يتحقق إذا كان كلتا الجملتين خبريتين لفظا ومعنى – أو إنشائيتين لفظـــا ومعنى – أو كان كلتاهما خبريتين معنى فقط بان يكونا إنشائيتين لفظا – او تكون الأولى إنشائية لفظا والثانية خبرية – أو تكون الأولى إنشائية معنى والثانية خبرية ، أو كـــان كلـــتاهما إنشـــائيتين معنى فقط بأن تكونا خبريتين لفظاً ، أو الأولى خبرية لفظا والثانية إنشائية معنى ، أو العكس.

(٢) ســـبقت الإشارة إلى الجامع وللسكاكى فيه كلام طويل ، والمطلوب أن توجد مناسبة بينة تجمع بين الجملتين كالاتحاد فى المسند إليه أو فى المسند أو فى المتعلقات وإذا لم يوجد الجامع كان بينهما كمال الانقطاع.

(٣) سورة الانفطار ١٣/١٤.

اللذين هما المسند إليهما ، وبين الكون في النعيم والكون في الجحيم اللذين هما المسندان.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (١) الجملتان خبريتان لفظاً ومعنى ، والجامع بينهما اتحاد المسندين لأنهما معاً من المخادعة ، وكون المسند إليهما أحدهما مخادع – بكسر الدال – والآخر مخادع – بفتح الدال – فبينهما شبه التضاد لما تشعر به المخادعة من العداوة والتقابل أو شبه التضايف ، والجملة الأولى فعلية والثانية إسمية وهي أكد في الدلالة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ (٢) فجملة (ويخرج الميت من الحى) معطوفة على (ومن يخرج الحى ..) إلخ وهما متفقتان خبرا وكلتاهما فعلية ، والجامع المسوغ للعطف موجود وهو الاتحاد في المسند (يخرج) والاتحاد في المسند إليه والتضاد بين المفعولين.

ب-ومثال اتفاق الجملتين إنشاء لفظا ومعنى قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (٣) ، فقوله (واشربوا ولا تسرفوا) جملتان إنشائيتان لفظا ومعنى معطوفتان على مثلهما ، والجامع اتحاد المسند إليه في الجمل

---

(١) سورة النساء ١٤٢.

(٢) سورة يونس ٣١.

(٣) سورة الأعراف ٣١.

الــثلاث ، وتناسب المسند فيها وهو الأمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف لاقترانها في الذهن.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ (٢) والآيات كثيرة في هذا المجال يمكنك استحضارها.

جـــ-ومــثال كون الجملتين إنشائيتين معنى مع كون الأولى خبرية لفظا والمعطوفة إنشائية قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا﴾ (٣) ، فجملـــة (قولـــوا) معطوفة على (لا تعبدون) لأنهما – وإن اختلفا لفظا – متفقتان معنى لأن (لا تعبدون) إخبار في معنى الإنشاء – الــنهي – أي لا تعبدوا ، وإنما جاء الأمر في صورة الإخبار لأن ذلك أبلــغ في الدلالة من صريح الأمر ، فكأن المخاطب سارع في الامتثال فأخبر عنه ذلك.

د-ويمكــن أن يستخرج من هذه الآية مثالاً آخر وهو : أن تكون الجملتان إنشـــائيتين معـــنى فقط وهما خبريتان لفظا ، لأن قوله : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ لابـــد أن يقـــدر له فعل فإما أن يقدر خبر في معنى الطلب أي

---

(١) سورة الأعراف ١٧١.
(٢) سورة النساء ٣٦.
(٣) سورة البقرة ٨٣.

وتحسنون[1] بمعنى (أحسنوا) وبذلك يكون عندنا جملة (وبالوالدين إحسانا) معطوفة على جملة (لا تعبدوا) وكلتاهما خبر لفظا إنشاء معنى – أو يقدر ذلك المتعلق من أول الأمر بصيغة الطلب أى (وأحسنوا) بالوالدين إحسانا ليوافق الأصل معناه ، ويكون عطفه على (لا تعبدون) كعطف قوله (قولوا) – يعنى كونهما إنشائيتين معنى والأولى خبرية – والجامع بين هذه الجمل ، اتحاد المسند إليه ، وأما المسندات فإنها متناسبة باعتبار تخصيص الله الأمر بكل منها وأخذ الميثاق عليها ، وهي العبادة والإحسان للوالدين وقول الحسن للناس.

وجعلوا من هذا القبيل قوله تعالى فى سورة الصف : (وبشر المؤمنين) عطفا على (تؤمنون) قبله ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾.[2]

فقالوا إن (بشر) معطوف على (تؤمنون) فى الآية الثانية والتى هى إنشاء معنى إخبار لفظا ، لأن (تؤمنون) بمعنى (آمنوا) ولكن يؤخذ على

---

(١) ورجح هذا التقدير بوجهين : أحدهما : موافقة المعطوف عليه لفظا ، والثاني : الإشارة إلى المبالغة فى تأكيد الطلب متى كان المخاطب مسارعاً للامتثال فهو مخبر عنه بهذا الاعتبار أمام المأمور إظهاراً لكمال الرغبة فى الامتثال.

(٢) سورة الصف ١ – ١٣.

هذا الوجه أن المخاطب في قوله (تؤمنون) هم المؤمنون خاصة بدليل قوله (تؤمنون بالله ورسوله) والمخاطب بقوله : (بشر) هو النبي ﷺ – فمع وجود المناسبة – إلا أنه لا يحسن عطف الأمر لمخاطب على الأمر لمخاطب آخر ، إلا عند التصريح بالنداء نحو : يا زيد قم واقعد يا علي.

هذا بالإضافة إلى أن قوله (تؤمنون) بيان لما قبله على طريق الاستئناف، فهي مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال لأنها جواب عن سؤال نشأ من قوله : (هل أدلكم على تجارة) أي قالوا كيف نفعل؟ فقيل تؤمنون.

والأحسن أن يقال : أن (بشر) معطوف على (قل مرادا قبل (يا أيها الذين آمنوا) أي قل يا محمد وبشر ، أو معطوف على محذوف أي فأبشر يا محمد وبشر ، هذا وفي الآية مواضع أخرى للفصل منها أن جملة (نصر من الله وفتح قريب) بيان لما يحبونه ، ولذلك فصلت لكمال الاتصال ، وقيل أنها بدل من (وأخرى تحبونها) ، ولا يخفى كذلك العطف بين بقية الجمل للتوسط بين الكمالين للاتفاق في الخبرية مثل (تؤمنون وتجاهدون) ومثل (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات) ومثل (نصر من الله وفتح قريب).

هـ –ومما اتفق فيه الجملتان في الخبرية معنى فقط والثانية إنشائية قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي وأشهدكم، فالثانية إنشائية لفظا إخبار معنى.

و –ومثال كون الأولى إنشائية لفظا خبرية معنى والثانية خبرية قوله تعالى:
﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا

فيه﴾ (١) ، فإن جملة (ودرسوا ما فيه) معطوفة على (ألم يؤخذ عليهم) وهي وإن كانت إنشائية لفظاً فهي في معنى الإخبار بمعنى أي أخذ عليهم ، لأن الاستفهام إنكاري بمعنى النفي.

وربما كان ذلك من عطف القصة على القصة كما جاء في قوله تعالى : ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات﴾.(٢)

فقد يظهر لأول وهلة أن جملة (وبشر) وهي إنشاء معطوفة على (فإن لم تفعلوا) وهي خبر فيكون هذا من قبيل عطف الإنشاء وبشر على الخبر. ولذلك قال الزمخشري فإن قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه – يعني في جملة "فإن لم تفعلوا"؟ قلت المراد ليس الذي إعتمد بالعطف هو الأمر ، حتى يطلب له مشاكل عن أمر أو نهي يعطف عليه ، إنما المعتمد عليه بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين – والمقصود بجملة الوصف هنا في كلام الزمخشري هو مضمون الجمل الواردة في كل من الفريقين : ولذلك عقب البلاغيون على عبارته بقولهم لفظ الجملة في عبارة الزمخشري لم يرد به ما هو المقصود في هذه المباحث – يعني عطف جملة واحدة على أخرى – بل أريد به معنى المجموع أي المعتمد بالعطف هو مجموع قصة بين فيها ثواب المؤمنين على مجموع قصة بين فيها عقاب الكافرين ، بمعنى أن العطف في الآية ليس من باب عطف

---

(١) سورة الأعراف ١٦٩.
(٢) سورة البقرة ٢٤ ، ٢٥.

الجملة على الجملة حتى يطلب له مناسبة الثانية مع الأولى ب من باب ضم جمـل مسوقة لغرض إلى أخرى مسوقة لغرض آخر والمقصود بالعطف المجمـوع ، وشرطه المناسبة بين الغرضين فكلما كانت تلك المناسبة أشد كان العطف أحسن[1] وهذا الوجه هو الراجح.

وقـيل فى المثال السابق أيضا إن (بشر) معطوف على (فاتقوا النار) ولكـن يعـترض علـى ذلـك بأن المناسبة فى هذا العطف مفقودة وذلك لاخـتلاف المخاطـب فى الأمرين فالمخاطب بقوله (وبشر) هو النبى ﷺ وقيل : إن (وبشر) معطوف على محذوف يدل عليه ما قبله أى فأنذرهم يا محمد وبشر الذين آمنوا.

وقـال السـكاكى : عن (وبشر) معطوف على (قل) مقدرا قبل قوله تعـالى : (يـا أيها الناس أعبدوا ربكم) هذا وأصح الوجوه هو الأول وهو كون العطف هنا من باب عطف القصة على القصة.

محسنات الوصل :

قـالوا إن هناك محسنات للوصل بعد تحقق شروط العطف المذكورة من قبل ومن تلك المحسنات:

(١) تناسـب الجملتيـن فـى الإسمية والفعلية بأن تكونا اسميتين إذا قصد الثـبوت وفعليتيـن إذا قصد التجدد. فمثال التناسب بينهما فى الإسمية قول الشاعر :

أعطيت حتى تركت الريح حاسرة وجـدت حـتى كأن الغيث لم يجد

---

(١) راجع المطول وحاشية السيد ص ٢٦٣.

والتناسب في المضارعة كقول الشاعر :

نـــروح ونغـــدو لحاجتـــنا　　وحاجـــة مـــن عـــاش لا تنقضي

وقـالوا : إن هذا التناسب مطلوب ما لم يمنع منه مانع مثل أن يراد في إحداهما التجدد وفي الأخرى الثبوت نحو : محمد قام وعلي قاعد ، أو يـراد فـي إحداهما المضي وفي الأخرى المضارعة كقوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله﴾ وقوله: ﴿ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ أو يراد في إحداهما الإطلاق وفي الأخرى التقييد بالشرط مثل : أكرمت زيداً وإن جئتني أكرمك أيضا ، ومنه قوله تعالى : ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر﴾.

(٢) ومن محسنات الوصل أيضاً التناسب في الإطلاق والتقييد ، والتناسب فـي الإطـلاق أمثلته مرت كثيرا ، ومن أمثلة التناسب في التقييد قول الشاعر :

دنـوت تواضـعا وعلوت مجداً　　فشـأناك انحـدار وارتفـاع

الجامع :

المراد به هو التناسب بين الجملتين الذي يسوغ عطف إحداهما على الأخـرى ، وقـد سـبق التنويه بذلك في بداية الحديث عن باب الفصل والوصـل ، واشترطوا أن تتحقق هذه المناسبة في المسند إليه في الجملتين وفي المسند وفي المتعلق من اتحاد في كل واحد منهم أو تضاد أو تماثل أو غير ذلك.[1]

(١) راجـع بغـية الإيضـاح جـ٢ ، ص ٨٧ وما بعدها ، والمطول ص ٢٦٤ ، وشروح التلخيص ص ٧٧ وما بعدها.

آراء العلماء في عطف الخبر على الإنشاء

هذا ويذكر الدكتور محمد أبو موسى رأياً له وجاهته فى مجئ العطف فـــي الجمل المختلفة أخباراً وإنشاء نقله عن ابن هشام فى (مغنى اللبيب) ، ومضمون هذا الرأى ما ذكره الدكتور أبو موسى بقوله :

(وإذا تركنا الآراء إلى النصوص الفصيحة وجدنا الواو تقع كثيراً بين الخــبر والإنشــاء ومن ذلك قوله تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [1] وقوــله تعالى : ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾. [2]

وهــذا كثــير جدا وقد ذهبوا فى توجيهه مذاهب مختلفة ، أصحها – عندنا – أن تكون الواو – فى هذه الجمل – واو استئناف ، قال ابن هشام فــي أقســام الواو : والثانى والثالث من هذه الواو واوان يرتفع ما بعدهما أحدهمــا : واو الاســتئناف فــي نحــو قوله تعالى ﴿لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء﴾ [3] ونحــو : لا تأكل السمك وتشرب اللبن فيمن رفع ، ونحو (واتقوا الله ويعلمكم الله).

إذ لــو كانت واو عطف لانتصب "نقر" ولانتصب أو انجزم "تشرب" وللزم عطف الخبر على الأمر فى "واتقوا الله" وقال الشاعر :

على الحكم المأتى يوما إذا قضى　　　قضـــيته الا يجــور ويقصـــد

---

(1) سورة البقرة ٢٨٢.

(2) سورة الحج ٢٢.

(3) سورة الحج ٥.

وهـــذا متعين للاستئناف ، لأن العطف يجعله شريكاً في النفي فيلزم التـــناقض ، وكذلـــك قولهم : دعني ولا أعود لأنه لو نصب كان المعنى : ليمتـــنع تـــركك لعقوبتي وتركي لما تنهاني عنه وهذا باطل لأن طلبه ترك العقوبـــة إنما هو في الحال فإذا لم تقيد ترك المنهي عنه لم يحصل غرض المؤدب ، والبيت على العطف يكون معناه ألا يجور وألا يقصد وهذا غير مراد.

والمهـــم أن الواو الواقعة هنا بين الخبر والإنشاء عند بن هشام هي واو الاستئناف.

ثـــم يقول : والزمخشري يرى ضرورة المشاكلة بين الخبر والإنشاء ليصح هذا العطف ، وفي كلام عبد القاهر إشارة سابقة إلى هذا ، فقد ذكر: (الخـــبر لا يعطـــف علـــى الاســـتفهام)[1] فالواو التي يسميها النحاة (واو الاستئناف) وهي لعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ، أو عطف قصـــة على قصة سواء أكانت بين الخبر والإنشاء ، أو بين خبرين أو بين إنشائين.

وهذا مما يحل إشكال الاستئناف بالواو الذي طالما نشب في حلوقنا.

---

(١) قال عبد القاهر ذلك في حديثه عن فصل ، ألا إنهم هم السفهاء ، عن ما قبله حيث يقول : لـــو عطف لصار حديثاً منهم عن أنفسهم بأنهم هم السفهاء من بعد أن زعموا أنهم إنما تـــركوا أن يؤمـــنوا لئلا يكونوا من السفهاء ، على أن في هذا أمراً آخر وهو أن قوله تعالى (أنؤمن) استفهام ولا يعطف الخبر على الاستفهام الدلائل ٢٢٣.

وهذا قريب من قول صاحب الكشف فى تعليقه على كلام الزمخشرى[1] حيث قال : تعقيباً على ما ذكره الزمخشرى فى الهامش :

(إنه من باب ضم جمل مسوقة لغرض إلى أخرى مسوقة لغرض آخر ، والمقصود بالعطف المجموع ، وشرطه المناسبة بين الغرضين).

ويضيف أبو موسى تعقيباً على هذا الكلام قوله : إذن هناك باب يسمي ضم جمل مسوقة لغرض .. إلخ والواو الواقعة بين الخبر والإنشاء من هذا الباب ، وليست هى كل هذا الباب ، وهذا هو ما ذهبنا إليه ، وباب الضم هذا هو الاستئناف بالواو ، ولا عليك إذا ألحقت به الفاء التى يسميها النحاة فاء الاستئناف ، والفرق بينهما : أن الواو تجمع قصة على قصة ، أعنى مضمون كلام أو جمل مسوقة لغرض والفاء ترتب ، قصة على قصة أى مضموناً على مضمون".[2]

ومن جميع ما سبق أستطيع القول : بأن مذهب الجمهور الذى يقضى بمنع عطف الإنشاء على الخبر وعكسه هو الصواب نظراً لكثرة العلماء الذين قالوا به من جهة ، ولأن ما ورد من أمثلة من هذا القبيل صار لها

(١) وذلك عند بيانه لسر عطف قوله تعالى (وبشر الذين آمنوا) سورة البقرة ، على ما قبله وهو أمر ، حيث قال : فإن قلت: علام عطف هذا الأمر؟ -بشر- ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه ؛ قلت : ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من امر أو نهى يعطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهى معطوفة على جملة وصف عتاب الكافرين كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والإرهاق وبشر عمرا بالعفو والإطلاق.

(٢) دلالات التركيب ٢٢٧-٢٢٩.

أكثر من وجه لإخراجها من كونها من عطف الخبر على الإنشاء وهذه الوجوه التى يمكن استنباطها مما سبق هى :

أ-أن منع ذلك العطف خاص بالجمل التى لا محل لها من الإعراب ، وأما ما له محل من الإعراب فهذا جائز لوقوعه موقع المفرد كما سبق بيانه.

ب-أن هذه الواو ليست للعطف ، وإنما هى واو استئناف كما سبق توضيحه من كلام ابن هشام فى معانى الواو.

جـ-أن ما ورد من هذا القبيل وكان ظاهره موحيا بعطف الخبر على الإنشاء يبحث له عن غرض فنى يخرجه من دائرة كونه من عطف الإنشاء على الخبر كما صنع ابن هشام فى توجيهه للأمثلة التى استشهد بها المجيزون والتى مرت عليك فيما سبق.

الإيجاز والإطناب والمساواة

إذا تتبعنا أساليب الكلام وطرائق التعبير وجدنا أن صوغ اللفظ الدال علـى المعنى المراد لا يخرج عن إحدى صور ثلاث ، مع مراعاة كون الكـلام في كل واحدة منها مطابقا لمقتضى الحال ، ومناسبا للمقام المسوق فيه حتى يكون صحيحا مقبولا.

هذه الصور الثلاث هي :

١- المساواة .. وذلك بأن تجيء الألفاظ على قدر المعاني ومساوية لها دون ما زيادة عليها أو نقصان عنهما.

٢- الإيجـاز .. وذلك بأن يعبر عن المعاني الكثيرة الجمة بألفاظ قليلة مع وفـاء هـذه الألفاظ القليلة بحق المعنى المراد أداؤه وإلا كان الإيجاز مخلا ، فلا يعد معه الكلام صحيحا مقبولا ، ولا يتصف بالبلاغة.

٣- الإطناب .. وذلك بأن يعبر عن المعاني بألفاظ أزيد منها وأكثر لفائدة يقتضـيها المقـام ويستدعيها الحال، بحيث إذا كانت هذه الزيادة لغير فائدة عدت حشوا أو تطويلا ، وكلاهما معيب لا يليق بالكلام الفصيح البليغ.

نظرة البلاغيين إلى هذه الأقسام:

هذا ، وقد اختلفت وجهات نظر البلاغيين في عد المساواة قسماً ثالثاً لكل من الإيجاز والإطناب.

فذهب الإمام السكاكي[1] إلى وجودها باعتبار أن الإيجاز والإطناب أمران نسبيان - بمعنى أن إيجاز الكلام إنما هو بالنسبة إلى آخر أزيد منه، وإطنابه إنما هو بالنسبة إلى آخر أنقص منه- ولا يتيسر الكلام فيهما إلا بالبناء على أمر عرفي يكون واسطه بينهما يقاس عليه ، فما زاد عليه عد إطناباً وما نقص عنه عد إيجازاً ، وهذا الأمر العرفي هو : متعارف أوساط الناس في كلامهم الذي يؤدون به أصل المراد وهو ما يعرف بالمساواة .. وبناء على هذا :

أ-فالمساواة هي : ما تعارف عليه أوساط الناس في تأدية أصل المعنى ، وهذا الضرب لا يمدح ولا يذم في باب البلاغة لخلوه من رعاية مقتضيات الأحوال من اللطائف والاعتبارات.

ب-والإيجاز : أداء المعنى بعبارة أقل من عبارة ذلك المتعارف لكون المقام يقتضيه ويتطلبه.

جـ-الإطناب : تأدية المعنى بعبارة أزيد من عبارة المتعارف لاحتياج المقام إلى بسط الكلام وإطالته.

وذهب فريق ثان[2] إلى أن الكلام إما إيجاز أو إطناب بمعنى أنه إن عبر عن المعنى بلفظ غير زائد عليه فهو إيجاز ، وإن عبر عنه بلفظ أزيد فهو إطناب .. وعلى هذا الرأى فالمساواة داخلة في ضرب الإيجاز ولا تعد قسيما ثالثا لهما.

---

(١).

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، وقد نسب القول بهذا للعلامة ابن الأثيرين وآخرين .. ينظر جزء ٦٩/٢.

وثمة اتجاه ثالث ذهب إليه صاحب الإيضاح والتلخيص[1] وهو أن الكلام ينقسم إلى : إيجاز ، وإطناب ، ومساواة ، على حد ما ذهب السكاكى بيد أن القزوينى لم ينظر إلى ما نظر إليه السكاكى من اعتبار متعارف أوساط الناس فى كلامهم أصلا يقاس عليه وإنما نظر إلى المنقول من طرق التعبير عن المعنى فوجد أنه لا يعدو أن يعبر عنه بلفظ مساو له ، وهذه هى المساواة ، أو أن يعبر عنه بلفظ أنقص منه ، وهذا هو الإيجاز ، أو أن يعبر عنه بلفظ أكثر منه فائدة ، وهذا هو الإطناب.

وعلى هذا فمبنى مذهب القزوينى هو المنقول من طرق التعبير عن المعنى المراد لا متعارف أوساط الناس كما ذهب السكاكى.

هذا وقد اختلف الناس فى تفضيل أى الأمرين – الإيجاز أو الإطناب – على الآخر : حيث ذهب البعض إلى تفضيل الإيجاز ومدحه ، واعتباره المثل الذى ينبغى أن يحتذى ومن هؤلاء :

فيما يروى الجاحظ عن شبيب بن شيبة حيث ينقل قوله : (فإن ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الإطالة ، فقدم إحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل قبل التقدم فى إحكام البلوغ فى شرف التجويد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئا ، فإن قليلا كافيا خير من كثير غير شاف) .. وقد قيل عن شبيب هذا "أنه كان قد ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة ، فلم يزل

---

(١) التلخيص وشروحه : ١٥٩/٣ وما بعدها ، والإيضاح مع البغية : ١٢٢/٢.

يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره".[١]

ولمن يرى تفضيل الإيجاز أيضاً ما يروى من قوله ﷺ إنا معشر الأنبياء بكاء – بمعنى قليلو الكلام ، ومنه قيل : رجل بكى فقد أفاد هذا القول الشريف أن صفة الأنبياء قلة الكلام.

وذهب فريق ثان إلى تفضيل الإطناب باعتبار أن المنطق هو البيان والبيان لا يكون إلا باتباع المعنى والإقناع ، وهذا يقتضى بالضرورة الاستقصاء الذى يحيط بالمعانى إحاطة كاملة ولهؤلاء قول الله تعالى :

﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾[٢] حيث جمع له المولى – عز وجل – بالحكمة البراعة فى العقل ، والرجاحة فى الحكم ، والاتساع فى العلم ، والصواب فى الحكم ، وجمع له بفصل الخطاب تفصيل المجمل، وتلخيص الملتبس ، والبصر بالحز فى موضع الحز ، وبالحسم فى موضع الحسم.

والذى تميل إليه النفس أن ليس أحدهما أفضل من الآخر هكذا على الإطلاق ، وإنما العبرة بسياق الكلام ومراعاة مقاماته ، فحيث اقتضى

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون : ١ / ١١٢ ، ١١٣.

(٢) سورة ص ١٧ – ٢٠.

المقـــام إيجـــاز الكلام وطيه كان الإيجاز هو الأنسب والأخلق به ، وحيث اقتضــــى المقام نشر الكلام وبسطه كان الإطناب هو الأجدر به .. فالعبرة أولا وأخيراً بما يقتضيه المقام ويتطلبه الموقف ، وهذه هى البلاغة أن يجئ الكلام مطابقا لمقتضى الحال إيجازاً أو إطناباً .. ويشهد لهذا ما عرف من طــرائق العـــرب فـــى تعبيراتها عن معانيها ، فتارة كانوا يبسطون القول ويـــأتون بالخطـــب الطـــوال تـــارة أخرى وكانوا يكتفون باللمحة الدالة ، والإشارة السريعة اللافقة .. يقول منشدهم :

يـــرمون بالخطب الطوال وتارة وحـــى الملاحـــظ خيفة الرقباء

فهـــذا يعـــنى انهم كانوا يوائمون بين مقامات الكلام وما يتطلبه من العبارات الدالة عليه إيجازاً أو إطناباً ، فلكل مقام مقال يعانقه ويؤاخيه.

أمـــا ترى معى أن هذا أنسب من القول بأن أحدهما أفضل من الآخر على الإطلاق؟

وبناء على هذا فإن ثمة مقامات يحسن فيها الإيجاز والاختصار من نحو :

١-الأشعار ٢-المكاتبات

٣-أنواع التصانيف فى العلوم والآداب.

٤-التوقيعات الصادرة من ولاة الأمور إلى رعاياهم.

٥-الحكم والأمثال والوصايا.

وأخرى يحسن فيها البسط والتطويل من نحو :

١-الخطب.

٢-أنـــواع الوعظ التى تفعل من أجل العوام فإن الكلام إذا طال أثر ذلك فى قلوبهم ، وكانوا أسرع إلى قبوله.

٣-المدح والهجاء والرثاء .. إلى غير ذلك من مقامات.[1]

أما المساواة فإن مقامها الإتيان بالأصل حيث لا مقتضى للعدول عنه وهذه النكتة لا يعتد بها فى البلاغة ، ولهذا كانت المساواة غير محمودة ولا مذمومة.[2]

(١) الطراز للإمام يحيى بن حمزة العلوى ٨٩/٢.

(٢) البغية على الإيضاح للشيخ / عبد المتعال الصعيدى ١١٧/٢.

أولاً : الإيجاز

تعريفه :

لغة التقصير والاختصار ، يقال : أوجز فى كلامه إذا قصره ، وكلام وجيز ، أى قصير ومختصر ، ومنه قول الرسول ﷺ (إذا قلت فأوجز) اى أسرع واختصر.(١)

اصطلاحا : اندراج المعانى المتكاثرة تحت اللفظ القليل ، وهذه القلة إما أن تكون بتضمين المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة بدون حذف لشئ ما ، ويسمون هذا النوع : إيجاز القصر – بكسر القاف وفتح الصاد.

وإمـــا أن تكون القلة بحذف كلمة ، أو جملة ، أو أكثر عند وجود ما يـــدل علـــى المحـــذوف من قرينة لفظية ، او غير لفظية ، ويسمون هذا الضرب : إيجازاً بالحذف وعليه فالإيجاز ضربان :

أ- إيجاز قصر   ب- إيجاز حذف

أولاً : إيجاز قصر

وهـــو مـــا تـــزيد فيه المعانى على الألفاظ وتفوق دون أن يكون فى الكلام حذف لشئ ما ، وسمى إيجاز قصر لوجود الاقتصار فى العبارة مع كـــثرة المعـــنى .. ومن شواهده قول الله تعالى : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. (٢)

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (وجز).

(٢) سورة الأعراف ١٩٩.

فقد جمع المولى – عز وجل – فى هذه الألفاظ القليلة الموجزة كثيراً من المعانى الرائقة البديعة ، فقد جمع فيها مكارم الأخلاق ، ونبيل الصفات الـــتى ينبغى أن يتحلى بها كل إنسان مؤمن يريد أن يسعد فى حياته ، وأن يـــنال رضــــوان الله تعــــالى ، وذلك لأن فى العفو : الصفح عمن أساء ، والرفق فى كل الأمور ، والمسامحة والإغضاء ، وفى الأمر بالمعروف : صـــلة الرحم ، ومنع اللسان عن الكذب والغيبة والنميمة ، وغض الطرف عـــن كـــل محرم ، وغير ذلك ، وفى الإعراض عن الجاهلين : الصبر ، والحلـــم ، وكظـــم الغـــيظ .. إلى غير ذلك من معان كثيرة قد حوتها تلك الألفاظ القليلة مما لا حد لها ولا نهاية .. إنه الإعجاز !!

ومما هو مشهور فى هذا الباب قوله – عز من قائل – : ﴿ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾.[1]

فإنـــه لا حـــذف فى الآية الكريمة مع أنك لو فتشت عما احتوته من المعـــانى الكثـــيرة لأعيتك الحيلة ، ولوجدت أنها قد نافت على اللفظ بكثير جداً .. انظر إلى الإمام القزوينى يكشف عن لطيف ما فيها من معان حيث يقـــول : لأن المـــراد أن الإنســـان إذا علم أنه متي قتل (بفتح القاف) قتل (بضــــمها) كـــان ذلك داعيا له قويا إلى ألا يقدم على القتل ، فارتفع بالقتل الـــذى هو قصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ، فكان ارتفاع القتل حياة لهم.[2]

---

(١) سورة البقرة ١٧٩.

(٢) الإيضاح مع البغية ١١٩/٢.

هذا ، وقد عقدوا مقارنة لطيفة بين الآية الكريمة ومأثور قول العرب في نفس معناها (القتل أنفى للقتل)[1] وقد انتهى العلوى إلى أن الآية الكريمة تتفوق على قولهم من عدة وجوه ، وهى :

١- وجازة ألفاظها ، فإنها لفظتان – القصاص حياة – ومقولتهم أكثر من لفظتين.

٢- خلو الآية من التكرير فى ألفاظها بخلاف مقولتهم فإن لفظ القتل قد تكرر فيها.

٣- فى الآية الكريمة نص على المطلوب وهو الحياة التى جعلت مسببة عن القصاص ، وهذا أزجر عن القتل بغير وجه حق لكونه فى النهاية يؤدى إلى الاقتصاص لا إلى الحياة ، أما مقولتهم فلا تدل على هذا ، إذ ليس كل قتل نافيا للقتل ، وإنما الذى يكون نافيا له هو ما جاء على وجه القصاص على حد ما فى الآية الكريمة ، ويضاف إلى ما نص عليه العلامة العلوى جملة أمور أخرى منها :[2]

٤- ما أفاده التنكير فى لفظ – حياة – من التنويع والتعظيم.

٥- خلو الآية من تقدير محذوف فيها بخلاف قولهم فإن فيها محذوفا تقديره القتل أنفى للقتل من كل زاجر.

٦- فى الآية محسن بديعى مما يزيد المعنى تأكيداً وتوضيحاً ، وذلك بين القصاص والحياة ، فبينهما تضاد ، والضد يظهر حسنه الضد ، وهذا ما خلا منه قولهم.

---

(١) الطراز العلوى ١٢٨/٢.

(٢) الإيضاح مع البغية ١١٩/٢.

٧- القيمة الدلالية لحرف الجر (فى) فى الآية الكريمة حيث أفاد بدخوله على لفظة القصاص أن أحد الضدين صار محلا ومنبعا للآخر ، بمعنى أن الفناء قد أصبح محلا للحياة أى مبالغة هذه في أداء المعنى أتم أداء؟

إلى غير ذلك من فروق لطيفة تميزت بها الآية الكريمة عن مقولتهم بما ينطق موضحا أن هذا القرآن من لدن حكيم خبير قد أعجز كلامه فصحاء العرب وبلغاءهم ، ومن إيجاز القصر أيضاً قوله تعالى : ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾. [1]

فقد اكتمل فى (ألا له الخلق والأمر) كل صفات الجلال والكمال للعلى القدير. وقد روى عن ابن الخطاب رضى الله عنه أنه قال بعد أن سمعها : (من بقى له شئ بعد ذلك فليطلبه) وطبعى أنه لم يقل هذا إلا بعد أن خبر القول الكريم ، وجازة ألفاظه مع كثرة معانيه.

ومن أقوال رسولنا الكريم ﷺ وما أكثرها :

١-**(الخراج بالضمان)** .. وقصة هذا القول أن رجلا اشترى من آخر عبدا فأقام عنده مدة من الزمن ، ثم رأى فيه عيبا فخاصمه إلى الرسول ﷺ فقال : يا رسول الله إنى استغل عبدى ، فقال ﷺ ما قال : (الخراج بالضمان) ، يعنى أن علته تكون للمشترى ، لأنه لو تلف عنده قبل الرد لكان تالفا فى ضمانه ، فلهذا كان ضمانه عليه.

---

(١) سورة الأعراف ٥٤.

٢-(لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) أي لا ينبغي ولا يجوز لأحد أن يلحق ضررا بغيره ، كما أنه لا ينبغي لك أن تضر احداً غيرك.

ومن منظوم الكلام قول السموءل بن عادياء الغساني :

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

فهذا القول الوجيز الألفاظ يتضمن الكثير من المعاني النبيلة والأخلاق الفاضلة من نحو : السماحة ، والشجاعة ، والتواضع والحلم ، والصبر ، واحتمال المكاره والمخاطر ، فإن تحمل هذه الأمور مما يضيم النفوس لما يحصل في تحملها من المعاناة والمشقة البالغتين. [1]

ومنه أيضاً قول ابى تمام :

وظلمت نفسك طالبا إنصافها فعجبت من مظلومة لم تظلم

يريد أنه كلف نفسه احتمال المشاق ، وأكرهها على الصبر في طلب المجد ، فكان كالظالم لنفسه ، ولكنه في الحقيقة قد أنصفها إذ أكسبها بما تحملته الذكر الحسن ، والثناء الجميل فهو لها - إذن - غير ظالم.

إلى غير ذلك من ذكر حكيم وحديث نبوى شريف ومأثور قول بليغ جاء اللفظ فيه أقل من المعنى الذى يتضمنه دون ما حذف فيه ، وليس هذا إلا رعاية لمطابقة الكلام - لمقتضى الحال الذى هو لب بلاغة اللسان العربي.

(١) الطراز للعلوى ١٣٠/٢.

ثانياً: الإيجاز بالحذف:

وهـذا الضـرب مبناه على الاختصار في العبارة بحذف ما لا يخل بأداء المعنى على أتم وجه، ولا ينقص من قدر البلاغة حتى إنهم ليقولون: إن المحذوف ينبغي أن يكون في طي النسيان ليس ماثلا بالخاطر بحيث إذا ظهـر فـي العـبارة لـنزل قدر الكلام عن علو بلاغته ولصار إلى شئ مسـترذل، ولكـان معطـلاً لمـا يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقة.[1]

وتعريف هذا الضرب على حد ما ذهب الإمام السكاكي[2]:

التعبير عن المعنى بلفظ أقل من المتعارف، واف بالمراد لفائدة

وفي التعريف جملة قيود ينبغي أن تلتفت إليها وهي:

١- أن يكـون بلفظ أقل من المتعارف.. وهذا يخرج الإطناب لأنه يكون بلفـظ أكـثر مـن المـتعارف، كما أنه يخرج المساواة لأنها تكون بالمـتعارف من كلام أوساط الناس في تأدية أصل المعنى على حد ما عرفت.

٢- أن يكـون وافياً بالمعنى المراد أداؤه، وهذا يخرج الإخلال كأن يكون الحذف مخلا بالمعنى، وعليه قول عروة بن الورد:

عجبـت لهـم إذ يقتلون نفوسهم ومقـتلهم عند الوغى كان أعذرا

---

(١) الطراز ٢/٩٢.

(٢) التلخيص وشروحه ٣/١٧١.

ففي الكلام حذف تقديره : يقتلون نفوسهم في السلم وحذف (في السلم) مخل لعدم وفاء العبارة بالمعنى المراد.

٣- أن يكـون الحـذف لمقتض ولنكتة بلاغية كان يقتضي المقام الإيجاز والإختصـار فـإذا اقتضـى عكس ذلك من بسط الكلام ونشره أو من مجرد أداء المعنى تعينت المساواة أو الإطناب ولا يساغ الحذف وإنما يكون معيبا غير مقبول.

وهذا الضرب من الإيجاز يقع على أنواع ، وذلك لأن المحذوف إما أن يكون جزء جملة ، أو جملة ، أو أكثر من جملة فهذه أنواع ثلاثة :

أ- حذف جزء الجملة :

وهو إما مسند إليه أو مسند او بعض متعلقات الإسناد من المفعول به ونحـوه ، أو غـير ذلـك من المضاف أو المضاف إليه ، أو الصفة ، أو الموصـوف وقـد سـبق الحديث في دراستك السابقة عن حذف المسند ، والمسند إليه وبعض المتعلقات ، فلا حاجة إلى ذكره ثانية هنا..

أ- حذف المضاف : كما في قوله تعالى :

﴿واسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾ (١) وتقديـر المحذوف : واسئل أهل القرية ، وأهل العير ، وذلك لأنه لا يعقل أن يتوجه بالسؤال إلى القرية على الحقيقة وكذلك العير على الحقيقة مما يعين تقدير المحذوف على ما ذكر.

---

(١) سورة يوسف ٨٢.

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿.. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ..﴾ . (١)

أي ولكن البر بر من اتقى.

ومـــنه كذلك قوله تعالى : ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ (٢) فليس المفـــتوح يأجوج ومأجوج على الحقيقة وإنما سدهما فالتقدير حتى إذا فتح سدهما.

وعلـــى هذا الحد من الحذف قوله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾. (٣)

ففيها مضاف محذوف تقديره : لمن كان يرجو رحمة الله ، ونظيرها قوله تعالى: ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾. (٤)

وتقدير المحذوف : يخافون عذاب ربهم.

وقـــد ذكـــر هذان المضافان في قوله تعالى : ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾. (٥)

---

(١) سورة البقرة ١٨٩.
(٢) سورة الأنبياء ٩٦.
(٣) سورة الأحزاب ٢١.
(٤) سورة النحل ٥٠.
(٥) سورة الإسراء ٥٧.

ومن منظوم الكلام :

إذا لاقيت قومي فسأليهم ... كفى قوما لصاحبهم خبيرا

هل أعفو عن أصول الحق فيهم ... إذا عثروا وأقتطع الصدورا

وشاهدنا : "وأقتطع الصدور" ، ففيه حذف تقديره فاقتطع أوغار وأحقاد الصدور ، وذلك لأنه لا يقتطع الصدور على الحقيقة وليس هذا مراده ، وإنما مراده انه يزيل ما بصدورهم من أحقاد وضغائن ، يزيلها بحكمته وعفوه وصفحه ، وهذا الضرب من حذف المضاف كثير الدوران في فصيح الكلام وبليغه.

٢-**المضاف إليه** .. وحذفه أقل من حذف المضاف ، ومن شواهده قول الله تعالى : ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾. [1]

ففيه حذف مضاف إليه تقديره : وأتممناها بعشر ليال.

ونظيره قوله عز وجل : ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ المضاف إليه محذوف وتقديره من قبل ذلك ومن بعده.

٣-**حذف الموصوف** : مثل قوله تعالى: ﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ ففيه موصوف محذوف تقديره حور قاصرات الطرف ومنه قول سحيل بن وثيل :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

---

(١) سورة الأعراف ١٤٢.

الثـــنايا : جمـــع ثنية ، وهى الطريق فى أعلى الجبل ، أو الطريق الصعب منه ، وجلا بمعنى أنه رجل منكشف الأمر ، أو أنه كشف الأمور ، العمامـــة أى بيضـــة الحرب والمعنى أنه ابن رجل كشف الأمور ، ركاب للمخاطر والمكاره لا يخشاها ولا يهابها وأنه متى يضع عمامة الحرب فوق رأسه يعرفه الناس بالشجاعة وقوة البأس. (١)

وشـــاهدنا مـــن البيت : أنا ابن جلا : فجلا صفة لموصوف محذوف وتقدير الكلام : أنا ابن رجل جلا.

٤-حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها ، مثل قوله تعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. (٢)

ففـــى الكلام صفة محذوفة تقديرها صحيحة أو سليمة ، أى يأخذ كل سفينة صالحة أو سليمة غصبا ويدل على المحذوف.

١-سياق الآية قبل من قوله : ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. (٣)

٢-ما نص عليه القزويني(٤) من القراءة بهذا المحذوف ، وذلك فيما روى مـــن أن ابـــن عباس رضى الله عنهما كان يقرأ الآية هكذا : ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا﴾ بذكـــر الصفة - صالحة -

---

(١) ينظر البغية على الإيضاح ٢/١٢٢ - ١٢٣.

(٢) سورة الكهف ٧٩.

(٣) نفس الآية.

(٤) ينظر الإيضاح مع البغية ٢/١٢٣.

ومـــن حذف الصفة أيضاً قوله – تعالى : متنعماً على عباده الطائعين المؤمنيـــن : ﴿متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾[1] ففي الكلام صفة محذوفة والتقدير : وشراب كثير بدلالة ما قبله من وصف الفاكهة بالكثرة – بفاكهة كثيرة.

٥-حـــذف الشرط مثل قوله – عز من قائل- : ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾[2] ففيه شرط محذوف تقديره : إن لم تخلصـــوا لـــي العبادة في هذه الأرض فأخلصوها في غيرها ونظيره قولنا : الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وتقديـــره : إن كـــان خيرا عمله فجزاؤه خير ، وإن كان شرا عمله فجزاؤه شر.

٦-حذف القسم : مثل قوله تعالى : ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا﴾.[3]

وتقدير القسم المحذوف والله لئن لم ..

ونظيره : لأذاكرنّ بكل جد واجتهاد ، بمعنى والله لأذاكرن.

---

(١) سورة ص ٥١.

(٢) سورة العنكبوت ٥٦.

(٣) سورة الأحزاب ٦٠.

٧-حذف جواب الشرط وهو يقع على ضربين :

أ-أن يحـــذف لمجـــرد الاختصار مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فجواب أداة الشرط - إذا - محذوف لمجرد الاختصار ، وتقديره : أعرضوا بدلالة ما جاء بعد من قوله تعالى : ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.(١)

ب-أن يحـــذف للدلالة على أنه مما لا يحيط به الوصف ، ومما لا يدرك كنهه ، أو لتذهب النفس فى تصوره كل مذهب بحيث لا يتصور أمر من الأمور مطلوبا أو مكروها إلا ويجوز أن يكون الجواب المحذوف أعظم منه أو أفظع شأنا.

مـــن هذا قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.(٢)

فجواب إذا محذوف لعدم الإحاطة بكنهه ، ولتذهب النفس فى تصوره كـــل مذهب ، وكأن المعنى : حصلوا من النعيم المقيم ، ومن رضوان الله عـــز وجـــل ، مـــا لا يحيط به الوصف ، ولا يوفه اللفظ حقه ، ولو ذكر الجواب لفاتت المبالغة فى وصف نعيمهم وما لا قوه حين فتحت لهم أبواب الجنة ، فالحذف هنا أبلغ من الذكر.

---

(١) سورة يس ٤٥.
(٢) سورة الزمر ٧٣.

ومـــنه قوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾. [١]

وفـــي نفس السورة كذلك : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قالوا أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾. [٢]

فجـــواب لـــو فـــي الآيتين محذوف تفظيعاً وتهويلاً لما لاقاه هؤلاء الكافـــرون (لمـــا وقفوا على النار ، وعلى ربهم .. ويمكن تقديره : لرأيت أمـــرا عظـــيما وخطبا جسيما لا يحيط به الوصف ولا تؤديه العبارة ما لو نص عليه.

٨-أن تكون الكلمة المحذوفة حرفا مثل :

أ-لا .. كما في قوله تعالى : (تالله تفتأ تذكر يوسف) [٣] فالكلام على حذف لا قبل تفتأ والتقدير : لا تفتأ ، فلا محذوفة مع إرادة معناها ، والمعنى : لا تزال تذكر يوسف.

وعليه قول الشاعر :

فقلـــت : يميـــن الله أبرح قاعداً ... ولـــو قطعوا رأس لديك وأوصالي

وتقدير الكلام : لا أبرح.

---

(١) سورة الأنعام ٢٧.

(٢) سورة الأنعام ٣٠.

(٣) سورة يوسف ٨٥.

ب-الــواو : وهــي تأتي مذكورة ومحذوفة ولكل من ذكرها وحذفها نكتة بلاغـية رائقة لطيفة ، فمتى ذكرت في العبارة أفادت مغايرة ما قبلها لمـا بعدهـا وذلـك مبني على أن الشان في العطف بها التغاير بين معطوفيها.

ومــتى حذفت من الكلام أفاد حذفها اتصال الكلام والتحامه وكأن ما بعدها وما قبلها أفرغا في قالب واحد.

ويتضح هذا جليا فيما ورد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه من قوله : (كان أصحاب رسول الله ﷺ ينامون ، ثم يصلون لا يتوضئون) وفـي حديـث آخر : (ثم يصلون ، ولا يتوضئون) حيث حذفت الواو في الرواية الأولى (يصلون .. لا يتوضئون) وذكرت الواو في الرواية الثانية (يصلون ولا يتوضئون) يكشف صاحب الطراز عما وراء الذكر والحذف من رائع الأسرار والنكات فيقول بعد أن ذكر الروايتين :

"فـالواو دالـة على انفصال الجملة عما قبلها ، وعلى مغايرتها له ، وحـذف الـواو فيه دلالة على اتصال الجملة الثانية بالأولى والتحامها بها حتى كأنها من متعلقاتها لأنها إذا كانت الواو محذوفة فيها كانت في موضع نصب على الحال ، وكانت الجملتان كأنما أفرغا في قالب واحد كأنه قال : ينامون ، ثـم يصلون غير متوضئين ، ومع هذا يكون الكلام أشد إيجازا وأعظم بلاغة).[1]

---

(١) الطراز للعلوي ٢/١١٠.

وهكـذا نـدرك الغايـة من حذف الواو وإسقاطها فى إحدى روايتى الحديـث وهـى المبالغة فى أنهم لا يكادون يتذوقون طعم النوم من قيامهم للتهجد والعبادة ، فهم لا ينامون إلا لماما.

ب- حذف الجملة :

وحذفها يأتى على عدة أضرب منها :

١-حـذف الأسـئلة المقدرة وهذا يعرف بالاستئناف ومنه قوله تعالى على لسـان عـبد من عباده الصالحين : ﴿ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ، إنى إذاً لفى ضلال مبين ، إنى آمنت بربكم فاسمعون ، قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون﴾. [1]

وشـاهدنا من الآيات الكريمة أن ما تقدم فيها من حال هذا الآتى من أقصـى المديـنة ذلـك الذى لم يعبد إلا الله الذى فطره وخلقه وإليه ترجع الخلائـق جمـيعا ، ثم إنه رفض أن يتخذ من دون الله تعالى آلهة هى فى حقـيقة أمـرها لا تغنى عنه إن أراده مولاه بضر ، كل هذا الذى ذكر من حاله وشأنه يقتضى ويستدعى سؤالا ، وكأن سائلا سأل يقول : كيف حال هـذا الـرجل وما شأنه وما جزاؤه بعد ما تقدم؟ فكان الجواب : قيل ادخل الجنة.

ومعنى هذا أن جملة : (قيل أدخل الجنة) جواب لسؤال مقدر على حد ما سبق ذكره ، فجملة السؤال - إذن - محذوفة.

(١) سورة يس ٢٢ - ٢٦.

٢-حذف جملة السبب وبقاء جملة المسبب دالة عليها أو العكس ، وذلك لما بين السبب والمسبب من وثيق الترابط والتلازم بحيث إذا حذف أحدهما دل عليه الآخر.

فمن حذف المسبب وإقامة السبب مقامه قوله تعالى : ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم﴾ (١) فبين قوله تعالى (فتاب عليكم) وما قبله جملة محذوفة هي السبب في توبة الله عليهم ، وتقديرها : فامتثلتم وأطعتم.

ومن حذف السبب وإقامة المسبب مقامه : قوله تعالى : ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾. (٢)

والمعنى : فعل ما فعل من كسر قوة أهل الشرك لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، فالمحذوف هنا هو (فعل ما فعل) وهذا مسبب ، وإحقاق الحق ، وإبطال الباطل سبب فيه فحذف المسبب ، وأقام السبب مقامه.

ومن حذف السبب وإقامة المسبب مقامه كذلك قوله تعالى : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾. (٣)

وتقدير المحذوف : فإذا أردت قراءة القرآن ، فالإرادة سبب في القراءة ، والقراءة مسببة عنها ، فحذف جملة المسبب (أردت) وأبقى جملة المسبب (قرأت).

---

(١) سورة البقرة ٥٤.
(٢) سورة الأنفاق ٨.
(٣) سورة النحل ٩٨.

وقـد تكون الجملة المحذوفة من سياق الكلام غير ما تقدم من حذف الأسـئلة المقـدرة ، أو السـبب ، أو المسـبب وذلـك مثل قوله تعالى: ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾. (١)

ففـى الكلام جملة محذوفة تقديرها : هم نحن ، أو نحن هم – وهذا مبنى على أن المخصوص بالمدح – (الماهدون) – خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر.

أما على رأى من يجعل المخصوص مبتدأ مؤخرا والجملة قبله خبره فلا يكون الحذف مما نحن فيه وإنما يكون من قبيل حذف جزء الجملة.

جـ- حذف أكثر من جملة : وهذا الضرب من الحذف كثير الدوران فى القرآن الكريم خاصة فى سورة يوسف عليه السلام.

من هذا قوله تعالى : ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم﴾.(٢)

فـإنك إذا أمعنـت النظر فى الآيات الكريمة وجدت أن ثمة أكثر من جملـة مفيدة ، قد حذفت من سياق الآيات ، وتقدير الجمل المحذوفة فرجع الرسول إلى قومه ، فأخبرهم بما قاله يوسف عليه السلام فعجبوا لمقالته ،

---

(١) سورة الذاريات ٤٨.

(٢) سورة يوسف ٤٧ – ٥٠.

أو فصدقوه عليها ، ثم يأتي القول الكريم "وقال الملك ائتوني به" ومن هذا القبيل ما جاء من قول الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام : ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم﴾.(١)

قارن بين قوله : "قالت .. "وما قبله تلحظ عدة جمل محذوفة نفهم من السياق والتقدير : فاخذ الكتاب ، فذهب به ، فألقاه إلى "بلقيس فلما ألقاه إليها قرأته ، ثم يجئ النسق الكريم بعد ذلك : قالت يا أيها الملأ ...

قرائن الحذف وأدلته :

لا بد في كل حذف من قرينة تدل على المحذوف ، ودليل يشير إليه وذلك لأن حذف ما لم يقم عليه دليل يؤدى إلى الإلغاز والتعمية واللبس في فهم المراد من الأسلوب .. ولم تكن العرب تحذف شيئا من كلامها إلا وثم دليل يدل عليه.

وقرائن الحذف عديدة متنوعة منها(٢) :

١- أن يـدل العقـل على المحذوف ، ويقوم العرف بتعيينه مثل قول الله تعـالى : ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ (٣) وكذا قوله تعالى ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾.(٤)

---

(١) سورة النمل ٢٨ ، ٢٩.

(٢) أنظر الإيضاح مع البغية ١٣٠/٢ وما بعدها.

(٣) سورة المائدة بعض آية ٣.

(٤) سورة النساء من الآية ٢٣.

ففى الآية الأولى مضاف محذوف تقديره تناول الميتة والذى يدل على الحـــذف تعلق التحريم بالميتة ، فإن التحريم حكم والأحكام إنما تتعلق بالأفعـــال لا بـــالذوات .. والذى عين أن المحذوف هو التناول ونحوه العرف الجارى ، وكذلك الشأن فى الآية الثانية فإن التحريم حكم وهو لا يـــتعلق بـــذوات الأمهات وما تلا ذلك من ذكر للمحرمات ، وإنما يـــتعلق بنكاحهـــن فـــدل العقل على أن فى الكلام حذفا ، ودل عرف الاستعمال فى مثل هذا على تعيين المحذوف.

٢- أن يـــدل العقل على الحذف وتعيين المحذوف، فى قوله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾ (١) أى أمر ربك ، أو عذابه ، أو بأسه ، فالعقل هنا يدل على أن فى الكلام حذفا لأن المجئ لا يتعلق بذات الله تعالى ، كما أنه يدل على تعيين المحذوف من أمره ، أو عذابه أو بأسه.

٣- أن يـــدل العقل على الحذف وتدل العادة على تعيينه ، مثل قوله تعالى حكاية عن امراة العزيز (فذلكن الذى لمتتنى فيه). (٢)

حيث دل العقل على الحذف ، وذلك لأن الإنسان إنما يذم ويحمد على ما يكتسبه وما تجنيه يداه وليس على ما لا دخل له فيه ، وعلى ذلك فيحتمل أن يكـــون التقدير : (فذلكن الذى لمتتنى فى حبه ويشهد لهذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿قد شغفها حبا﴾ (٣) ويحتمل أن يكون التقدير (فذلكن الذى لمتتنى فى

(١) سورة الفجر بعض آية ٢٢.

(٢) سورة يوسف بعض آية ٣٢.

(٣) سورة يوسف بعض آية ٣٠.

مراودته) ويعضد هذا قوله تعالى : ﴿تراود فتاها عن نفسه﴾ ، وثمة احتمال ثالث أن يكون التقدير : لهذا فذلكن الذى لمتننى فى شانه وأمره) فيشمل الأمرين السابقين : الحب والمراودة ، والعادة تبين أن المراد فى مثل هذا المقام (المراودة) لا الحب المفرط ، وذلك لأن الإنسان لا يلام على الحب المفرط لقهره صاحبه وغلبته عليه وإنما يلام على المراوده لأنها تدخل تحت قدرته بحيث يمكنه أن يدفعها عن نفسه بخلاف الحب المفرط الذى لا يمكن دفعه بحال من الأحوال.

٤- أن تدل العادة على الحذف وأيضاً على تعيين المحذوف مثل قوله تعالى : ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾.[1]

إذ كيف يقولون : لو تعلم قتالا وهم أخبر الناس وأعرفهم بشأن الحرب والقتال ، وهل يتأتى لمن يعرف الحرب والقتال أن ينفيه عن نفسه ويقول : لا أعرفه؟ وتبعا لهذا فلا بد من تقدير محذوف قدره مجاهد -رضى الله عنه- مكان أى لو نعلم مكان قتال لاتبعناكم بمعنى أنكم تقاتلون فى موضع لا يصلح للقتال ، ويخشى عليكم من الهزيمة فيه ، ويدل على هذا أنهم أشاروا على رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة قائلين له : إن البقاء فيها أحسن وأحزم للأمر ، فها أنت ذا ترى أن العادة دلت على أن فى الكلام حذفا كما أنها عينت المحذوف.

٥-أن يدل الشروع فى الفعل على المحذوف ، وذلك مثل أن تقول : (بسم الله الرحمن الرحيم) فإن قلت هذا عند القراءة كان التقدير اقرأ

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٦٧.

باســـم الله ، أو باسم الله اقرأ ، وإن قلته عند الأكل كان تقدير الكلام : باسم الله آكل .. وهكذا.

وقــد أشار صاحب البغية إلى أن الشروع فى الفعل يدل على تعيين المحذوف فقط وإنما الذى دل على الحذف هو العقل ، وذلك لأن العقل يدل على أن الجار والمجرور (بسم الله) لا بد له من متعلق يتعلق به.[1]

٦-ومـــن الأدلـــة كذلـــك اقتران الكلام بالفعل فإن هذا الاقتران يفيد تقدير المحذوف ويعينه ، وذلك كأن تقول لمن تزوج : بالرفاء والبنين ، فإن الجـــار والمجـــرور ومـــا عطف عليه متعلق بمحذوف تقديره بالرفاء والبنين تزوجت.

(١) البغية على الإيضاح ١٣٢/٢.

ثانياً : الإطناب

تعريفه:

لغـــة : الـــتطويل ، يقال فلان أطنب في الكلام وفي الأمر ، بمعنى أطال فيهما ، كما يقال : فرس أطنب ، أى طويل الظهر.[١]

اصـــطلاحاً : أن تزيد الألفاظ على قدر المعنى لفائدة[٢] ، فإن جاءت مساوية للمعنى وعلى قدره فهي المساواة ، وإن نقصت عنه فهو الإيجاز – على حد ما عرفت – وقولهم في التعريف : لفائدة – قيد لإخراج ما إذا – كانت الزيادة لغير فائدة ، بأن تكون حشوا أو تطويلا ، وهما مخلان ببلاغة الكلام ، بل لا يعد الكلام معهما إلا ساقطا عن مراتب البلاغة كلها.

١–**فأمـــا الـــتطويل :** فهو أن يزيد اللفظ على أصل المراد لا لفائدة ، ولا يكون اللفظ الزائد متعينا ، وذلك كقول عدى :

وقـــددت الأديـــم لراهشـــيه ... وألفـــى قولهـــا كذبـــا ومينـــا[٣]

فـــإن الشـــاعر قـــد جمع بين كلمتين بمعنى واحد ، وليست إحداهما متعينة وهما الكذب والمين حيث لا يتغير المعنى بإسقاط أيهما ، كما أنه لا فائدة في الجمع بينهما.

---

(١) أساس البلاغة للزمخشرى ، مادة "طنب".
(٢) الإيضاح مع البغية ١١٢/٢.
(٣) قـــددت : أى قطعـــت ، والضمير للزباء ، الأديم : الجلد ، الرهشان : عرقان في باطن الـــذراع ، والمعـــنى أنها قطعت الجلد الملاصق للعروق إلى أن يصل القطع للراهشين والبيت من قصيدة يذكر فيها الشاعر الزباء وغدرها بجذيمة– شروح التلخيص ١٧٤/٣.

وثمة رواية أخرى ورد بها البيت وهى :

وقـــددت الأديـــم لراهشـــيه وألفـــى قولهـــا كذبـــا مبيـــنا

بكلمـــة -مبيـــنا- على أنها وصف لـــ (كذبا) وعلى هذه الرواية فلا يكون فى الكلام تطويل.

ونظـــير هـــذا من الجمع بين كلمتين بمعنى واحد لا لفائدة مع كون إحداهما غير متعينة قول الخطيئة :

قالـــت أمامـــه لا تجزع فقلت لها إن العـــزاء وإن الصـــبر قـــد غلبا

هـــلا التمست لنا إن كنت صادقة ما لاً نعيش به فى الناس أو نشبا

حيث جمع فى البيت الأول بين العزاء والصبر وهما بمعنى واحد ، كما أنه جمع فى البيت الثانى بين المال والنشب ، وهما بمعنى واحد كذلك وليس فى الجمع بينهما فائدة يقتضيها المقام.

ونظير ما تقدم قول المنخل البشكرى :

ولقـــد دخلـــت علـــى الفـــتا ة الخـــدر فـــى الـــيوم المطـــير

الكاعـــب الحســـــناء تـــــر فـــل فـــى الدمقـــس وفى الحرير

حيـــث جمـــع اليشكرى بين الدمقس والحرير لا لفائدة ، ويكاد يكون معناهما واحداً اللهم إلا أن يقال : إنه اضطر لهذه الزيادة من أجل القافية.

٢-**وأمـــا الحشو فهو** : ان يزاد فى الكلام زيادة بلا فائدة على شريطة أن تكون تلك الزيادة متعينة ، وبهذا يتضح لك الفرق بين التطويل والحشو، وهو أن الزيادة هنا غير متعينة بخلافها فى الحشو فهى متعينة.

والحشو يقع على ضربين :

أ- **حشو مفسد للمعنى** ، ومثلوا له بقول الشاعر :

ولا فضـل فيها للشجاعة والندى   وصـبر الفـتى لولا لقاء شعوب

والشعوب بفتح الشين وهو من أسماء المنية سميت بذلك لما فيها من تشعب أو تفرق ، والمعنى الذى يقصد إليه الشاعر : أنه لا خير فى الدنيا للشجاعة والصبر لولا الموت وهذا المعنى سائغ وصحيح لأنه إنما تفضل الشـجاعة والصبر لما فيهما من الإقدام على الموت والمكروه للنفس ، إذ لـو كان الإنسان يعلم أنه مخلد لما كان له فى الشجاعة فضل ، كما أنه لو أيقـن بزوال المكروه صبر لوثوقه من الخلاص وبهذا يتبين أن الموت هو الـذى أظهـر فضل الشجاعة والصبر ، وأما بالنسبة للأمر الثالث وهو : النـدى فغـير صحيح ؛ فإن يقين الإنسان بالموت وعدم الخلود فى الدنيا يجعل البذل والجود سهلا عليه لا أنه يبخل بما له ويمسكه.[1] وبالتالى فلا يكـون للمـوت فعلاً فى الجود والندى على الخلاف من ظهور فضله فى الشـجاعة والصبر ، وعليه فتكون كلمة الندى زائدة زيادة متعينة وهى فى نفس الوقت مفسدة للمعنى لعدم ملائمتها له.

ومما يؤكد هذا قول مهيار الديلمى :

فكـل عـن أكلـت وأطعم أخاك   فـلا الـزاد يـبقى ولا الآكـل

---

(١) شروح التلخيص ٣/١٧٦.

ب-حشو غير مفسد للمعنى

وهــو مـــا كـــان ذكره فى الكلام زائداً متعيناً ، ولكن ذكره لا يفسد المعـــنى ، ولا يخل بالمراد ، ومثلوا له بنحو قول زهير بن أبى سلمى فى الصلح الواقع بين عبس وذبيان :

وأعلـــم علـــم اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غد عمى

فقولـــه – قـــبله – حشـــو لأن الأمس يدل على ما قبل النوم ، وهذه الزيادة متعينة ، حيث لا يصح عطف –قبله– على اليوم كما عطف قوله – الأمس – ومعنى البيت : أن الشاعر يحيط علما بما مضى وولى وبما هو حاضر ، ولكنه لا يدرى شيئاً عما يكون منتظراً ومتوقعاً فى الغد.

ونظير هذا قول بعضهم :

ذكـــــرت أخـــــى فعـــــاودنى ... صـــــداع الـــــرأس والوصـــــب

ومـــن هـــذا النوع ما تراه بكثرة فى الشعر من قولهم : لعمرى ويا خليلى ، ويا صاحبى حين لا يوجد داع يقتضى هذا فإن وجد ما يدعو إلى القسم أو من يناديه الشاعر من خليل أو صاحب فلا يكون حشوا.

ومـــنه أيضا ما تراه فى النثر من ذكر : أصبح ، وأمسى ، ونحوهما حين لا يرد به تعيين الزمن ، فهم يقولون قد أصبح فلان غنيا ، وحين يراد به تعيين الزمن لا يكون حشوا.

أقسام الإطناب

١-**الإيضاح بعد الإبهام** : وهو أن يذكر المعنى مجملا ، ثم مفصلا فيزيده ذلــك نبلا وشرفا ، ومن هذا قول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾. (١)

فقد أبهم الحق – عز وجل – التجارة ، هل أدلكم على تجارة؟

وفــى هــذا الإبهام تشويق إلى معرفة هذه التجارة التى يدلهم عليها ويدعوهــم إلــيها ، ثــم يأتى بعد ذلك الإيضاح الذى يزيد به المعنى نبلاً وشرفاً . وهو أن هذه التجارة هى : الإيمان بالله وبرسوله ﷺ ، والجاهدة من أجل رفعة الدين بالمال والأنفس.

أرأيت كيف جاءك المعنى فى صورتين مختلفتين : إحداهما مبهمة ، والأخــرى موضــحة قصــدا إلى جذب الانتباه ، وإلى تمكين هذا المعنى وترسيخه فى نفسك فضل تمكين.

ومما هو على شاكلة ما تقدم قول الله تعالى : ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾. (٢)

فقد أبهم فى كلمة (الأمر) لفتا إلى جذب الانتباه ، ولتوجيه الذهن إلى معرفــته ، ثــم وضحه بعد ذلك بقوله : ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ تهويلا لأمر العذاب ، وتفظيعا لشأنه.

---

(١) سورة الصف : ١٠ ، ١١ وتمام الآيتين (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون).
(٢) سورة الحجر ٦٦.

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى : ﴿قال رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى﴾. [١]

فــإن قــول موسى عليه السلام اشرح لى يفيد طلب الشرح لشئ ما وهــذا أمر مبهم ، ثم جاء قوله : صدرى بيانا وتفسيرا لهذا الأمر المبهم الذى يطلب شرحه وكذلك الشأن فى قوله عليه السلام (ويسر لى أمرى) ، حيث إن قوله – يسر لى – يقتضى أن ثمة شيئا مبهما يطلب تيسيره ، ثم وضحه بعد ذلك بقوله : – أمرى – وفى هذا الإيضاح والتفسير بعد الإبهام تأكيد للمعنى وتقوية له ، والمقام هنا يقتضى التأكيد ويطلبه فهو مناسب أيما مناسبة للإرسال المشعر والمؤذن بتلقى الشدائد والمكاره.

ومنه كذلك قول النابغة الجعدى :

المــرء يرغــب فــى الحــيا ... ة وطــول عــيش قــد يضره

تفــــنى بشاشــــته ويــــ ... ــــقى بعـد حلـو العيش مره

وتســـوءه الأيـــام حـــتى ... مـــا يـــرى شـــيئاً يســـره

فقــد اجمـــل وأبهم فى البيت الأول ما قد ينال المرء من الضرر إذا طــال بـــه الأجل وعمر فى الحياة ، ثم فصل ووضح فى البيتين التاليين ، فزاد المعنى جمالا وحسناً.

(١) سورة طه ٢٥ ، ٢٦.

ومما يندرج تحت هذا الضرب :

بـــاب نعم ، وبئس على القول بأن المخصوص بالمدح ، أو الذم خبر لمبـــتدأ محـــذوف وذلـــك مثل : نعم الرجل زيد ، وبئس القرين إبليس فقد أبهمت في الرجل ، والقرين ، ثم وضحت بزيد ، وإبليس ، ووجه حسنه – على حد ما ذكر العلامة القزويني[1] :

١- إبـــراز الكلام في معرض الاعتدال نظرا إلى إطنابه من وجه بما فيه مـــن الإيضـــاح بعد الإبهام ، وإلى الإيجاز من وجه آخر بما فيه من الاختصـــار بحـــذف المبتدأ في الجواب ، وذلك مبني على أن المبتدأ المحذوف وخبره المذكور (زيد) و (إبليس) جملة واقعة استئنافا جوابا عـــن سؤال مقدر ، وكأن سائلا سأل : من الرجل الذي تمدحه؟ ومن القريـــن الذي تذمه؟ فيكون الجواب زيد ، وإبليس أي هو زيد ، وهو إبليس.

٢- الأمر الثاني : إيهام الجمع بين المتنافيين – أعني الإطناب والإيجاز – ومـــثل هـــذا الجمـــع من الأمور المستغربة التي تبعث في النفس لذة وسرورا ، وقد تسأل ماذا يكون الأسلوب لو لم يكن مطنباً؟ والجواب ، أنـــه لو أريد عدم الإطناب لقيل : نعم زيد ، وبئس إبليس ، وهذا جار أيضـــا علـــى رأي مـــن يجعل المخصوص لنعم وبئس مبتدأ محذوف الخبر ، ويكون كل من المبتدأ المذكور وخبره المحذوف جملة موضحة لفـــاعل نعـــم ، وبئس ، أما إذا أعرب المخصوص بها مبتدأ مؤخرا ،

---

(١) أنظر الإيضاح مع البغية ١٣٤/٢.

والجملـــة قـــبله خبرا مقدما فلا يعد الأسلوب مما نحن فيه ، حيث لم يحصل إبهام ثم توضيح وتبيين له ، لأنه كلام واحد غايته أن فيه تقديم المسند على المسند إليه.

ب-ومن الإيضاح بعد الإبهام التوشيع :

وهو في اللغة[1] لف القطن بعد الندف ، وفي الاصطلاح : أن يؤتى في آخر الكلام وعجزه بمثنى مفسر باسمين ثانيهما معطوف على الأول ، أو بجمع مفسر يجمله أسماء معطوف بعضها على بعض – وذلك مثل قوله ﷺ "يشيب ابن آدم ، وتشيب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل).

فقولــه ﷺ : الحرص وطول الأمل بيان للمثنى الذي هو "الخصلتان" ومنه قول الشاعر :

ســـقتني فـــي لـــيل شبيه بشعرها ... شـــبيهة خديهـــا بغـــير رقيـــب

فمـــا زلـــت في ليلين شعر وظلمة ... أعطـــاف قضـــبان بـــه وقـــدود

فقوله : شعر وظلمة بيان للمثنى الذى هو – الليلين– .

ومنه قول الشاعر :

لم يبق غير خفي الروح في جسدي ... نداكـــم الباقيان : الروح والجسد

ومـــثاله فـــي الجمـــع : أن تقول : فلان يجيد أربع لغات : العربية والإنجليزية والفرنسية ، والألمانية .. مثلا فإنك قد أجملت في "أربع لغات" ثم فسرت بعد ذلك بأسماء معطوف بعضها على بعض.

---

(١) .

الأسرار البلاغية فى الإيضاح بعد الإيهام :

وضـــح لك مما تقدم أن الإيضاح بعد الإيهام يمكن أن تفيد منه جملة من الأسرار والنكات البلاغية التى تكمن وراءه .. منها[1] :

١- إبراز المعنى فى صورتين إحداهما مبهمة مجملة ، والأخرى موضحة مفسرة لها.

٢- تمكيـــن المعـــنى فى النفس ، وترسيخه فيها ، فإنه إذا ألقى إليها مبهما مجمـــلا تشـــوقت إلـــى معرفـــته وتطلعت إليه حتى تعرفه على سبيل التفصـــيل والإيضــــاح ، فتـــتوجه إلى ما يرد عقيب الإبهام من تفسير وتوضيح فيتمكن فيها فضل تمكن ويكون شعورها به أتم.

٣- اكـــتمال لذة العلم بالشئ ؛ فإن النفس إذا حصلت الشئ دفعة واحدة لم يكن حصول اللذة به أتم ، وإذا حصلته من وجه دون آخر تشوقت إلى تحصـــيل ذلـــك الوجه المجهول ، فيحصل لها من الحرمان ألم ، ومن العلـــم به بعد جهله لذة ، وما أجمل اللذة عقيب الألم من تلك اللذة التى لم يسبقها ألم؟

٢-ذكر الخاص بعد العام :

ويؤتى بالخاص بعد العام للتنبيه على زيادة فضله حتى كأنه ليس من جـــنس العام ، وذلك لأن ذكره منفرداً وبعد اندراجه ودخوله فيما قبله إنما يكون لمزية فيه ، فنزل التغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات ، وتبعا

---

(١) شروح التلخيص : ٢١٠/٣ ، والإيضاح مع البغية : ١٢٣/٢.

لهـذا صـح أن يعطـف علـيه .. ومن ذلك قوله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين). (١)

حيـث أفردت الصلاة الوسطى – وهى صلاة العصر عند الكثيرين وعطفـت على الصلوات لانفرادهـا بالفضل حتى كأنها جنس آخر قائم بنفسـه لا يعـرف حكمه من سـابقه ، وليس أدل على هذا مما روى عن النـبى ﷺ أنـه قـال يوم الأحزاب : "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نارا".(٢)

ومنه كذلك قول الحق – عز وجل – :

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾. (٣)

حيـث ذكر "الجبال" وهى من الأرض إشارة إلى تفخيم شأن الأمانة وأن حملهـا لـيس بالأمر اليسير الهين ، فإن الجبال على عظمها وقوتها أشفقت من حملها.

ومـنه أيضـاً قولـه تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف﴾ (٤) حيث خص الأمر بالمعروف بالذكر وعطفه على الدعـوة إلـى الخـير مـع أنه داخل فيها للإشارة إلى مكانه من الشرف والفضل.

---

(١) سورة البقرة ٢٣٨.

(٢) أنظر الكشاف ٣٧٦/١.

(٣) .

(٤) سورة آل عمران ١٠٤.

٣-التكرير :

ويؤتى به لأسرار ونكات بلاغية يقتضيها المقام من نحو :

أ-تأكيد الإنذار ليكون أكثر زجرا وأشد تخويفا مثل قوله تعالى ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾.[1]

حيث أكد الإنذار بتكريره ، ليكون أبلغ فى الردع ، وأشد تأثيرا ، وكان العطف بثم خاصة للتنبيه على أن الإنذار الثانى أبلغ وآكد من الإنذار الأول ، وهذا مبنى على أن أصل ثم إفادة التراخى ، بما يعنى أن هذا الإنذار تكرر مرة بعد أخرى وإن تراخى الزمان بينهما ، ومن شأن ذلك أنه لا يكون إلا فى شئ لا يقبل أن يتطرق إليه تغيير بل هو مستمر على تراخى الزمان ، أو تنزيلا للبعد فى المرتبة وهو أمر معنوى منزلة البعد والتراخى فى الزمان - وهو أمر حسى - على حد ما يقال للمنصوح : أقول لك لا تفعل ثم أقول لك لا تفعل فإن فى العطف بثم تقوية لقريحته على النهى بأبلغ من الأول ، والمعنى فى الآية الكريمة : سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا شاهدتم وعاينتم أهوال يوم القيامة.[2]

ب-زيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول فيقع فى النفس خير موقع وأحسنه وذلك مثل قوله تعالى على لسان رجل من آل فرعون : ﴿وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار﴾.[3]

---

(١) سورة التكاثر ٣ ، ٤.

(٢) الكشاف ٢١٨/٤ ، وشروح التلخيص ٢١٩/٣.

(٣) سورة غافر ٣٨ ، ٣٩.

حيث كرر النداء – يا قوم – وفيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ، ويستدعي بذلك أن لا يتهموه ، فإن سرورهم سروره وغمهم غمه ، وينزلوا على تنصيحه له ، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه: يا أبت.[1]

جـ- تكرير اللفظ لطول الكلام : وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾.[2]

حيث كرر "إن ربك" لطول الكلام ونظير هذا قوله تعالى : ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون﴾ فقد كرر "أنكم" لما سبق من طول الكلام.

التكرير لتعدد المتعلق .. وذلك كما في سورة الرحمن حيث كرر قوله تعالى : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

نيفا وثلاثين مرة عقيب كل نعمة امتن الحق سبحانه وتعالى بها على خلقه ، والغرض من ذكره عقيب نعمه غير الغرض من ذكره عقيب نعمه أخرى ، ويمكن أن يلمح غرضا عاما في هذا التكرير وهو : التذكير بنعم الله تعالى التي لا تحصى ولا تعد ، وكأن في هذا التساؤل عقيب كل نعمة ما يثير في نفوس السامعين اليقين بأنه ليس من الصواب نكران نعم

---

(١) الكشاف ٣/٤٢٩.

(٢) سورة النحل ١١٩.

تكررت وآلاء توالت لا يستطيع أحد حصرها أو الوقوف عندها ، وما أحسن ما فعلت الجن حين كانت تسمع الآية الكريمة فقد كانوا يقولون ما بشئ من نعمك ربنا نكذب ، وقد دعا رسولنا الكريم إلى أن تقول هذا عندما نسمع هذه الآية الكريمة.

وقد يقال : إن قول الله تعالى ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ قد ذكر عقيب ما ليس بنعمة كما في قوله تعالى : ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾[1] وأيضاً قوله تعالى : ﴿هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين حميم آن﴾. [2]

فأى إنعام في إرسال العذاب وجهنم؟

والجواب عن هذا أن العذاب وجهنم وإن لم يكونا من آلائه ونعمه بحسب الظاهر فإن ذكرهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصى والذنوب ، والترغيب في الطاعات يعدان من آلائه ونعمه.

ومنه أيضاً تكرير قوله تعالى : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ في سورة المرسلات ؛ فإنه عز وجل : ذكر قصصا مختلفة ثم أعقب كل قصة منها بهذا القول الكريم ، وكأنه - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بهذه القصة .. هذا بالإضافة إلى ما في هذا التكرار من المبالغة الشديدة في التحذير والتخويف ، فإنه يوحى بالرهبة ، ويملأ القلب رعبا وفزعا من التكذيب بهذا اليوم العظيم.

---

(١) سورة الرحمن ٣٥.

(٢) سورة الرحمن ٤٣ ، ٤٤.

٤-الإيغال : (١)

ومن أنواع الإطناب : "الإيغال" وهو : ختم الكلام شعرا أو نثرا ، بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونه ويأتي لجملة من الأعراض البلاغية منها:

(أ) زيادة المبالغة في التشبيه كقول الخنساء تمدح أخاها صخرا :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وشاهدنا من البيت قولها - في رأسه نار - وذلك لأن قولها - كأنه علم - واف بالمعنى وعنده يتم التشبيه ، ولكنها لم تقف عند هذا الحد من مجرد تشبيهه بالجبل بل زادت قولها - في رأسه نار - للمبالغة في التشبيه، لما في هذه الزيادة من الإشارات اللافتة إلى شدة ظهوره وانكشافه.

ب-تحقيق التشبيه ، بمعنى أن يذكر في الكلام ما يدل على تساوي المشبه والمشبه به في وجه الشبه حتى كأنه هو ، كقول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

---

(١) الإيغال : لغة من أوغل في البلاد إذا أبعد فيها ، ومن هذه الدلالة اللغوية أفاد البلاغيون المفهوم الاصطلاحي له ، وذلك لأن المتكلم أو الشاعر يكون قد أوغل في الفكر حتى استخرج سجعه ، أو قافية تفيد معنى زائداً على أصل معنى الكلام ، والإيغال مختلف فيه ، فبعضهم خصه بالنظم وعرفه بأنه ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها والبعض الآخر رأى أنه لا يختص بالنظم وإنما يجرى في النثر كذلك ، أنظر لمزيد من الإيضاح والتفصيل شروح التلخيص ٢٢٠/٣ ، والإيضاح مع البغية ١٣٧/٣.

فــإن امــرأ القيس بعد أن اصطاد هو وصحبه القر والظباء وأكلوها جالــت أعيــنهم فوقعت على عيونها وقد تناثرت حول الأخبية هنا وهناك فأخذ يشبه هذه العيون في سكونها واستدارتها بذلك النوع من العقيق الذى يختلط فيه السود بالبياض ، والتشبيه يتم عند هذا الحد ، بيد أن الجزع إذا كان مثقوبا خالف العيون بعض المخالفة لأن العيون لا ثقوب فيها ، وحتى يحقــق الوجه بين الطرفين زاد قوله – لم يثقب – إشارة إلى تمام المماثلة والمشــابهة بينهما ، وذلك لان الجزع الذى لا ثقوب فيه أشبه بعيون البقر الــتى ماتــت ، وهكذا يتضح أن امرأ القيس لما أتى على التشبيه قبل ذكر القافــية ، واحــتاج إلــى المبالغة أتى بهذه الزيادة الرائقة اللطيفة لتحقيق التســاوى بين الطريفين فى تمام الاستدارة ، بالإضافة إلى السكون وانعدام الحركة.

ولامرئ القيس أيضاً :

حملــت ردينــيا كــأن ســنانه ... ســنا لهــب لــم يتصل بدخان

فإن التشبيه قد تم عند قوله – سنا لهب – ولكنه زاد قوله – لم يتصل بدخان – ليحقق الشبه بين الطرفين ، وذلك لأن سنا الرمح تكون أكثر شبها بضوء اللهب الذى لم يتصل بدخان.

ومــن مجــئ الإيغال فى غير الشعر قول العلى القدير : ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون﴾.[1]

---

(١) سورة يس ٢٠ ، ٢١.

فـــإن قوله تعالى – وهم مهتدون – جاء بعد تمام المعنى لأن الرسل مهـــتدون لا محالة ، فيكون ذكر هذه الجملة إيغالا ، والغرض منه : زيادة الحـــث على اتباع رسل الله تعالى والاقتداء بهم فإن من سلك سبيلهم ونهج نهجهم لم يخسر شيئا من خيرى الدنيا والآخرة.

ومـــنه أيضاً قوله – عز من قائل – ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾. (١)

فـــإن المعـــنى يـــتم عـــند قوله – ولوا – ولكنه أطنب إيغالا بقوله (مدبرين) للمبالغة فى تأكيد توليهم وإعراضهم عن دعوه الحق.

والمهـــم أن الإيغال سواء جاء فى النظم أو فى النثر إنما يكون لنكتة بلاغـــية يستدعيها المقام ، ويتطلبها الموقف وإلا كان تطويلا مخلا ببلاغة القول.

٥-التذييل :

ومن أنواع الإطناب التذييل وهو : تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتأكيد والتقوية ، والتأكيد إما أن يكون :

أ-لمـــنطوق الجملـــة الأولـــى ، وذلك بأن تشترك ألفاظ الجملتين فى مادة واحدة، وإن اختلفت النسبة بينهما بالإسمية والفعلية ، وذلك كقوله تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾. (٢)

---

(١) سورة النمل من الآية ٨٠.

(٢) سورة الإسراء ٨١.

ب- وإما أن يكون لمفهوم الجملة الأولى كقول النابغة الذبيانى :

ولســت بمســتبق أخــا لا تلمه ... على شعث ، أى الرجال المهذب؟

فإن مفهوم الكلام قبل جملة التذييل يدل على نفى الكامل من الرجال وقد جاء التذييل بقوله :

- أى الرجال المهذب؟ تأكيداً لهذا المعنى وتقوية له.

والتذييل يقع على ضربين :

أولهمــا : تذييل جار مجرى المثل ، وذلك حين تكون الجملة الثانية مســتقلة بمعــناها ولا تــتوقف فى إفادة هذا المعنى على الجملة الأولى ، بالإضــافة إلى جريانها على الألسنة وفشوها فشو المثل السائر ، والأمثلة المتقدمة من هذا القبيل فإن التذييل فيها قد جاء مؤكدا للمعنى السابق ، وفى نفس الوقت فإنه لا يتوقف فهم معناه على فهم ما قبله ، ومنه أيضاً قول الله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله﴾.[1]

وفــى القــول الكريم تذييلان ، أولهما قوله - وعدا عليه حقا - فإن المعــنى تــم قبله وجاءت هذه الجملة تذييلا لتأكيد المعنى السابق عليها ، وثانــيهما قــوله تعالى : ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ حيث جاء هذا القول

---

(١) سورة التوبة ١١١.

مؤكداً لمعنى الكلام السابق ، وفي نفس الوقت مستقل بمعناه وجار مجرى المثل ومنه كذلك قول الخطيئة :

تزور فتى يعطى على الحمد ماله ومـــن يعـــط أثمان المكارم يحمد

فإن الشطر الثاني تذييل مؤكد للشطر الأول ، وهو مستقل بمعناه عما قبله فكان من التذييل الجاري مجرى المثل.

ثانـــيهما : تذييل غير جاري مجرى المثل : وهو ما لا يستقل بمعناه عن سابقه بل يحتاج إليه ، ويتوقف فهمه عليه في إفادة المعنى المراد وذلك كقوله : ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾. [1]

فإن قوله – وهل نجازي إلا الكفور – تذييل غير جار مجرى المثل لأنـــه مستوقف في فهم معناه على سابقه ، كما أنه لا يستغني عنه ، وهذا مبني على أن المراد من الجزاء في جملة التذييل نفي الجزاء الذي في قوله تعـــالى: – ذلـــك جزيناهم – أي جزاء الاستئصال الذي حدث لأهل سبأ ، فلارتـــباطه بـــه لا يكـــن جاريا مجرى المثل ، وثمة وجه آخر في الآية الكريمة يجعل التذييل فيها من الجاري مجرى المثل وهو : أن الجزاء فيها عام لكل مكافأة وحينئذ لا يكون المراد به نفس الجزاء المتقدم ، وهذا مبني علـــى أن الجزاء يستعمل بمعنى المعاقبة كما يستعمل بمعنى الإثابة ، فلما

---

(١) سورة سبأ ١٦ ، ١٧.

استعمل في الآية الكريمة بمعنى المعاقبة في قوله – جزيناهم بما كفروا – قيل : وهل يجازى إلا الكفور على معنى وهل يعاقب إلا الكفور. (١)

ومن التذييل غير الجارى مجرى المثل قول ربيعة بن مقروم الضبى :

فدعـوا : نـزال فكنت أول نازل   وعـلام أركـبه إذا لـم أنـزل؟

فقوله : وعلام أركبه ، تذييل لا يستقل بمعناه عن سابقه ، فهو مرتبط به ، ومنه كذلك قول ابن نباته السعدي :

لـم يـبق جودك لى شيئا اؤمله   تركتـنى أصـحب الدنيا بلا أمل

فقولـه : – تركتنى أصحب الدنيا بلا امل – تذييل غير جار مجرى المثل لأنه لا يفهم معناه إلا بما قبله.

وقـد يجتمع الضربان كما فى قول الله تعالى : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت﴾. (٢)

فالجملـة الأولى – أفإن مت فهم الخالدون – تذييل غير جار مجرى المثل والجملة الثانية – كل نفس ذائقة الموت – تذييل جار مجرى المثل.

٦–التكميل :

وهـو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع هذا الوهم ، ويسـمى كذلـك بالاحـتراس ، لأن فيه معنى الاحتراز عن توهم خلاف المقصود.

(١) أنظر الكشاف للزمخشرى ٣/٢٨٥.

(٢) سورة الأنبياء ٣٤ ، ٣٥.

ويقع التكميل على ضربين :

أولهما : فى وسط الكلام كقول طرفة :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى[1]

والتكميل فى قوله – غير مفسدها – وذلك لأن المطر الدائم المتصل مما قد يسبب الخراب فدفع هذا الوهم بالتكميل ، وهو واقع بين الفعل سقى – وفاعله – صوب الربيع ومنه أيضا قول ابن المعتز يصف الخيل :

صببنا عليها – ظالمين – سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل[2]

حيث دفع بقوله – ظالمين – ما قد يتوهم من أنها كانت خيلا بطيئة السير لا تجرى إلا بالضرب ، والتكميل هنا واقع بين الفعل وفاعله – صببنا – والمفعول بسياطنا.

ثانيهما : أن يقع التكميل فى آخر الكلام كقوله تعالى:

﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[3] إذ لما كان قوله تعالى – أذلة على المؤمنين – موهما أن تكون الذلة فيهم عن ضعف وعجز ، وهذا خلاف المقصود ، دفع هذا الوهم بقوله : – أعزة على الكافرين – بمعنى أن ذلتهم إنما هى عن

---

(١) المخاطب فى قوله : ديارك الممدوح وهو قتادة بن مسلمة الحنفى ، الصوب : المطر، الديمة المطر المسترسل ، تهمى أى تسيل.

(٢) السياط جمع سوط ، ومعنى صبها على الخيل استعارة لضربها ، أرجل أى سريعة.

(٣) سورة المائدة ٥٤.

تواضـــع لا عن عجز وضعف ولهذا كانت تعدية الذل – أذلة – بعلى على تضـــمينه معـــنى العطـــف ، كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضـــع ، وثمـــة وجه آخر وهو أن تكون التعدية بعلى على تضمينها معـــنى الـــلام ، ويكـــون معنى الكلام حينئذ انهم مع رفعتهم وعلو قدرهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم تواضعاً لا عجزاً وضعفاً.

ومنه قول عنترة :

أثـــني علـــى بمـــا علمت فإنني ســـهل مخالطـــتى ، إذا لـــم أظلم

فقولـــه : (إذا لم أظلم) تكميل ، دل به على أنه قد يخالف فيعود إلى الحق والصواب راضياً بيد أنه لا يطيق ظلما ولا يقبل هضما.

ومنه قول السموءل بين عادياء :

ومـــا مات منا سيد فى فراشه ولا طـــل منا حيث كان قتيل[(١)]

فإنـــه لو اقتصر على وصف قومه بشمول القتل إياهم لأوهم أن ذلك لضعفهم وعجزهم مع قلة عددهم وعدتهم فدفع هذا الوهم بقوله : (ولا طل منا حيث كان قتيل) بمعنى أنهم كانوا ينتصرون من قاتليهم بحيث لا تضيع دمـــاء قتلاهم هدرا ، وهذا ينفى أن يكون شمول القتال إياهم لعجزهم وقلة عددهم.

---

(١) طل ، أى أهدر دمه ولم يقتل له.

٧-التتميم :

وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله[١] كمفعول ، أو حـال ونحوهما لنكتة بلاغية يستدعيها المقام كالمبالغة في المدح ، مثل قول الله تعالى : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾. [٢]

فالضمير في (على حبه) إما أن يكون :

أ-للطعـام ،على معنى أنهم يطعمون الطعام مع حبهم له وحاجاتهم الشديدة إليه خوفا وخشية من الله تعالى ، وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى – على حبه – تتميم ونكتته المبالغة في مدحهم بالجود والكرم ، لأن إطعام الطعـام مـع الحاجـة إليه أدل على الكرم مما لو كان عن غنى وعدم احتياج له.

ب-وثمـة احتمال آخر وهو أن يكون الضمير لله تعالى ، على معنى أنهم يطعمـون علـى حب الله ، وعلى هذا الاحتمال لا يكون في الآية تتميم لأن الفضلة حينئذ تكون لتأدية أصل المراد.

ومنه قول الله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾. [٣]

فإن قوله : (مما تحبون) من قبل التتميم.

---

(١) المراد بالفضلة هنا المفعول ونحوه من الحال والتمييز والجار والمجرور لا ما يتم أصل ا المعنى بدونه لأن هذا قاسم مشترك في كل أنواع الإطناب ، ولا يختص بالتتميم ، البغية على الإيضاح ١٤٦/٢.

(٢) سورة الإنسان ٨.

(٣) سورة آل عمران ٩٢.

ومنه أيضاً قول زهير في مدح هرم بن سنان :

مـــن يلق يوما على علاته هرما   يلـــق السماحة منه والندى خلقا

فقـولـه (على علاته) بمعنى على كل حال من الأحوال من تمنى أو فقر فهو تتميم حسن لطيف.

إنـــى علـــى مـــا ترين من كبرى   أعـــرف مـــن أيـــن تؤكل الكتف

والشـــاهد قوله : على ما ترين من كبرى فإنه تتميم لطيف وغرضه المبالغة في تأكيد كونه داهية ، وهذا التتميم واقع بين اسم إن وخبرها وهو جملة أعرف من أين تؤكل الكتف.

٨-الاعتراض :

وهو أن يؤتى في أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة، او بأكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة بلاغية سوى دفع الإيهام ، وهو بهـذا يبايـن الإيغال ؛ لأنه يقع في آخر الكلام ، ويباين التتميم لأنه فضله فـيكون له محـل من الإعراب ، ويباين التكميل ، لأن نكتته دفع الإيهام ، ونكتة الاعتراض غير دفع الإيهام.

ومن أغراضه :

أ-التـنزيه والتعظيم كقوله تعالى : ﴿ويجعلون لله البنات -سبحانه- ولهم ما يشتهون﴾.[1]

---

(١) سورة النحل ٥٧.

فقوله : سبحانه جملة معترضة ، لأن سبحانه مصدر نائب عن فعله علـــى معــنى أنزهه تنزيها ، وغرضه : المبادرة إلى تنزيه المولى – عز وجل – عن اتخاذ البنات وهو ما نسبوه إليه تعالى زورا وكذبا مبينا.

ومـــن التعظـيم قوــله تعالى : ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [1] وفى القول الكريم اعتراضان :

أولهما : إنه لقسم عظيم ، فهو اعتراض بين القسم والمقسم عليه.

ثانيهما : لو تعلمون الواقع بين الموصوف – القسم – وصفته – عظيم – والغـــرض مـــنه : تعظـيم المقسم عليه ، وبيان علو قدره ورفيع منزلته.

ب–الدعاء كما فى قول أبى الطيب المتنبى فى مدح كافور الإخشيدى :

تحـــتقر الدنـــيا احتقار مجرب ... يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

فقوـــله: وحاشـــاك اعتراض بين مفعولي يرى وهما : كل ما فيها ، وفانيا وهذا استثناء لممدوحه مما يفنى على معنى أن ذكره يبقى يملأ الدنيا ولا يفنى.

والغرض منه : الدعاء لممدوحه بطول البقاء على الرغم من فناء كل ما فى الدنيا ومنه قول : عوف بن محلم الشيبانى يخاطب عبد الله بن طاهر الذى سلم عليه فلم يسمعه لكبر سنه وضعفه :

إن الثمانيـــــــن وبلغـــــــتها ... قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

---

(١) سورة الواقعة ٧٥ ، ٧٦.

فــإن قوله : (وبلغتها) اعتراض أتي به فى أثناء كلامه لأجل الدعاء لمخاطــبه أبــى عــبد الله بطول العمر ، ومعنى البيت : أن الشاعر يشكو ضعف سمعه لكبر سنه حتى أصبح فى حاجة إلي ترجمان يفسر له الكلام.

جـــ-التنبيه على أمر ما لما فيه من منفعة للمخاطب كقول الشاعر :

واعلــم - فعلــم المــرء ينفعه　　　أن ســوف يــأتى كــل مــا قدر

فالشاعر يطلب من مخاطبه أن يصبر ويفوض أمره إلى الله تعالى ، فإن ما قدر كائن لا محاله ، وليس لأحد أن يجاوزه ، ولأن هذا الأمر مهم بحيث يجب التنبيه عليه اعترض بقوله: فعلم المرء ينفعه.

د-التنبيه على سبب أمر فيه غرابة كقول الرماح المعروف بابن ميادة :

فــلا هجره يبدو -وفى اليأس راحة-　　　ولا وصــله يــبدو لــنا فنكارمه

فإن قوله : (فلا هجره يبدو) يشعر بأن هجر الحبيب له وبُعْده عنه أحد مطلوبــيه وهــذا أمر غريب مستبعد ، إذ كيف يكون هجر الحبيب مطلوبا للمحــب ، فاعترض بقوله : (وفى اليأس راحة) لينبه على سبب هذا الأمر الغريب.

هـــ-تخصيص أحد الأمرين المذكورين بزيادة التأكيد فى أمر متعلق بهما ، كقــول الله تعــالى : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه - حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين - أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير﴾. (1)

---

(1) سورة لقمان ١٤.

ففي الآية الكريمة توصية بالوالدين – الأم والأب – ولمزيد العناية بشأن الأم وتأكيد صلتها والبر بها جاء الاعتراض بقوله تعالى ﴿حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين﴾.

و–الاستعطاف كقول أبي الطيب المتنبي :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه –يا جنتي– لرأيت فيها جهنما

فقوله : (يا جنتي) اعتراض بين الشرط وجزائه ، وغرضه استعطاف محبوبته حتى تلين بوصله ، ولذا سماها جنة ، وبين (جنتي) و (جهنما) طباق حسن لطيف كسا الأسلوب رونقا وبهاء ، كما أن في إضافة جنة إلى ضميره (يا جنتي) حثا لها على أن ترق فتنجيه من جهنم التي يحس بلهيبها بين جوانحه ، يقصد بذلك تباريح الشوق ولوعة الصبابة، إلى غير ذلك من أسرار ونكات بلاغية رائقة لطيفة يأتي الاعتراض من أجلها حسب سياقات الكلام ومقتضيات أحواله.

الإطناب بغير ما تقدم من أنواع :

قد يجئ الإطناب على غير ما تقدم من أقسام ، وذلك كأن تقول في الشئ المستبعد : رأيته بعيني ، وسمعته بأذني ، وذقته بفمي ، فإن الرؤية لا تكون إلا بالعين وكذا السمع لا يكون إلا بالأذن ، وأيضاً الذوق لا يكون إلا بالفم فأنت أتيت – إذن – بهذه الثلاثة (عيني ، وأذني ، وفمي) لتأكيد المعنى وتقريره.

ومـن هـذا القبـيل قولـه تعـالى : ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾.[١]

فإن القول لا يكون إلا بالأفواه ، فيكون ذكر (أفواهكم) إطنابا غرضه تأكـيد أن هذا الإفك الذى يدعونه ليس إلا قولا يجرى على ألسنتهم ويدور فـي أفواههـم من غير ترجمة عن القلب ، كما هو شأن الأمر المعلوم إذا ترجم عنه اللسان وأبان.

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾.[٢]

فإن قوله تعالى : "من فوقهم" إطناب لأن السقف لا يخر إلا من فوق، والغرض منه الدلالة على الإحاطة والشمول.

ومنه كذلك قوله – عز من قائل– : ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه﴾.[٣]

فقولـه (فى جوفه) إطناب لأن القلب لا يكون إلا فى الجوف ، ومن بديـع الصياغة فى هذا القول الكريم إفراد الجوف – فى جوفه – ففى هذا الإفراد تأكيد لنفى وجود القلبين ، لأن كل قلب يحتاج إلى جوف يسكن فيه، فإذا ثبت أن الجوف واحد تأكد بما لا يدع مجالا لشك أن القلب لا يكون إلا واحـدا ، إلى غير ذلك من صور إطنابية متعددة يمكنك أن تعيها وتعرفها إذا أتـت تدبرت أساليب العرب وطرائق تعبيراتها، ولذا فأنت محتاج إلى الإكـثار مـن القـراءة الواعية المتأنية التى توقفك على خصائص الكلام ودلالات أحواله.

---

(١) سورة النور ١٥.

(٢) سورة النحل ٢٦.

(٣) سورة الأحزاب ٤.

ثالثاً : المساواة

تعريفها :

أن يؤتى بلفظ يدل على المعنى بتمامه من غير أن يكون ناقصاً عن أجزاء المعنى المراد ولا زائداً عليه. (١)

ومقامهـــا : الإتــيان باللفظ الدال على أصل المعنى المراد حيث لا مقتضى للعدول عنه إلى الإيجاز أو الإطناب.

ومن أمثلتها :

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. (٢)

فالمعــنى : لا ينزل المكر السيئ إلا بمن يستحقه بعصيانه وكفره ، وهذا المعنى قد أدى بما يستحقه من التركيب دون نقص أو زيادة حيث لا مقتضى للعدول عن أصل المعنى المراد.

وقــد يعــترض البعض بأن فى التركيب حذفا للمستثنى منه إذ حقه إعرابا (لا يحيق المكر السيئ بأحد إلا بأهله) فكيف يعد من المساواة مع ما فيه من حذف؟

والجواب عن ذلك أن اعتبار الحذف هنا ليس لنكتة بلاغية حتى يعد الاســلوب من قبيل الإيجاز بالحذف ، وإنما لرعاية قواعد الأعراب ، كما أنه لا يفتقر إلى هذا المستثنى منه المحذوف فى تأدية أصل المعنى المراد ،

---

(١) شروح التلخيص ١٨٠/٣.

(٢) سورة فاطر بعض آية ٤٣.

بالإضافة إلى أن هذا المحذوف لو ذكر عد حشوا ، والحشو محل بفصاحة الكـــلام وبلاغـــته ، وبهذا يبقى الأسلوب من باب المساواة مع ما فيه من حذف.

وممـــا جـــاء علـــى حد المساواة قوله تعالى : ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ..﴾ . (١)

حيث عبر التركيب الدال على أصل المعنى دون زيادة أو نقص في العبارة لعدم المقتضى للعدول عن أصل المعنى المراد.

ومـــنها قـــول الرسول ﷺ : "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" ، ومن منظوم الكلام قول النابغة الذبياني يخاطب النعمان بن المنذر :

فـــإنك كالليـــل الـــذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع(٢)

ولا يقدح في عده من المساواة ما فيه من حذف لجواب الشرط ، لأنه تقدير إعراب وليس لغرض بلاغي اقتضاه المقام.

ومنها كذلك قول زهير بن أبي سلمى :

ومهمـــا يك عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

---

(١) سورة الأنعام ٦٨.

(٢) المنـــتأى مكـــان الانتـــياء وهو البعد وإطلاق السعة عليه مجاز مرسل لعلاقة المجاورة والشاعر يشبه النعمان بالليل في أنه لا يستطيع أحد أن يهرب منه ولو ذهب إلى أقصى المشارق والمغارب فإن الليل مدركه لا محالة ، وهذا يدل على طول يد النعمان واتساع ملكه ، بحيث لا يستطيع الشاعر أن يهرب منه بحال من الأحوال.

فهــذه الأمثلة وكذا ما جاء على شاكلتها معدودة من المساواة ، لأنه عــبر فيها باللفظ الدال على أصل المعنى المراد دون ما زيادة أو نقصان ولــو حاولــت أن تحــذف منها حرفا لاختل المعنى ، فألفاظها على قدر معانيها، مساوية لها.

وكذلك لا يسوغ أن تزيد فيها حرفا وإلا كانت الزيادة حشوا لا فائدة فيه وبعد فإن العبرة فى المجئ بأى من تلك الثلاثة :

الإيجاز ، أو الإطناب ، أو المساواة ، إنما هى مراعاة مقامات الكلام ومقتضــياته حــتى يعد الكلام بليغا ويوصف صاحبه بأنه بليغ ، فإذا كان المقــام للإطناب ، وأوجز المتكلم أو جاء بأسلوب المساواة خالف مقتضى المقــام فلا يعد بليغا ، وكذا إذا أطنب أو جاء بالمساواة فى مقام الإيجاز ، فلكــل واحــد مــن هــذه الأساليب الثلاثة مقامه اللائق به الذى لا ينبغى مجاوزته.

تم والحمد لله

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾